(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزَّلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مُرْسَل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيانُ بما تصح به نبوتُك من جنس المعجزات لا بما يُقْتَرَحُ عليك. ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو اللهُ تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاءُ هدايتَه بما يُنَزِّل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدَره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم يَنْزِل لعلمه بأن اقتراحَهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسَبْق قضائه عليهم بالكفر فقال:

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي حَمْلَها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقَّبة. ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ ﴾ وما تُنْقِصه وما تزداده في الجِنَّة والمدة والعَدَد. وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبي حنيفة. روي[1] أن الضحاك ولد لسنتين وهرمَ بن حيان لأربع سنين[2]. وأعلى عَدَده لا حد له، وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته وَلَدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده. وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد، قال تعالى: ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾[3] فإن جعلتهما لازمين تعين ما أن تكون مصدرية، وإسنادُهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقَدَر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[4] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿ هَادٍ ﴾[5]

---

(١) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).

(٢) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).
قال ابن حزم في المحلى «١٠/ ١٣١ ـ ١٣٣» ـ «ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر، لقول الله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] وقال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» [البقرة: ٢٣٣]. فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً» هـ.
ثم ذكر ابن حزم جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، ولكنه عقب عليها بقوله «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يُعرف مَن هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا» ١هـ.
قلت: هذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده. وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

(٣) الكهف: «٢٥».

(٤) القمر: «٤٩».

(٥) الرعد: «٧».

﴿وَالٍ﴾[١] و﴿وَاقٍ﴾[٢] ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يَصِلُون بالتنوين ويقفون بغير ياء.

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَـالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

(٩) ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الحاضر له. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مُختبأ بالليل. ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ بارز. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد[٤]، مِنْ سرب سُرُوباً إذا برز، وهو عطف على مَنْ أو مستخف على أنَّ من في معنى الاثنين كقوله:

تكن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقررِّه لكمال علمه وشموله.

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مُعَقِّبَـٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع مُعَقِّبة مِنْ عقَّبَهُ مبالغة عَقَبَه إذا جاء على عقِبه كأن بعضهم يَعْقِب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاءُ في القاف والتاءُ للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرىء مَعَاقيب جمع معقّب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين. ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار، أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرىء به. وقيل مِنْ بمعنى الباء، وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات، وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا راد له، فالعامل في إذا ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع

---

(١) الرعد: «١١».
(٢) الرعد: «٣٤».
(٣) النحل: «٩٦».
(٤) وتقديم الإسراء على الجهر والاستخفاء على السروب لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء (س٥/٨).

عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وانتصابُهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع، أو الحالِ من البرق أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاقِ المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَك موكل بالسحاب معه مخاريق[2] من نار يسوق بها .....

(١) التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وهو نوعان: تسبيح دلالة وتسبيح مقالة، أما تسبيح الدلالة فكل المخلوقات تدل على أن الله هو خالقها وأنه تعالى عالم قدير سميع بصير حي مريد.. وأما تسبيح المقالة فيكون من باب القول كما يتكلم الإنسانُ بلسانه.. ولما كان من منهج المعتزلة إخضاع جميع المخلوقات إلى حكم العقل قالوا بتعذر نطق المخلوقات وحملوها على غير الحقيقة... والبيضاوي تأثر بالزمخشري في بعض اعتزالياته وحمل السجود على غير الحقيقة.
لكنّ النطق والقول غير مختص بالإنسان والله تعالى هو الذي أنطق الإنسان وعلمه البيان وهو قادر على إنطاق جميع المخلوقات. والنصوص كثيرة في ذلك وحملها على المجاز تكلف، فسليمان عليه السلام علمه اللهُ منطق الطير وقد ذكر القرآن الكريم قصة محادثته مع الهدهد، وفي آخر الزمن تخرج دابة من الأرض تكلم الناس، والله تعالى يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل فتشهد على صاحبها يوم القيامة وكذلك الجلود.. وقد تكلم في المهد عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره... وفي الصحيح أنّ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكّت حتى استقرت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» ـ رواه البخاري ـ.
فإذا كان الأمر كذلك من نطق الجمادات فلماذا يُستبعَد نطق الرعد بالتسبيح لله تعالى ويُحمَل على غير حقيقته؟! وقد أثبت القرآن الكريم عدم فهم الإنسان لتسبيح الجمادات كما قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» ـ الإسراء «٤٤» ـ.

(٢) ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. [النهاية: ٢/٢٦].

السحاب»[١]. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من خوف الله تعالى وإجلالِه، وقيل الضمير للرعد. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسولَ الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدالُ التشدد في الخصومة من الجَدْل وهو الفتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامرَ بن الطفيل وأَرْبَدَ بن ربيعة ـ أخا لبيد ـ وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمىٰ عامراً بغدة فمات في بيتِ سلوليَّة، وكان يقول غدةٌ كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت[٢]. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المماحلةُ: المكايدةُ لأعدائه، من مَحَل فلانٌ بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، ولعل أصله المَحْل بمعنى القحط. وقيل فِعال من المَحْل بمعنى القوة. وقيل مِفْعل من الحول أو الحيلة أُعِلّ على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعِدُ الله أشدُّ وموساه أحدُّ.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويُدعىٰ إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده. والحقُّ على الوجهين ما يناقض الباطل، وإضافةُ الدعوة إليه لما بينهما من الملابسة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجملتين إن كانت الآية في أربد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يَشْعرا به مِحَالٌ من الله إجابةً لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤ رقم ٣١١٧) عنه في سياق طويل.
وقال: حديث حسن غريب.
قلت: في إسناده بكير بن شهاب الكوفي قال الحافظ في التقريب (١/ ١٠٧): مقبول.
والحديث أخرجه أيضاً من هذا الوجه أحمد (٢/ ٢٧٤) في سياق أطول من سياق الترمذي وكذا النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٤).
والخلاصة أن الحديث حسن انظر «الصحيحة» للألباني (رقم: ١٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ج١٣/ ١٢٦) عن ابن جريح مختصراً.
وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٢) عن ابن جرير وابن زيد مطولاً.
وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ رقم ١٠٦٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٦٦). من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤١) وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.
قلت: ـ بل هو متروك انظر «التقريب (١/ ٥١١)».

وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحَالِهِ بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون فَحَذَف الراجعَ، أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة مَنْ بسط كفيه ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ لأنه جماد لا يَشْعُر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيانِ بغير ما جبل عليه، وكذلك آلهتُهم. وقيل شبهوا في قلة جدوىٰ دعائهم لها بمَنْ أراد أن يغترف الماءَ ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرىء تَدْعُون ـ بالتاء ـ وباسطٍ بالتنوين. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرةُ كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ بالعَرَض، وأن يرادَ به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقيادُ ظِلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص. وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة، وقولُه ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ظرفٌ ليسجد، والمراد بهما الدوام، أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تُعظَّم وتكثر فيهما. والغدو جمع غداة كقُنِيٍّ جمع قناة، والآصالُ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر، ويؤيده أنه قد قرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل.

(١٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقُهما ومتولي أمرَهما. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو لقِّنهم الجواب به ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثم أَلْزِمْهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاءَ أن يشفعوا لهم. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها، والموحِّد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا، والهمزةُ للإنكار، وقوله: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ خَلْقُ الله وخَلْقُهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خَلَقوا كما خلق اللهُ فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالقَ غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق موجِبَ العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسِها فإن المبادىء منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ أنهار، جمعُ وادٍ وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتّسع فيه واستَعْمَلَ للماء الجاري فيه، وتنكيرُها لأن المطر يأتي على تناوبٍ بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالىٰ أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبَر. ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ رَفَعَه، والزَّبَدُ وَضَرُ الغَلَيَان. ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعمّ الفِلِزّات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حُلًى. ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصودُ من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي ومما يوقدون عليه زَبَد مثْلُ زبد الماء وهو خَبَثُه، ومِنْ للابتداء أو للتبعيض. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس[1]، وإضمارُه للعلم به. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ مَثَل الحق والباطل، فإنه مِثْلَ الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأوديةُ على قدر الحاجة والمصلحة فَيُنْتَفَعُ به أنواعُ المنافع، ويمكث في الأرض بأن يَثْبُتَ بعضُه في منافعه ويسلك بعضُه في عروق الأرض إلى العيون والقُنِيِّ والآبار، وبالفلز الذي يُنتفع به في صوغ الحُلىٰ واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما، وبيّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يُجْفَأُ به أي يَرمي به السيلُ والفلزُّ المذاب. وانتصابه على الحال ـ وقرىء جُفَالاً ـ والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلز. ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلُها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتَبِهات.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الاستجابة الحسنىٰ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهم الكفرة، واللام متعلقة بيضرب على أنه جَعَلَ ضَرْبَ المَثَل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبرُ الحسنىٰ ـ وهي المثوبة أو الجنة ـ والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبرُهُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو المناقشةُ فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يُغْفَرُ منه شيء. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المستقرّ، والمخصوصُ بالذم محذوف.

---

(١) أي «ومما يوقدون».

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

(١٩) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يَستبصر فيستجيب، والهمزةُ لإنكار أن تقع شبهةٌ في تشابههما بعد ما ضُرِب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومعارضة الوهم.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلىٰ، أو ما عَهِد الله تعالى عليهم في كُتُبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وَثَّقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاةُ جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيدَه عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسِبُون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا[1].

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى[2]. ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بعضَه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يُعْرَفْ بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عُرِف به. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها فيجازُون الإساءة بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة الحسنة فتمحوَها[3]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة. والجملةُ خبر الموصولات إن رُفِعَتْ بالابتداء، وإن جُعِلت صفات لأولي الألباب فاستئنافٌ بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبىٰ الدار، أو مبتدأ خَبَرُهُ: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعَدْنُ: الإقامةُ، أي جناتٌ يقيمون فيها، وقيل هو بطنان .....

---

(١) خص البيضاوي الخشية بخشية وعيده تعالى، لكنّ الظاهر أن المراد به مطلق الخشية.
وقوله تعالىٰ في الأول «يخشون» وفي الثاني «يخافون» هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به (روح المعاني ١٣/ ١٤٠) وقد فرق الراغب بين الخشية والخوف فقال: (الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشىٰ منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: «إنما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماء» ـ فاطر «٢٨» ـ) المفردات مادة (خشي).

(٢) أورد الصبر بصيغة الماضي للدلالة على الاعتناء بشأنه ووجوب تحققه، فإنه ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة (س٥/ ١٧).

(٣) وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة (س٥/ ١٧).

الجنة[١]. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه والمعنىٰ أنه يَلحقُ بهم مَنْ صلح مِنْ أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يُقْرَن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أُنسهم، وفي التقييد بالصَّلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين:

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بِشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ﴾ متعلق بعليكم، أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم، لا بسلام.. فإن الخبر فاصل. والباءُ للسببية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وقرىء فَنَعْم بفتح النون، والأصلُ نَعِمَ فسُكِّن العينُ بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أي أهلُ مكة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعُجَالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أَشِرُوا بما نالوا من الدنيا ولم يَصْرِفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نَزْرٌ قليل النفع سريع الزوال.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات[٢]. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرىٰ التعجب من قولهم: كأنه قال قل لهم ما أَعْظَمَ عنادَكم! إن الله يُضِل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أُنزِلَت كلُّ آية، ويهدي إليه من أناب بما جئتُ به بل بأدنى منه من الآيات.

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل مِنْ مَنْ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أُنساً به

---

(١) أي وسطها.

(٢) وإظهار الموصول «الذين كفروا» لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكي عنهم من أقوال (س٥/١٩).

واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأٌ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلىٰ من الطِّيب قُلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلَها، مصدر لطاب كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرىء: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب.

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك، يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ تقدمَتْها. ﴿أُمَمٌ﴾ أُرسلوا إليهم، فليس ببِدْعٍ إرسالُك إليهم. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحالُهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نِعَمَه وخصوصاً ما أُنْعِم عليهم بإرسالك إليهم. وإنزالِ القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنياوية عليهم[2]. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا: وما الرحمن؟![3] ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ أي الرحمنُ خالقي ومتولي أمري. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابُه، والمرادُ منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغةُ في عناد الكفرة وتصميمِهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارّها. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجُعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغايةُ في الإعجاز والنهايةُ في التذكير والإنذار، أو

---

(١) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «وتطمئن» لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (س٥/ ٢٠).

(٢) والعدول إلى المُظْهَر المتعرض لوصف الرحمة «الرحمن» من حيث إن الإرسال ناشىء منها (س٥/ ٢١).

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس من رواية الضحاك (ص٢٧٩) ومعلوم أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾[1] الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرّك أن نتبعك فسيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائعَ، أو سخِّرْ لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت[2]. وعلى هذا فتقطيع الأرض قَطْعُها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينهما اعتراض. وتذكيرُ كُلِّم خاصة لاشتمال الموتىٰ على المذكر الحقيقي. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيءٍ، وهو إضرابٌ عما تضمنته لو من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرُهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا أفلم يتبين، وهو تفسيره. وإنما استعمَلَ اليأسَ بمعنى العلم لأنه مسبَّب عن العلم، فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدي بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، أو بآمنوا. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تَقْرعهم وتُقْلقهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليفزعون منها ويتطاير إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتَغِير حواليهم وتختطف مواشيَهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تَحُل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حلّ بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه. والإملاءُ أن يترك ملاوة من الزمان في دَعَة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبرُ محذوف تقديره كمن ليس كذلك، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) الأنعام: «١١١».

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٢/ ٤٠ ـ ٤١) وفي سنده عبد الجبار بن عمر الأيلي وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٤٦٦) وفيه عبدالله بن عطاء وهو مدلس وقد عنعن (التقريب ١/ ٤٣٤).
والحديث ضعفه الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٥).

﴿شُرَكَآءَ﴾ استئناف أو عطف على كسبت إن جعلت ما مصدرية. أو لم يوحّدوه، وجعلوا عطفٌ عليه، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صِفُوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ بل أتنبئونه. وقرىء تُنْبِئُونه بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنىً كتسمية الزنجي كافوراً، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيلَ ثم خالُوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم[1]. ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وصَدُّوا بالفتح، أي وصَدّوا الناس عن الإيمان، وقرىء بالكسر وصِدٌّ بالتنوين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدىٰ.

لَهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته ودوامه. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حافظ.

(٣٥) ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صفتُها التي هي مَثَلٌ في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. وقيل خبرُه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حَذْفِ موصوفٍ أي مَثَل الجنة جنةٌ تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوفِ أو من الصلةِ. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك لا يُنْسَخُ كما ينسخ في الدنيا بالشمس. ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ مآلهم ومنتهىٰ أمرهم. ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني كَفَرَتُهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن . . . . . .

(١) فقوله «للذين كفروا» وضع الموصول موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر (س٥/ ٢٤).

الأشرف[١] وأصحابه والسيد[٢] والعاقب[٣] وأشياعهما. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحّده، وهو العمدةُ في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس بِبِدْع مخالفةُ الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرىء ولا أشركُ بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القَدَر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنىٰ لإنكاركم المخالفة فيه.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثْلُ ذلك الإنزالِ المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يَحْكُمُ في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة[٤]. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجَماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ تُقْتَرَحُ عليه وحُكْمٍ يُلْتَمَسُ منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنه المليء بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يُكْتَب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

(٣٩) ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يَسْتَصْوِب نسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها، وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاءٌ ويترك غيره مثبَتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه، وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين، وقيل يمحو الفاسدات

---

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف مفصلاً في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧٤ ـ ٨٤).

(٢) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «والسيد: ثِمالَهم، وصاحِبُ رحلهم، ومجتمعهم، واسمه الأيهم» هـ.

(٣) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩) «العاقِبُ أميرُ القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يَصْدُرون إلاّ عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح» هـ.

(٤) والتعرض لوصفه حكماً ـ مع أن بعضه ليس بحكم ـ لتربية وجوب مراعاة وتحتم المحافظة عليه (س٥/ ٢٦).

الكائنات[١]. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويُثَبِّتُ بالتشديد. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحالُ أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله[٢]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفلْ بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإنا فاعلون له وهذا طلائعه.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا راد له، وحقيقته الذي يُعقِّب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقِّب لأنه يَقْفُو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل لا مع المنفي النصبُ على الحال، أي يحكم نافذاً حُكْمُه[٣]. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيُعِدُّ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعَدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم. واللام تدل على أن المراد بالعقبىٰ العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلي الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو الكافرُ على إرادة الجنس، وقرىء الكافرون، والذين كفروا، والكُفْرُ أي أهله، وسَيُعْلَمُ مِنْ أَعْلَمَه إذا أخبره.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود[٤]. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أَظْهَرَ من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ

---

(١) والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات.

(٢) صيغة المضارع في «نعدهم» لحكاية الحال الماضية أو لتجدده. وإيراد البعض رمز لإرادة بعض الموعود (س٥/ ٢٧).

(٣) وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله «والله يحكم...» وبناء الحكم على الاسم الجليل «الله» من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفىٰ (س٥/ ٢٨).

(٤) وصيغة الاستقبال بقوله «ويقول» لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على التجدد والاستمرار (س٥/ ٢٩).

﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علم القرآن وما أُلِف عليه من النظم المعجز، أو عِلْمُ التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو عِلْمُ اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفىٰ بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يَعْلَمُ ما في اللوح المحفوظِ إلاَّ هوَ شهيداً بينَنا فَيُخْزِي الكاذبَ مِنَّا، ويؤيِّدُه قراءةُ مَنْ قرأ ومِنْ عِنْدِه بالكسر وعِلْمُ الكتاب. وعلىٰ الأول مرتفعٌ بالظرف فإنه معتمدٌ على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأً والظرف خبرُه وهو متعيِّنٌ على الثاني. وقُرِىءَ ومِنْ عِنْدِه عُلِمَ الكتابُ على الحرفِ والبناءِ للمفعول. عن رسول الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرعد أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بوزن كلِّ سحابٍ مضَىٰ وكلِّ سحاب يكون إلى يومِ القيامة من الموفينَ بعهدِ الله»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبيّ (الفتح السماوي ص٧٤٢) وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

سورة إبراهيم عليه السلام مكية[1] وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتابٌ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائِك إيَّاهم إلى ما تضمَّنه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواعِ الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقِه وتسهيلِه، مُسْتَعَارٌ من الإذْنِ الذي هو تسهيلُ الحجاب، وهو صلة لِتُخْرِجَ أو حالٌ من فاعلِهِ أو مفعولِه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنه جوابٌ لِمَنْ يسألُ عنه. وإضافةُ الصراطِ إلى اللهِ تعالى إما لأنه مقصدُه أو المظْهِرُ له. وتخصيصُ الوصفين للتنبيه على أنه لا يَذِلُّ سالِكُه ولا يَخِيبُ سابِلُهُ.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[2] مبتدأٌ وخبرٌ، أو اللهُ

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣).
«أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت في مكة، سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً...» إلا آيتين نزلتا في قتلي بدر من المشركين وانظر «زاد المسير» (٤/ ٣٤٣).

(٢) قراءة نافع وابن عامر برفع لفظ الجلالة.

خبرُ مبتدأ محذوفٍ والذي صِفتُه. وعلى قراءة الباقينَ عطفُ بيانٍ للعزيزِ لأنه كالعَلَم لاختصاصِه بالمعبودِ على الحقِّ. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفرَ بالكتاب ولم يَخْرُجْ بهِ من الظلماتِ إلى النور. والويلُ نقيض الوَأْلِ وهو النجاة، وأصله النَّصْبُ لأنه مصدرٌ ـ إلا أنه لم يُشْتَقَّ منه فعلٌ ـ لكنه رُفِعَ لإفادةِ الثبات.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونَها عليها فإن المختارَ للشيءِ يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها من غيرِه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويقِ الناس عن الإيمان. وقُرِئَ ويُصِدونَ مِنْ أَصَدَهُ وهو منقول من صدَّ صُدوداً إذا تنكَّبَ، وليس فصيحاً لأن في صدِّه مندوحةٌ عن تكلُّفِ التعديةِ بالهمزة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويبغون لها زيغاً ونُكُوباً عنِ الحقِّ ليقدحُوا فيه، فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ إلى الضميرِ. والموصولُ بِصِلَتِهِ يَحْتَمِلُ الجرَّ صفةً للكافرين والنَّصبَ على الذمِّ والرفعَ عليه، أو على أنهُ مبتدأٌ خبرُه: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ضلُّوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحلَ. والبعدُ في الحقيقة للضالِّ فوُصِفَ بهِ فِعْلُه للمبالغةِ، أو للأمرِ الذي به الضلالُ فَوُصِفَ به لملابستِه.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إلا بِلُغَةِ قومه الذي هو مِنهم وبُعِثَ فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أُمِرُوا به فيفقهوهُ عنه بِيُسْرٍ وسُرْعةٍ، ثم ينقلوهُ ويترجموه إلى غيرِهم فإنَّهم أَوْلَى الناسِ إليه بأنْ يدعوهم وأحقُّ بأنْ يُنْذِرَهم، ولذلك أُمِرَ النبيُّ ﷺ بإنذارِ عشيرتِه أولاً. ولو نَزَلَ على مَنْ بُعِثَ إلي أُمَمٍ مختلفةٍ كُتِبَ على ألسنتِهم استقلَّ ذلكَ بنوعٍ من الإعجاز، لكنْ أدَّى إلى اختلافِ الكلمةِ وإضاعةِ فضلِ الاجتهادِ في تعلمِ الألفاظِ ومعانيها والعلومِ المتشعبةِ منها وما في إتعابِ القرائحِ وكدِّ النفوس من القُرَبِ المقتضيةِ لجزيلِ الثواب. وقُرِئَ بِلِسْنٍ وهوَ لغةٌ فيه كريشٍ ورياشٍ، ولُسُنٌ بضمتين، وضمةٍ وسكونٍ على الجمعِ كَعُمُدٍ وعُمْدٍ. وقيلَ: الضميرُ في قومِه لمحمدٍ ﷺ وأن الله تعالى أنزلَ الكُتُبَ كلَّها بالعربية، ثم تَرْجَمَهَا جبريلُ عليهِ السلامُ أوْ كلُّ نبيٍّ بِلُغَةِ المنزَّلِ عليهم، وذلكَ ليسَ بصحيحٍ، يردُّه قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنه ضميرُ القوم، والتوراةُ والإنجيلُ ونحوُهما لم تُنْزَلْ لتُبَيِّنَ للعرب. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيقِ له[1]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يُغْلَبُ على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يهدي إلا لحكمةٍ.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني اليدَ والعصَا وسائرَ معجزاتِه. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ

(١) تقديم الإضلال على الهداية للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء. أو أن تقديم الإضلال لإبقاء ما كان على ما كان، والهداية إنشاء ما لم يكن (س٥/ ٣٢).

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بمعنَى أي أَخْرِجْ لأن في الإرسالِ معنَى القولِ، أو بِأَنْ أَخْرِجْ فإنَّ صِيَغَ الأفعالِ سواءٌ في الدلالةِ على المصدرِ فيصِحُّ أنْ تُوصَلَ بها أنْ الناصبةُ. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ بوقائِعه التي وقعتْ على الأُمم الدارجةِ، وأيامُ العربِ حُرُوبُها. وقيلَ بنعمَائِهِ وبلائِه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَصْبِر على بلائِه ويَشكر على نَعْمَائِه فإنه إذا سَمِعَ بما أُنْزِلَ على مَنْ قبلُ منَ البلاء وأُفِيضَ عليهم من النعماءِ اعتبرَ وتنبَّهَ لما يجبُ عليه من الصبرِ والشكرِ. وقيلَ: المرادُ لكل مؤمن وإنما عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصَّبرَ والشكرَ عُنْوَانُ المؤمن.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمتَه عليكم وقتَ إنْجَائِه إيَّاكم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ بعليكم إنْ جُعِلَتْ مستقرةً غيرَ صِلَةٍ للنعمةِ وذلك إذا أُريدَ به العطيةُ دونَ الإنعام، ويجوز أن يكون بدلاً من نعمةِ الله بدلَ الاشتمالِ. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أحوالٌ من آل فرعونَ، أو من ضميرِ المخاطبينَ والمرادُ بالعذابِ ههنا غيرُ المرادِ به في سورة البقرة والأعرافِ[1] لأنه مفسَّرٌ بالتذبيح والقتْلِ ثَمَّةَ ومعطوفٌ عليه التذبيحُ ههنا، وهو إما جِنْسُ العذاب أو استعبادُهم أو استعمالُهم بالأعمالِ الشاقةِ[2] ﴿وَفِى ذَٰلِكُمْ﴾ مِنْ حيثُ إنه بإقدار الله إياهم وإمهالِهم فيه. ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاءُ منه. ويجوز أن تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ والمرادُ بالبلاءِ النعمةُ.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى عليه السلام، وتأذَّن بمعنى آذنَ كتوعَّد وأَوْعَدَ غيرَ أنه أبلغُ لما في التفعُّلِ من معنَى التكلُّفِ والمبالغةِ[3]. ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ما أنعمتُ عليكم مِنَ الإنجاءِ وغيرِه بالإيمانِ والعملِ الصالح. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ. ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمتُ عليكم. ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ فلعلِّي أعذِّبُكم على الكُفْرَانِ عذاباً شديداً، ومن عادةِ أكرمِ الأكرمينَ أنْ يصرِّحَ بالوعْدِ ويُعَرِّضَ بالوعيد، والجملة مقُولُ قَوْلٍ مقدَّرٍ أو مفعولُ تأذَّنَ على أنه جارٍ مَجْرَى قالَ لأنه ضَرْبٌ مِنْه.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الثقلينِ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عنْ شكرِكُم.

---

(١) سورة البقرة الآية «٤٩» والأعراف الآية «١٤١».

(٢) معنى يسومونكم أي يبغونكم، مِنْ سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء، ومعنى يستحيون نساءكم أي يبقونهن في الحياة مع الذل والصغار.

(٣) والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث (س٥/ ٣٥).

﴿حَمِيدٌ﴾ مُستَحِقٌ للحمْدِ في ذاتِه، محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ وتنطِقُ بنعمته ذرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضَرَرتُم بالكفر إلا أنفسَكم حيثُ حرمتُمُوها مزيدَ الإنعامِ وعرَّضْتُمُوها للعذاب الشديد.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام، أو كلامٌ مبتدأ من الله. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ وقَعَتِ اعتراضاً، أو الذينَ مِنْ بعدِهم عطفٌ على ما قبلَه ولا يعلمُهم اعتراضٌ، والمعنى أنهم لكثرتِهم لا يعلَمُ عددَهم إلا الله، ولذلكَ قال ابنُ مسعود[1] رضي الله تعالى عنه: كَذَبَ النَّسَّابونَ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فعضُّوها غيظاً مما جاءتْ به الرسلُ عليهم الصلاةُ والسلام كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]، أو وضعُوها عليها تعجُّباً منه أو استهزاءً عليهِ كَمَنْ غَلَبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتاً للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام وأمراً لهم بإطباقِ الأفواهِ، أوْ أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقتْ به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أنْ لا جوابَ لهم سواه، أَوْ رَدُّوها في أفواهِ الأنبياء يمنعونَهم من التكلُّم، وعلى هذا يُحْتَمَلُ أن يكونَ تمثيلاً. وقيلَ الأيدي بمعنَى الأيادي، أيْ ردُّوا أيادي الأنبياءِ التي هي مواعظُهم وما أُوحِيَ إليهم من الحكم والشرائعِ في أفواهِهم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلُوها فكأنَّهم ردُّوها إلى حيثُ جاءت منه. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعْمِكم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان. وقُرِئَ تَدَّعُونا بالإدغام. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِعٍ في الريبة أو ذي ريبةٍ وهي قلقُ النفس وأن لا تطمئنَّ إلى الشيء.

(١٠) ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أُدْخِلَتْ همزةُ الإنكارِ على الظرفِ لأنَّ الكلامَ في المشكوكِ فيه لا في الشكِّ، أيْ إنما ندعوكم إلى اللهِ وهو لا يحتملُ الشكَّ لكثرةِ الأدلة وظهورِ دلالتها عليه، وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو صفةٌ أو بَدَلٌ، وشكٌّ مرتفِعٌ بالظرفِ[3]. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بِبَعْثِه إيَّانا. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أو يدعُوكم إلى المغفرةِ كقولك: دعوتُه

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٨٧) عنه.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) آل عمران: «١١٩».

(٣) لم يُجِب الرسل على قول الكافرين «إنا بما أرسلتم به كافرون» لأن مقصدهم الأقصى هو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ـ وإظهارُ البينات وسيلة إلى ذلك ـ فاقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى (س٥/ ٣٧).

لِيَنْصُرَني، على إقامةِ المفعولِ له مقامَ المفعولِ به. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبِكم وهو ما بينكم وبينَه تعالى، فإن الإسلامَ يجبُّه دونَ المظالمِ. وقيلَ جِيْءَ بِمِنْ في خطابِ الكَفَرةِ دونَ المؤمنينَ في جميعِ القرآنِ تَفْرِقَةً بينَ الخطابَيْنِ. ولعلَّ المعنَى فيهِ أن المغفرةَ حيثُ جاءتْ في خطابِ الكفارِ مُرَتَّبَةٌ على الإيمانِ وحيثُ جاءتْ في خطابِ المؤمنينَ مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّبِ عن المعاصي ونحوِ ذلكَ فتتناولُ الخروجَ عنِ المظالم. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقْتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه آخِرَ أعمارِكُم. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فَضْلَ لكم علينا فَلِمْ تُخَصُّونَ بالنبوَّةِ دونَنَا؟! ولو شاءَ الله أن يبعثَ إلى البشرِ رُسُلاً لبعثَ مِنْ جِنْسٍ أفضلَ. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذهِ الدعوى. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على فضلِكم واستحقاقِكم لهذه المزيةِ، أو على صِحَّةِ ادِّعَائِكم النُّبُوَّةَ، كأنَّهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيناتِ والحججِ واقترحُوا عليهم آيةً أخرى تَعَنُّتاً ولَجَاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سلَّموا مشاركتَهم في الجِنْسِ وجعلوا الموجِبَ لاختصاصِهم بالنبوةِ فضلَ اللهِ وَمنَّهُ عليهم. وفيه دليلٌ على أنَّ النبوةَ عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعضِ الجائزاتِ على بعضٍ بمشيئةِ اللهِ تعالَى. ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليسَ إلينا الإتيانُ بالآياتِ ولا تَسْتَبِدُّ به استطاعتُنا حتى نأتيَ بما اقترحتموهُ، وإنما هو أمرٌ يتعلقُ بمشيئةِ الله تعالى فيَخُصُّ كلَّ نبيٍّ بنوعٍ منَ الآيات. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلنتوكلْ عليه في الصَّبْرِ على معاندتِكم ومعاداتِكم. عمَّمُوا الأمرَ للإشعارِ بما يوجِبُ التوكُّلَ وقصدُوا به أنفسَهم قَصْداً أَوَّلِيّاً، أَلاَ تَرَى قولَه تعالَى:

(١٢) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ: أيُّ عُذْرٍ لنا في أَنْ لا نتوكلَ عليهِ؟! ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرفُه ونعلَمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيده. وقرأ أبو عمرٍو بالتخفيفِ هَهُنا وفي العنكبوتِ[1]. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ أكَّدوا به تَوَكُّلَهم وعدَمَ مبالاتِهم بما يجري من الكفارِ عليهم. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فَلْيَثْبُتِ المتوكلونَ على ما استحدَثُوه مِنْ تَوَكُّلهم المسببِ عن إيمانِهم.

(١٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ حَلَفُوا على أنْ يكونَ أحدُ الأمرَيْنِ: إمَّا إخراجُهم للرسلِ أو عَوْدُهم إلى ملتهم، وهو[2] بمعنى الصيرورةِ لأنَّهم لم يكونُوا

(١) قراءة أبي عمرو بالتخفيف، أي بتخفيف الباء، أي بسكونها فقرأ «سُبْلَنَا» وقرأ بها هنا أي الآية «١٢» من سورة إبراهيم وفي العنكبوت «٦٩».

(٢) وهو أي العَوْد.

على مِلَّتهم قطُّ. ويجوز أن يكونَ الخطابُ لكلِّ رسولٍ ومَنْ آمنَ معه، فَغَلَّبوا الجماعةَ على الواحد. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رُسُلِهم. ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمارِ القولِ، أو إجراءِ الإيحاءِ مَجْرَاهُ لأنهُ نوعٌ منه.

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضَهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾[1]. وقرىءَ لَيُهْلِكَنَّ وَلَيُسْكِنَنَّكم بالياءِ اعتباراً لأَوْحَىٰ كقولكَ: أقسمَ زيدٌ لَيَخْرُجَنَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى بهِ، وهو إهلاكُ الظالمينَ وإسكانُ المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي وهو الموقفُ الذي يقيم فيه العبادَ للحكومةِ يومَ القيامة، أو قيامي عليه وحِفْظي لأعمالِه، وقيل المقامُ مُقْحَمٌ. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعودَ للكفار.

(١٥) ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ سألوا مِنَ اللهِ الفتحَ على أعدائهم، أوِ القضاءَ بينَهم وبينَ أعدائهم، مِنَ الفتاحَةِ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]، وهو معطوفٌ على فأَوْحَىٰ. والضميرُ للأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلام، وقيلَ للكفرةِ، وقيلَ للفريقَيْنِ، فإنَّ كلًّهم سألوه أن يَنصُرَ المحِقَّ ويُهلكَ المبطِلَ. وقُرِىءَ بلفظِ الأمرِ عَطْفاً على لَيُهْلِكَنَّ[3]. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتحَ لهم فأفلحَ المؤمنونَ وخابَ كلُّ جبارٍ عاتٍ متكبِّرٍ على الله معانِدٍ للحق فلم يُفْلِحْ، ومعنى الخيبةِ إذا كان الاستفتاحُ مِنَ الكفرةِ أو مِنَ القبيلَيْنِ كانَ أوقعَ.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي من بينِ يديه[4] فإنه مُرْصَدٌ بها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة. وقيل من وراءِ حياتِه، وحقيقتُه ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ عطفٌ على محذوفٍ تقديرُه من ورائهِ جهنمُ يلقَىٰ فيها ما يُلْقَى ويُسقَى منْ ماءٍ. ﴿صَدِيدٍ﴾[5] عطفُ بيانٍ لماءٍ، وهو

---

(١) الأعراف: «١٣٧».

(٢) الأعراف: «٨٩».

(٣) أي قرىء بكسر التاء في «واستفتِحوا».

(٤) انظر «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥) لابن جرير الطبري.

(٥) أخرج الترمذي (٤/ ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٤/ ١٧٤ رقم ٤٨٩٤) وأحمد (٥/ ٢٦٥) وابن المبارك في الزهد ـ زوائد نعيم على رواية المروزي ـ (رقم ٣١٤) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٦ رقم ٧٤٦٠) والحاكم (٢/ ٣٥١، ٣٦٨ ـ ٣٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢) والبيهقي في «البعث والنشور» (رقم: ٥٤٩) والبغوي في «شرح السنة» (١٥/ ٢٤٣ رقم ٤٤٠٥) كلهم من طريق صفوان بن عمرو عن عبيدالله بن بسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: «ويُسقى من ماءٍ صديد يتجرعه» قال «يُقرَّبُ إليه فيتكرهُهُ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربَهُ قطع أمعائه حتى يخرج من دبره». =

ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النار[1].

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلَّفُ جَرْعَهُ. وهو صفةٌ لماءٍ، أو حالٌ من الضميرِ في يُسْقَىٰ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يقاربُ أنْ يسيغَه فكيفَ يُسِيْغُهُ بل يَغَصُّ به فيطولُ عذابُه. والسَّوْغُ جوازُ الشرابِ على الْحَلْقِ بسهولةٍ وقَبُولِ نَفْسٍ. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُه منَ الشدائدِ فتحيطُ به مِنْ جميعِ الجهاتِ. وقيل مِنْ كلِّ مكانٍ مِنْ جسدِهِ حتَّى مِنْ أصولِ شَعْرِهِ وإبهامِ رِجْلِه. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريحُ. ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يَسْتَقْبِلُ في كلِّ وَقْتٍ عذاباً أشدَّ مما هو عليه، وقيلَ هو الخلودُ في النار، وقيلَ حَبْسُ الأنفاسِ. وقيل الآية منقطعةٌ عن قصةِ الرسلِ نازلةٌ في أهلِ مكةَ طلبوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيِّهِم التي أرسلَ الله تعالى عليهم بدعوة رسولِهِ، فخيَّبَ رجاءَهم فلم يَسْقِهِم ووعدَ لهم أن يَسْقِيَهُم في جهنَّمَ بدلَ سُقْياهم صديدَ أهلِ النار.

(١٨) ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أيْ فيما يُتْلَىٰ عليكم صفتُهم التي هيَ مَثَلٌ في الغَرابةِ، أو قوله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأولِ جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لبيانِ مَثَلِهِم. وقيلَ أعمالُهم بَدَلٌ من المثلِ والخبرُ كرمادٍ. ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملتْه وأسرعتِ الذهابَ بهِ. وقرأ نافعٌ الرياحُ. ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصْفُ اشتدادُ الريحِ، وصفَ بهِ زمانَه للمبالغةِ كقولهم: نهارُه صائمٌ وليلُه قائمٌ. شبَّه صنائعَهم من الصدقةِ وصلةِ الرَّحِمِ وإغاثةِ الملهوفِ وعَتْقِ الرِّقابِ ونحوِ ذلكَ مِنْ مكارمِهم في حُبُوطِها وذهابِها هباءً منثوراً، لبنائِها على غيرِ أساسٍ مِنْ معرفةِ الله تعالى والتوجُّهِ بها إليه، أو أعمالُهم للأصنامِ برمادٍ طيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لخبوطِه فلا يرونَ له أثراً من . . . . . .

= يقول الله تعالى: «وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم» [محمد: ١٥] ويقول الله تعالى: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب» [الكهف: ٢٩].
قال الترمذي: «هذا حديث غريب. هكذا قال محمد بن اسماعيل عن عبيدالله بن بسرٍ ولا نعرف عبيدالله بن بسر إلا في هذا الحديث» هـ.
وقال الذهبي عن عبيدالله هذا «مجهول لا يُعرف» كما في الميزان (٣/ ٤).
وقال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص٣٠٤ رقم ٤٧٧/ ٢٧٢٢): حديث ضعيف.
تنبيه: وقع عند ابن المبارك «عبدالله بن بشر» وهو خطأ.
ووقع عند الطبراني والحاكم وأبي نعيم والبيهقي «عبدالله بن بسر».

(١) الصديد: هو ما حال بين الجلد واللحم من القيح (المفردات مادة صدد) وتخصيصه بالذكر من بين أنواع العذاب يدل على أنه من أشد أنواعه (س٥/ ٣٩).

الثَّواب[1]. وهوَ فَذْلَكَةُ التمثيلِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضلالهم مع حُسْبَانِهم أنَّهم محسنون. ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فإنه الغايةُ في البُعْدِ عن طريقِ الحقّ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به أمتُه. وقيلَ لكلِّ واحدٍ من الكفَرةِ على التلوينِ. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمةُ والوجْه الذي يحقُّ أن تخلقَ عليه. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ السمواتِ. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يُعْدِمْكم ويخلُقُ خلقاً آخرَ مكانكُم، رَتَّبَ ذلكَ على كونه خالقاً للسمواتِ والأرض استدلالاً به عليه، فإن مَنْ خلقَ أصولَهم وما يتوقفُ عليه تخليقُهم ثم كوَّنَهم بتبديلِ الصورِ وتغييرِ الطبائعِ قَدَرَ أن يبدلَهم بخلْقٍ آخرَ ولم يمتنعْ عليه ذلكَ كما قال:

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بِمُتَعَذِّر أو متعسِّر فإنه قادرٌ لذاته لا اختصاصَ له بمقدورٍ دونَ مقدور. ومَنْ كان هذا شأنُه كان حقيقاً بأن يُؤمنَ به ويُعْبَدَ رجاءَ لثوابِهِ وخَوْفاً من عقابه يومَ الجزاء.

(٢١) ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزونَ من قبورِهم يومَ القيامةِ لأَمْرِ الله تعالى ومحاسبتِه، أو لله على ظنِّهم فإنهم كانوا يُخْفُونَ ارتكابَ الفواحِشِ ويظنونَ أنها تَخْفَى على الله تعالى فإذا كان يومُ القيامة انكشفُوا لله تعالى عندَ أنفسِهم. وإنما ذُكِرَ بلفظ الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعِهِ. ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ الأتباعُ جَمْعُ ضعيفٍ يريدُ به ضعافَ الرأي. وإنما كُتِبَتْ بالواو على لفظِ مَنْ يفخِّم الألفَ قبلَ الهمزة فَيَمِيْلُهَا إلى الواو. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ لرؤسائِهم الذينَ استَتْبَعُوهم واستْغَوْوهُم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيبِ الرسلِ والإعراضِ عن نصائِحِهم. وهو جمعُ تابعٍ كغائبٍ وغَيْبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمبالغة، أو على إضمارِ مضافٍ. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ دافعونَ عنَّا. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِنْ الأُولَى للبيانِ واقعةٌ موقعَ الحالِ، والثانيةُ للتبعيضِ واقعةٌ موقعَ المفعولِ أيْ بعضَ الشيء الذي هو عذابُ الله، ويجوزُ أن تكونا للتبعيض أي بعضَ شيءٍ هوَ بعضُ عذابِ الله، والإعرابُ ما سبقَ، ويُحْتَمَلُ أن تكونَ الأُولَى

(١) والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ـ مع أن لها عقوبات هائلة ـ للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى (س٥/ ٤٠).

مفعولاً والثانيةُ مصدراً أي فهل أنتم مُغْنُونَ بعضَ العذابِ بعضَ الإغناءِ. ﴿قَالُوا﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأَتْبَاعِ واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ووفَّقنا له. ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنَا فأَضْلَلْنَاكم أي اخْتَرْنا لكم ما اخترناهُ لأَنفسِنا، أَوْ لو هدانا اللهُ طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرَّضْناكم له، لكنْ سدَّ دونَنا طريقُ الخلاص. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويانِ علينا الجزَعُ والصبرُ. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مَنْجَى ومهربٍ من العذاب، منَ الحَيْصِ وهو العدْلُ على جهةِ الفرارِ، وهو يحتملُ أن يكونَ مكاناً كالمبيتِ ومصدراً كالمغيبِ. ويجوز أن يكون قولُه سواءٌ علينا من كلام الفريقين ويؤيِّدُه ما رُوِيَ أنهم يقولون: تعالَوْا نجزعْ فيجزعون خمسمائةِ عامٍ فلا ينفعُهم، فيقولون تعالَوْا نصبرْ فيصبرون كذلك ثم يقولون سواءٌ علينا[1].

(٢٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أُحْكِمَ وفُرِغَ منه ودخلَ أهلُ الجنةِ الجنَّةَ وأهلُ النارِ النارَ خطيباً في الأشقياءِ منَ الثقلَيْنِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز عداً أنجزَه وهو الوعْدُ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وَعْدَ الباطلِ وهوَ ألاَّ بعثَ ولا حسابَ، وإن كانا فالأصنامُ تشفعُ لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعلَ تبيُّنَ خَلْفِ وعدِه كالإخلافِ منه. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تَسَلُّطٍ فأُلْجِئُكم إلى الكفرِ والمعاصي. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إيَّاكم إليها بتسويلي، وهو ليسَ من جنس السلطانِ ولكنَّه على طريقة قولهم: تحيةُ بينِهم ضَرْبٌ وجيعٌ[2]. ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطعاً. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أسرعتُم إجابتي. ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بوسوستي فإنَّ مَنْ صرَّح العداوةَ لا يلام بأمثالِ ذلك. ﴿وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾ حيثُ أطعتموني إذ دعوتُكم ولم تطيعوا ربَّكم لمَّا دعاكم. واحتجتِ المعتزلةُ بأمثالِ ذلكَ على استقلالِ العبدِ بأفعالِه وليسَ فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لِصِحَّتِها أنْ يكونَ لقدرةِ العبدِ مدخلٌ ما في فعله وهو الكسْبُ الذي يقولُه أصحابُنا. ﴿مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثِكم من العذاب. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بمغيثِيَّ[3]. وقرأ حمزةُ بكسرِ الياءِ على الأصل في التقاء الساكنينِ، وهوَ أصلٌ مرفوضٌ في مثله لما فيه من اجتماع ياءينِ وثلاثِ كسراتٍ مع أنَّ حركةَ ياءِ الإضافةِ الفتحُ، فإذا لم تُكْسَرْ وقبلَها ألِفٌ فبالحريِّ أنْ لا تُكْسَرَ وقبلَها ياءٌ، أو على لغةِ مَنْ يزيدُ ياءً على ياءِ الإضافةِ إجراءً لها مَجْرَى الهاءِ والكافِ في: ضربتُه وأعطيتُكَهُ وحذفَ الياءَ اكتفاءً بالكسرةِ[4]. ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ

---

(١) أخرجه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً. وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال أبي حاتم هو مجهول.
[مجمع الزوائد (٧/ ٤٣) والدر المنثور (٥/ ١٧) والجرح والتعديل (٢/ ٢٨٨)].

(٢) أي من باب تأكيد الشيء بضده مبالغة.

(٣) وتعرضُ الشيطان لعدم إصراخه لهم وإصراخهم له ـ مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال ـ للمبالغة في عدم إصراخه إياهم، وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير؟ (س٥/ ٤٣).

(٤) ما ذكره البيضاوي من التعليق على قراءة حمزة ـ وهي من المتواتر ـ غير مُسَلَّم به. وقد أنكر هذه القراءة جمع من أئمة اللغة كالفراء وأبي عبيد والأخفش والزجاج والزمخشري، واقتفى أثرهم بعض الخلف. وقد ناقش أبو حيان ما ذهبوا إليه وبين صحة هذه القراءة من حيث اللغة، إلا أن المشهور عند اللغويين ما قرأ به الجمهور من نصب الياء «بمُصْرِخِيَّ». قال أبو حيان: (وما ذهب إليه مَنْ ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه... فلا يجوز أن يقال فيها إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكنه قَلَّ استعمالها، ونص قطرب

﴿أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ ما إما مصدريةٌ ومِنْ متعلقةٌ بأشركتموني، أي كفرتُ اليومَ بإشراكِكم إياي مِنْ قبلِ هذا اليوم أي في الدنيا بمعنى تبرأتُ منه واستنكرتُه كقولهِ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[1]. أو موصولةٌ بمعنى مَنْ، نحوُ ما في قولهم: سبحانَ ما سخَّركُنَّ لنا، ومِنْ متعلقةٌ بكفرتُ أي كفرتُ بالذي أشركتمونيهِ وهو اللهُ تعالى بطاعتِكم إيايَ فيما دعوتُكم إليه من عبادةِ الأصنامِ وغيرِها منْ قبلِ إشراكِكم حين رددتُ أَمْرَهُ بالسجود لآدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ. وأشركَ منقولٌ من شَرَكْتُ زيداً للتعْديةِ إلى مفعولٍ ثانٍ. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمةُ كلامِه، أو ابتداءُ كلامٍ منَ الله تعالى. وفي حكايةِ أمثالِ ذلكَ لُطفٌ للسامعينَ وإيقاظٌ لهم حتى يحاسِبُوا أنفسَهم ويتدبَّرُوا عواقِبَهُم.

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذنِ الله تعالى وأَمْرِهِ والمدخِلون هم الملائكةُ. وقرىءَ وأَدْخِلْ على التكلُّم فيكون قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي تُحَيِّيهِمُ الملائكةُ فيها بالسلام بإذنِ ربِّهم.

(٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمدُه ووضعَه. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعلَ كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ، وهو تفسيرٌ لقوله ضرب اللهُ مثلاً، ويجوز أن تكونَ كلمةٌ بدلاً من مثلاً وكشجرةٍ صفتُها أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هيَ كشجرةٍ، وأن تكونَ أولَ مفعولَيْ ضربَ إجراءً له مَجْرَى جعلَ. وقد قُرِئَتْ بالرَّفْعِ على الابتداءِ. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضاربٌ بعُروقِه فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ويجوز أن يريدَ وفروعُها أي أفنانُها على الاكتفاءِ بلفظ الجنسِ لاكتسابِه الاستغراقَ من الإضافة. وقرىء ثابتٌ أصلُها، والأولُ على أصلِه ولذلك قيل إنه أقوى ولعلَّ الثاني أبلغُ.

(٢٥) ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها. ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقَّتَهُ اللهُ تعالى لإثمارِها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادةِ خالقِها وتكوينه. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضَرْبِها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنه تصويرٌ للمعاني وإدناءٌ لها من الحسِّ.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمثلِ شجرةٍ خبيثةٍ ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ استُؤْصِلَتْ وأُخِذَتْ جُثَّتُهَا بالكُلِّية. ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأن عروقَها قريبةٌ منه. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار. واخْتُلِفَ في الكلمةِ

= على أنها لغة في بني يربوع...) تفسير البحر المحيط (٥/ ٤٢٠).

(١) فاطر: «١٤».

والشجرةِ، فَفُسِّرَتِ الكلمةُ الطيبةُ بكلمةِ التوحيدِ ودعوةِ الإسلامِ والقرآن، والكلمةُ الخبيثةُ بالشركِ باللهِ تعالى والدعاءِ إلى الكفرِ وتكذيبِ الحقّ، ولعلّ المرادَ بهما ما يعمُّ ذلك فالكلمةُ الطيبة ما أَعْرَبَ عنْ حقٍّ أو دعا إلى صلاح، والكلمةُ الخبيثةُ ما كان على خلافِ ذلك. وفُسِّرَتِ الشجرةُ الطيبةُ بالنخلة ورُوِيَ ذلكَ مرفوعاً[1]، وبشجرةٍ في الجنة، والخبيثةُ بالحنظلةِ والكُشوثِ[2]، ولعلَّ المرادَ بهما أيضاً ما يعمُّ ذلك.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبتَ بالحُجَّةِ عندَهم وتَمَكَّنَ في قلوبهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يزالون إذا فُتِنُوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيسَ وشمعونَ والذين فَتَنَهُمْ أصحابُ الأُخدود. ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمُون إذا سُئِلُوا عن مُعْتَقَدِهِم في الموقف، ولا تدهشُهم أهوالُ يومِ القيامة. ورُوِيَ أنَّهُ ﷺ ذَكَرَ قبضَ روحِ المؤمنِ فقال: ثم تُعَادُ رُوحُه في جسدِهِ فيأتيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ في قَبْرِهِ ويقولانِ له: مَنْ ربُّك وما دينُك ومَنْ نبيُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللهُ ودينيَ الإسلامُ ونبيِّ محمدٌ ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أنْ صدقَ عبدي فذلك قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[3]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذينَ ظلموا أنفسَهم بالاقتصارِ على التقليد فلا يهتدون إلى الحقِّ ولا يَثْبُتُونَ في مواقفِ الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيتِ بعض وإضلالِ آخَرِينَ من غيرِ اعتراضٍ عليه.

(٢٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي شُكْرَ نعمتِه كفراً بأن وضعُوه مكانَه، أو بدَّلُوا نفسَ النعمة كفراً، فإنهم لما كَفَرُوها سُلِبَتْ مِنْهُم فصاروا تاركينَ لها محصِّلِينَ للكفر بَدَلَها كأهلِ[4] مكةَ، خلقَهمُ الله تعالى وأسكنَهُم حَرَمَهُ وجعلَهم قُوَّامَ بَيْتِهِ ووسَّع عليهم أبوابَ رزقِهِ وشرَّفهم بمحمدٍ ﷺ،

---

(١) أخرج البخاري (١/ ١٤٥ رقم ٦١) ومسلم (٤/ ٢١٦٤ ـ ٢١٦٥ رقم ٦٣/ ٢٨١١) والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٠٧ رقم ١٤٣) والنسائي في تفسيره (١/ ٦١٥ رقم ٢٨١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقُطُ ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي. قال عبدالله، ووقع في نفسي إنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هيَ يا رسول الله قال: هي النخلة».

(٢) الكشوث: هي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض.

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ١١٤ ـ ١١٥ رقم ٤٧٥٣) والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٩) صححه على شرطهما. وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٨٠) من رواية المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء.
وأصله في الصحيحين من رواية سعد بن عبيدة عن البراء مرفوعاً.
البخاري (٣/ ٢٣١ رقم ١٣٦٩) ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم ٧٣/ ٢٨٧١).

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٣٧٨ رقم ٤٧٠٠) عن ابن عباس «ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً» قال: هم كفار أهل مكة.

فكفروا ذلكَ فَقُحِطُوا سبعَ سنينَ وأُسِرُوا وقُتِلُوا يومَ بدرٍ وصارُوا أذلاَّءَ، فبقُوا مسلُوبِيْ النعمةِ وموصوفينَ بالكفْرِ، وعن عمرَ[1] وعليٍّ[2] رضيَ الله تعالى عنهما: همُ الأفْجَرانِ من قريشٍ بنو المغيرةِ وبنو أميَّةَ، فأما بنو المغيرةِ فكُفِيتُموهم يومَ بدر، وأما بنو أميةَ فَمُتِّعوا إلى حين. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ الذينَ شايعوهُم في الكُفْر. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دارَ الهلاكِ بِحَمْلِهِم على الكفر.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيانٍ لها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِنْها أو منَ القوم، أي داخلينَ فيها مُقَاسِيْنَ لحرِّها، أو مُفَسِّرٌ لفعلٍ مُقَدَّرٍ ناصبٍ لجهنَّمَ. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي وبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمروٍ ورويسٌ عن يعقوبَ بفتحِ الياء، وليسَ الضلالُ ولا الإضلال غرضُهم في اتخاذِ الأندادِ لكنْ لما كانَ نتيجتَه جُعِلَ كالغرضِ[3]. ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بشهواتِكم أو بعبادةِ الأوثانِ فإنَّها من قبيلِ الشهوات التي يُتَمَتَّعُ بها. وفي التهديد بصيغة الأمر إيذانٌ بأنَّ المهدَّدَ عليه كالمطلوب لإفضائِه إلى المهدِّدِ به، وأن الأمرَيْنِ كائنانِ لا محالةَ ولذلكَ علَّلَهُ بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وأنَّ المخاطَبَ لانْهماكِه فيهِ كالمأمور به من آمِرٍ مُطَاع.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصَّهم بالإضافةِ تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمونَ لحقوقِ العبودية، ومفعولُ قلْ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُه: أيْ قلْ لعبادي الذينَ آمنوا أقيمُوا الصلاةَ وأنفقوا. ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فيكونُ إيذاناً بأنَّهم لِفَرْطِ مطاوعَتِهم للرسولِ ﷺ بحيثُ لا ينفكُّ فعلُهم عن أمرِه، وأنه كالسَّبَبِ الموجِبِ لهُ، ويجوزُ أن يُقَدَّرَا بلامِ الأمرِ لِيَصِحَّ تعلُّقُ القولِ بهما وإنما حَسُنَ ذلكَ ههنا ولم يَحْسُنْ في قولِه:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢١) عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٢٢) عنه.

(٣) ظاهر النظم يقتضي الترتيب بأن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى، ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد، ثم إضلالهم لقوم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار. لكنه غير الترتيب إلى ما هو عليه النظم الكريم لتثنية التعجيب وتكريره وللإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضي منه العجب بذاته (س٥/ ٤٥).

مُحَمَّـدٌ تَفْـدِ نَفْسَـكَ كُـلُّ نَفْـسٍ إِذَا مَـا خِفْـتَ مِـنْ أَمْـرٍ تَبَـالاَ

لدلالةِ قُلْ عليه. وقيلَ هما جَوَابا أَقِيمُوا وأَنْفِقُوا مُقَامَيْنِ مُقَامَهُمَا، وهو ضعيفٌ لأنه لا بدَّ من مخالفةِ ما بينَ الشَّرطِ وجوابِهِ ولأن أمرَ المواجهةِ لا يُجَابُ بلفظِ الغيبةِ إذا كانَ الفاعلُ واحداً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مُنْتَصِبَانِ على المصدر أي إنفاقُ سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الحال أي ذوي سِرٍّ وعلانية، أو على الظرفِ أي وَقْتَيْ سرٍّ وعلانيةٍ، والأحبُّ إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ به. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتداركُ به تقصيرَه أو يفدي به نفسَه[1]. ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ ولا مُخَالَّةٌ فيشفعُ لكَ خليلٌ، أو مِنْ قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مُخَالَّةٍ وإنَّما ينتفعُ فيه بالإنفاق لِوَجْهِ اللهِ تعالى. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ بالفتحِ فيهما على النفي العام.

(٣٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشونَ به وهو يشملُ المطعومَ والملبوسَ، مفعولٌ لأَخْرَجَ ومِنَ الثمراتِ بيانٌ لهُ وحالٌ منه، ويُحْتَمَلُ عكسُ ذلكَ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بهِ المصدرُ فينتصِبُ بالعلَّة، أوِ المصدرُ لأَنَّ أَخْرَجَ في معنَى رَزَقَ[2]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بمشيته إلى حيثُ تَوَجَّهْتُم[3]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ فجعلَها مُعَدَّةً لانتفاعِكم وتصرُّفِكم. وقيلَ تسخيرُ هذهِ الأشياءِ تعليمُ كيفيةِ اتخاذِها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سَيْرِهِمَا وإنارتِهما وإصلاحِ ما يُصْلِحَانِه منَ المكونات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبانِ لِسُبَاتِكُم ومعاشِكم.

(٣٤) ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعضَ جميعِ ما سألتموهُ يعني مِنْ كلِّ شيءٍ سألتموهُ شيئاً، فإنَّ الموجودَ من كل صِنْفٍ بعضُ ما في قدرةِ الله تعالى، ولعلَّ المرادَ بما سألتموهُ ما كان حقيقاً بأنْ يُسْأَلَ لاحتياجِ الناسِ إليه سُئِلَ أولم يُسْأَلْ، وما يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولةً وموصوفةً ومصدريةً ويكونَ المصدرُ بمعنَى المفعول. وقُرِئَ مِنْ كلٌّ بالتنوين، أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ ما احتجْتُم إليه وسألتموه بلسانِ الحال، ويجوزُ أنْ تكونَ ما نافيةً في موقعِ الحال أي وآتاكم مِنْ كلِّ شيءٍ غيرَ سائِلِيْهِ. ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تَحْصُرُوهَا ولا تُطِيقُوا عدَّ أنواعِها فضلاً عن أَفْرادِها، فإنها غيرُ متناهية. وفيهِ دليلٌ على أنَّ المفردَ يفيدُ الاستغراقَ بالإضافة. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ يظلمُ النعمةَ بإغفالِ شُكْرِها، أو يظلمُ نفسه بأنْ يعرِّضَها للحِرْمانِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكفرانِ. وقيلَ ظلومٌ في الشدة يشكو ويَجْزعُ كَفَّارٌ في النِّعمةِ يجمعُ ويمنَعُ.

---

(١) وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، والتذكير بإتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه. وتخصيص التأكيد بانعدام البيع لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضِّنَّة به (س٥/ ٤٧).

(٢) وتقديم المجرور «من السماء» على المنصوب «ماءً» إما باعتبار كونه مبدأ لنزوله، أو لتشريفه كقولك: أعطاه السلطان من خزانته مالاً، أو للتشويق إلى المؤخَّر (س٥/ ٤٧).

(٣) وتخصيص الفُلْكِ بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءىٰ من ظاهر الحال (س٥/ ٤٨).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بلدةَ مكةَ. ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أَمْنٍ لمن فيها، والفرقُ بينه وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[1] أن المسؤول في الأول إزالةُ الخوف عنه وتصييرُه آمناً، وفي الثاني جَعْلُه من البلاد الآمنة. ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بَعِّدْني وإيَّاهم، ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ واجعلْنا منها في مجانبَ. وقُرِئَ وأَجْنِبْني وهما على لغة نَجْدٍ، وأما أهلُ الحجاز فيقولون جَنِّبْني شرَّه. وفيه دليلٌ على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحِفْظِه إياهم، وهو بظاهره لا يتناولُ أحفادَه وجميعَ ذرِّيته. وزعم ابنُ عيينه[2] أن أولادَ إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام لم يَعبدُوا الصنَم محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارةٌ يدورون بها ويسمُّونها الدوَّارَ ويقولون البيتُ حجرٌ فحيثُما نَصَبْنَا حَجَراً فهو بمنزلته.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلذلك سألتُ منك العصمةَ واستعذتُ بك من إضلالهنَّ. وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتبارِ السببيةِ كقوله تعالى ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على ديني. ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي بَعْضِي لا ينفكُّ في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَقْدِرُ أنْ تغفرَ له وترحمَه ابتداءً، أو بعدَ التوفيق للتوبة. وفيه دليلٌ على أن كلَّ ذَنْبٍ فلله أن يَغْفِرَهُ حتَّى الشركَ، إلاَّ أنَّ الوعيدَ فرَّقَ بينَه وبينَ غيرِه[4].

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي بعضَ ذريتي أو ذريةً من ذريتي، فحذفَ المفعولَ وهم إسماعيلُ ومَنْ وُلِدَ منهُ فإن إسْكَانَه متضمِّنٌ لإسْكَانِهم. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكةَ فإنها حَجَرِيَّةٌ لا تُنْبِتُ. ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرَّمتَ التعرضَ له والتهاونَ به، أولم يزلْ معظَّماً مُمتَنِعاً يهابُه

---

(١) البقرة: «١٢٦».

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي. ولد في الكوفة ليلة النصف من شعبان من سنة (١٠٧هـ) وأدرك الأئمة الأربعة واجتمع بهم وتتلمذ الشافعي وأحمد عليه، وقد رد على المعتزلة والمرجئة والقدرية، وحذَّر من البدع ونفَّرَ من الغلو، وكان عالماً ورعاً متواضعاً جريئاً. مات ابن عيينة في مكة المكرمة (سنة: ١٩٨هـ).
[الحلية لأبي نعيم (٧/ ٢٧٠ ـ ٣١٨) والتاريخ للخطيب (٩/ ١٧٤ ـ ١٨٤).
والعقد الثمين للفارسي (٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)].

(٣) الأنعام: «٧٠».

(٤) صدر الدعاء بالنداء «رب» إظهاراً لاعتنائه به ورغبة في استجابته.
وقوله «ومن عصاني» عبر عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة، وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (س٥/ ٥١).

الجبابرةُ، أو منعَ منه الطوفان فلم يستولِ عليه ولذلكَ سُمِّيَ عتيقاً أي أُعْتِقَ منه. ولو دَعا بهذا الدعاءِ أولَ ما قدمَ فلعلَّه قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. رُوِيَ أنَّ هاجرَ كانتْ لِسارةَ رضيَ اللهُ عنها فوهبتْها لإبراهيمَ عليه السلام فَوَلَدَتْ منه إسماعيلَ عليه السلام، فغارتْ عليهما فناشدتْه أنْ يخرجَهما من عندها، فأخرجَهما إلى أرضِ مكةَ، فأظهرَ الله عينَ زمزم، ثمَّ إنَّ جُرْهُمَ رأوا ثَمَّ طيوراً فقالوا لا طيرَ إلا على الماء، فقصدَوه فرَأَوْهُما وعندَهُما عينٌ فقالوا: أشركِينا في مائِكِ نُشْرِكْكِ في ألبانِنَا ففعلتْ. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ لامُ كيْ وهيَ متعلقةٌ بأسكنتُ، أي ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلقعِ من كلِّ مرتفَقٍ ومرتزَقٍ إلا لإقامةِ الصلاةِ عندَ بيتِك المحرَّمِ[1]. وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه للإشعارِ بأنها المقصودةُ بالذاتِ مِنْ إسكانِهم ثمةَ. والمقصودُ من الدعاء توفيقُهم لها. وقيل لامُ الأمرِ والمراد هو الدعاءُ لهم بإقامةِ الصلاة كأنه طلبَ منهمُ الإقامةَ وسألَ من الله تعالى أن يوفِّقَهم لها. ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أفئدةً من أفئدةِ الناس. ومِنْ للتبعيضِ ولذلكَ قيلَ لو قالَ أفئدةَ الناسِ لازدحمتْ عليهم فارسُ والرومُ ولحجَّتِ اليهودُ والنَّصارى، أو للابتداءِ كقولك: القلبُ مني سقيمٌ أي أفئدةُ ناسٍ. وقرأ هشامٌ أَفْئِيدَةً بخلفٍ عنهُ بياءٍ بعدَ الهمزة. وقُرِئَ آفِدَةً، وهوَ يُحتملُ أنْ يكونَ مقلوبَ أفئدةٍ كآدرٍ في أَدْؤُرٍ، وأنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ منْ أَفَدَتِ الرحلةُ إذا عجَّلت أي جماعةً يعجِّلُونَ نحوَهم، وأَفِدَةً بطرحِ الهمزةِ للتخفيف، وإن كان الوجهُ فيه إخراجُها بينَ بينَ ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ أفِدَ. ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرعُ إليهم شوقاً وَوِدَاداً. وقُرِئَ تُهْوَىٰ على البناءِ للمفعولِ منْ أَهْوَى إليه غيرُه، وتَهْوَىٰ من هَوَىٰ يهوي إذا أحبَّ، وتعديتُه بإلى لِتَضَمُّنِهِ معنى النزوعِ. ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ معَ سُكْنَاهُم وادياً لا نباتَ فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلكَ النعمةِ. فأجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعوتَه فجعلَه حَرَماً آمناً يُجْبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ حتَّى تُوْجَدَ فيهِ الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يومٍ واحدٍ.

(٣٨) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلمُ سرَّنا كما تعلم عَلَنَنَا. والمعنَى إنك أعلمُ بأحوالنا ومصالِحنا وأرحمُ بنا منا بأنفسِنا، فلا حاجةَ لنا إلى الطلبِ لكنَّا ندعُوك إظهاراً لعبوديتكَ وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندَك. وقيلَ ما نخفي مِنْ وَجْدِ الفُرْقَةِ وما نعلنُ منَ التضرُّع إليك والتوكلِ عليك، وتكريرُ النداءِ للمبالغة في التضرُّع واللجأ إلى الله تعالى[2]. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنهُ العالم بِعِلْمٍ ذاتيٍ يستوي نسبتُه إلى كلِّ معلومٍ، ومِنْ للاستغراق[3].

(٣٩) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي وهبَ لي وأنا كبيرٌ آيسٌ منَ الولدِ، قَيَّدَ الهبةَ بحالِ الكِبَرِ استعظَاماً للنعمةِ وإظهاراً لما فيها مِنْ آلائِهِ. ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾. رُوِيَ[4] أنهُ وُلِدَ لهُ إسماعيلُ لتسعٍ وتسعينَ سنةً، وإسحاقُ لمائةٍ واثنتي عَشْرَةَ سنةٍ. ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي لمجيبُه مِنْ قولِكَ سمعَ

---

(١) وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر الشعائر لفضلها (س٥/ ٥٢).

(٢) وتقديم «ما نخفي» على «ما نعلن» لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه أو لأن مرتبة السرّ والخفاء متقدمة على مرتبة العلن (س٥/ ٥٣).

(٣) والالتفات إلى الاسم الجليل «وما يخفىٰ...» لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم، وللإيذان بعمومه (س٥/ ٥٣).

(٤) ذكر ذلك ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٩٤) بدون سند.

الملكُ كلامي إذاً اعتدَّ به، وهو من أبنيةِ المبالغةِ العاملةِ عَمَلَ الفعلِ أُضِيفَ إلى مفعولهِ أو فاعلهِ على إسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ الله تعالى على المجازِ. وفيهِ إشعارٌ بأنه دعا ربَّه وسأل منه الولدَ فأجابه ووهبَ له سُؤْلَه حينَ ما وقعَ اليأسُ منه ليكونَ من أجلِّ النِّعَمِ وأَجْلاَها.

رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مُعْدِلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ عطفٌ على المنصوب في اجعلني[1]. والتبعيضُ لِعِلْمِهِ بإعلامِ الله أو استقراءِ عادَتِه في الأُمَمِ الماضية أنهُ يكون في ذرِّيتِهِ كفارٌ. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ واستجب دعائي أو وتقبلْ عبادتي.

(٤١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وقُرِئَ ولأبويَّ، وقدْ تقدَّم عُذْرُ استغفارِه لهما. وقيلَ أرادَ بهما آدمَ وحواءَ. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يثبتُ مستعارٌ منَ القيامِ على الرجلِ كقولهم: قامتِ الحرب على ساقٍ، أو يقومُ إليه أهلُه فحذفَ المضافَ أو أسندَ إليه قيامَهم مَجَازاً.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، والمرادُ به تثبيتُه على ما هوَ عليه من أنه تعالى مطَّلِع على أحوالهم وأفعالِهم لا يخْفَى عليه خافيةٌ، والوعيدُ بأنهُ معاقِبُهُم على قليله وكثيره لا محالةَ، أو لكلِّ مَنْ توهَّمَ غَفْلَتَهُ جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهالِه. وقيلَ إنه تسليةٌ للمظلوم وتهديدٌ للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخِّرُ عذابَهم[2] وعن أبي عمروٍ بالنونِ[3]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي تشخَصُ فيه أبصارُهم فلا تقرُّ في أماكِنها من هولِ ما تَرَى.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعينَ إلى الداعي، أو مقبلينَ بأبصارهم لا يَطْرفُون هيبةً وخوفاً، وأصلُ الكلمة هو الإقبالُ على الشيء. ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل تثبُتُ عيونُهم شاخصةً لا تَطْرُفُ، أو لا يرجع إليهم نظرُهم فينظروا إلى أنفسِهم. ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خَلاءٌ أي خاليةٌ عن الفَهْمِ لِفَرْطِ الحيرةِ والدهشةِ، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبُه هواءٌ أي لا رأيَ فيه ولا قوةَ، قال زهيرٌ:

---

(١) وتوحيد ضمير المتكلم بقوله «رب...» مع شمول دعوته لذريته ـ للإشعار بأنه المقتدىٰ به في ذلك وذريتُه أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد ـ لا كما في قوله «ربنا إني أسكنت من ذريتي» فإن إسكانه لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للادعاء الذي هو مخصوص بذريته (س٥/ ٥٤).

(٢) وإيقاع التأخير عليهم ـ مع أن المؤخر إنما هو عذابهم ـ لتهويل الخطب، وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما لا أنهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة، وللإيذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه. ولو قيل إنما يؤخر عذابهم لما فُهم ذلك (س٥/ ٥٥).

(٣) أي «نؤخرهم».

هواءٌ من الظلمانِ جُؤْجُؤُهُ

وقيلَ خاليةٌ عن الخير خاويةٌ عن الحقّ.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يومَ القيامة، أو يومَ الموتِ فإنه أولُ أيامِ عذابِهم، وهو مفعولٌ ثانٍ لأَنْذِر. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشركِ والتكذيبِ. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخِّرِ العذابَ عنَّا أو رُدَّنا إلى الدنيا وأمهِلْنا إلى حدٌّ منَ الزمانِ قريبٍ، أوْ أخِّرْ آجالَنا وأبْقِنَا مقدارَ ما نؤمنُ بكَ ونجيبُ دعوتَك. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمرِ[1] ونظيرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ على إرادةِ القولِ، وما لكم جوابُ القَسَمِ جاءَ بلفظِ الخطابِ على المطابقةِ دونَ الحكايةِ، والمعنى أقسمْتُم أنكم باقونَ في الدنيا لا تزالونَ بالموت. ولعلَّهم أقسَمُوا بَطَراً وغُرُوراً أو دلَّ عليهِ حالُهم حيثُ بَنَوْا شديداً وأمَّلُوا بعيداً. وقيلَ أقسمُوا أنَّهم لا ينتقلون إلى دارٍ أُخرى وأنَّهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[3].

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ والمعاصي كعادٍ وثمودَ، وأصلُ سَكَنَ أنْ يُعَدَّىٰ بفي كقرَّ وغنيَ وأقامَ، وقد يُسْتَعْمَلُ بمعنَى التبوُّءِ فيُجرى مجراهُ كقولكَ سكنتُ الدارَ[4]. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونَه في منازلهم من آثارِ ما نزلَ بهم وما تواترَ عندَكم من أخبارِهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ من أحوالِهم أي بيَّنَا لكم أنكم مِثْلُهم في الكفرِ واستحقاقِ العذاب، أو صفاتِ ما فعلُوا وفُعِلَ بهم التي هيَ في الغرابةِ كالأمثالِ المضروبة.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغَ فيه جُهْدُهم لإبطالِ الحقِّ وتقريرِ الباطلِ. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوبٌ عندَه فعلُهم فهو مُجَازِيهم عليه، أو عندَه ما يُمكِرُهُم به جزاءً لمكرِهم وإبطالاً له[5]. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العِظَمِ والشِّدةِ. ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مُسَوًّىٰ لإزالة الجبال. وقيل

---

(١) وصيغة الجمع «للرسل» لبيان اتفاق جميعهم على التوحيد وأن معصية أحدهم معصية للجميع، أو أن المحكي هو كلام ظالمي الأمم جميعاً (س٥/٥٦).

(٢) المنافقون: «١٠».

(٣) النحل: «٣٨».

(٤) وفي إيقاع الظلم على أنفسهم ـ بعد إطلاقه فيما سلف ـ إيذان بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه (س٥/٥٧).

(٥) وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم أو لكونه في صورة المكر في الإتيان من حيث لا يشعرون (س٥/٥٨).

إنْ نافيةٌ واللامُ مؤكِّدةٌ لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[١] على أن الجبالَ مَثَلٌ لأَمْرِ النبيِّ ﷺ ونحوِه. وقيلَ مخففةٌ من الثقيلةِ، والمعنى أنَّهم مكرُوا ليزيلُوا ما هو كالجبالِ الراسية ثباتاً وتمكُّناً من آياتِ اللهِ تعالى وشرائعِه. وقرأَ الكسائيُّ لَتَزُولُ بالفتحِ والرفعِ على أنَّها المخففةُ واللامُ هي الفاصلةُ، ومعناه تعظيمُ مَكْرِهِم. وقرىء بالفتحِ والنصبِ على لغةِ مَنْ يفتحُ لامَ كيْ[٢]. وقرىءَ وإنْ كادَ مكرُهُم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ﴾ مِثْلُ قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾[٤]. وأصلُه مُخْلِفٌ رسلَه وعدَه، فقدَّم المفعولَ الثاني إيذاناً بأنهُ لا يخلفُ الوعدَ أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٥] وإذا لم يخلفْ وعدَه أَحَداً فكيف يُخْلِفُ رُسُلَهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يُمَاكَرُ قادرٌ لا يُدَافَعُ. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائهِ مِنْ أعدائِه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ مِنْ يومَ يأتيهم، أو ظرفٌ للانتقام، أو مقدَّرٌ باذكُرْ أو لا يخلفُ وعْدَه. ولا يجوزُ أن ينتصبَ بمخلِفَ لأنَّ ما قبلَ أنْ لا يعملُ فيما بعدَه[٦]. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطفٌ على الأرض وتقديرُه والسمواتُ غيرُ السمواتِ. والتبديلُ يكونُ في الذاتِ كقولكَ: بدَّلْتُ الدراهِمَ دنانيرَ وعليهِ قولُه ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٧]، وفي الصفةِ كقولكَ بدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً إذا أَذَبْتَها وغيَّرتَ شَكْلَها، وعليه قولُه ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٨] والآية تحتملُهما، فعنْ عليٍّ[٩] رضيَ الله تعالى عنه: تُبَدَّلُ أرضاً مِنْ فِضَّةٍ وسمواتٍ منْ ذهبٍ. وعن ابنِ مسعودٍ[١٠] وأنسٍ رضيَ اللهُ تعالَى عنْهما: يُحْشَرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ لم يُخْطِىءْ عليها أحدٌ خطيئةً. وعنِ ابنِ عباسٍ[١١] رضيَ الله تعالى عنْهما: هيَ تلكَ الأرضُ وإنما تُغَيَّرُ صِفَاتُها. ويدلُّ عليه ما روىٰ أبو هريرة[١٢] رضيَ اللهُ تعالَى

---

(١) الأنفال: «٣٣».
(٢) أي «لَتَزُولَ».
(٣) غافر: «٥١».
(٤) المجادلة: «٢١».
(٥) آل عمران: «٩».
(٦) وتقديم تبديل الأرض على السموات لقربها منا، ولكون تبديلها أعظم أثر بالنسبة إلينا (س٥/ ٦٠).
(٧) النساء: «٥٦».
(٨) الفرقان: «٧٠».
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥١) عنه وزاد السيوطي نسبته في الدر (٥/ ٥٧) إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة».
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) عنه، وانظر الدر المنثور (٥/ ٥٦ ـ ٥٧) وقال البيهقي: والموقوف أصح.
(١١) لم أقف عليه.
(١٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ٢٥٢) عنه.

عنه أنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ: «تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ فَتُبْسَطُ وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكَاظِيِّ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1] اعلمْ أنه لا يلزمُ على الوجْهِ الأولِ أنْ يكونَ الحاصلُ بالتبديلِ أَرْضاً وسماءً على الحقيقة، ولا يبعدُ على الثاني أن يَجْعَلَ اللهُ الأرضَ جهنَّم والسمواتِ الجنةَ على ما أشعرَ بهِ قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[2] وقوله ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[3]. ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ من أجْداثِهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لمحاسَبتِه ومجازاتِه. وتوصيفُه بالوصْفَيْنِ للدلالةِ على أنَّ الأمرَ في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[4] فإنَّ الأمرَ إذا كانَ لواحدٍ غلابٌ لا يُغَالَبُ فلا مُسْتَغَاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُسْتَجَارَ.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بعضُهم معَ بعضٍ بحسبِ مشاركتِهم في العقائدِ والأعمالِ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[5]، أو قُرِنُوا مع الشياطين، أو معَ ما اكْتَسَبُوا من العقائدِ الزائغة والملَكَاتِ الباطلة، أو قَرِنتْ أيديهم وأرجلُهم إلى رِقَابِهم بالأغلال، وهو يحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لمؤاخذتِهم على ما اقترفَتْه أيديهم وأرجلُهم[6]. ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلِّق بمقرنِيْنَ أو حالٌ من ضميره. والصَّفَدُ القيدُ، وقيلَ الغلُّ، قالَ سلامةُ بنُ جندلٍ.

وزَيْـدُ الخَيْـلِ قَـدْ لاَقَـى صِفَـاداً يعـضُّ بِسَـاعِـدٍ وَبِعَظْـمِ سَـاقِ

وأصله الشدُّ.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمْصَانُهم. ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجاءَ قطرانُ لُغَتَيْنِ فيه[7]، وهو ما يُتَحَلَّبُ من الأَبْهَلِ[8] فيطبخُ فتَهنأُ بهِ الإبلُ الْجَرْبَى فَيَحْرِقُ الْجَرَبَ بِحِدَّتِه، وهو أسودُ مُنْتِنٌ تشتعلُ فيه النارُ بسرعةٍ، تُطْلَىٰ به جلودُ أهل النار حتى يكونَ طِلاؤُه لهم كالقُمُص ليجتمعَ عليهم لَذْعُ القطرانِ ووحشةُ لونِه ونَتَنُ ريحِه معَ إسراعِ النارِ في جلودِهم، على أن التفاوتَ بينَ القَطِرانين كالتفاوتِ بينَ النارَيْنِ، ويحتملُ أنْ يكونَ تمثيلاً لمَا يحيطُ بجوهرِ النفس من الْمَلَكَاتِ الرديئةِ والهيئاتِ الوحشيةِ فيجلبُ إليها أنواعاً من الغمومِ والآلامِ. وعنْ يعقوبَ قَطِرآنٍ. والقِطْرُ النُّحَاسُ أوِ الصُّفْرُ المذابُ، والآنيّ المتناهي حرَّهُ، والجملَةُ حالٌ ثانيةٌ أو حالٌ منَ الضميرِ في مقرنِيْنَ. ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وتتغشَّاها لأنَّهم لم يتوجَّهُوا بها إلى الحقِّ ولم يستعمِلُوا في تَدَبُّرِهِ مشاعِرَهم وحواسَّهم التي خُلِقَتْ فيها

---

(١) طه: «١٠٧».
(٢) المطففين: «١٨».
(٣) المطففين: «٨».
(٤) غافر: «١٦».
(٥) التكوير: «٧».
(٦) قوله «وترىٰ» عدل إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار (س٥/ ٦٠).
(٧) الأولى بفتح القاف وكسر الطاء «قَطِرَان» والثانية بكسر القاف وسكون الطاء «قِطْرَان» (المصباح المنير مادة قطر).
(٨) الأبهل نوع من الشجر.

لأجْلِهِ[١]، كما تَطَّلِعُ على أفئدتِهم لأنَّها فارغةٌ عن المعرفةِ مملوءةٌ بالجهالاتِ، ونظيرُه قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[٣].

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي يفعلُ بهم ذلكَ ليجزيَ كلَّ نفسٍ مُجْرِمَةٍ. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أَوْ كلَّ نَفْسٍ مِنْ مُجْرِمَةٍ أو مطيعةٍ، لأنه إذا بَيَّنَ أن المجرمِيْنَ يعاقَبُونَ لإجرامِهم عُلِمَ أن المطيعينَ يثابُونَ لطاعتِهم، ويتعيَّنُ ذلكَ إنْ عُلِّقَ اللامُ بِبَرَزُوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنه لا يَشْغَلُه حسابٌ عنْ حساب.

(٥٢) ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القرآن أو السورةِ أو ما فيه العِظَةُ والتذكيرُ أو ما وَصَفَهُ من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾[٤]. ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفايةٌ لهم في الموعظَةِ. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي لِيُنْصَحُوا ولينذَرُوا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ تقديرُه: ولينذَرُوا به أُنْزِلَ أو تُلِيَ. وقرىء بفتح الياءِ مَنْ نُذِرَ بهِ إذا علمَه واستعْدَلَهُ.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالنظرِ والتأملِ فيما فيه منَ الآياتِ الدالةِ عليه أو المنبهة على ما يَدُلُّ عليه[٥]. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيرتدعُوا عما يُرْدِيهِم ويتدرَّعُوا بما يُحْظِيهم. واعلمْ أنه سبحانَه وتعالى ذكرَ لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكُتُب، تكميلُ الرسلِ للناس، واستكمالُ القوةِ النظريةِ التي مُنْتَهَى كَمَالِهَا التوحيدُ، واستصلاحُ القوةِ العمليةِ الذي هوَ التدرعُ بلباسِ التقوى، جَعَلَنا اللهُ تعالى منَ الفائزينَ بهما. وعن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ إبراهيمَ أُعْطِيَ من الأجْرِ عَشْرُ حسناتٍ بِعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأصنام وعددِ مَنْ لم يَعْبُدْهَا»[٦].

☆ ☆ ☆

(١) وتخصيص الوجوه بذلك لكونها أعز الأعضاء الظاهرة ومجمع المشاعر والحواس (س٥/ ٦١).
(٢) الزمر: «٢٤».
(٣) القمر: «٤٨».
(٤) إبراهيم: «٤٢».
(٥) وتقديم الإنذار على العلم لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر في قوله «وليذكر أولوا الألباب» (س٥/ ٦٢).
(٦) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضات (١/ ٢٤٠) وقد رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٤٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

سورة الحجر مكية[1] وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آيات السورةِ، والكتابُ هو السورةُ، وكذا القرآنُ. وتنكيرُه للتفخيم أي آياتُ الجامعِ لكونهِ كتاباً كاملاً وقرآناً يُبيِّنُ الرُّشْدَ من الغيِّ بياناً غريباً.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حينَ عاينوا حالَ المسلمين عندَ نزولِ النصر، أو حلولَ الموت، أو يومَ القيامة. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ رُبَمَا بالتخفيف[2]، وقرىء رَبَمَا بالفتح والتخفيف. وفيه ثمانِ لغاتٍ: ضمُّ الراء وفتحُها مع التشديد والتخفيف وبتاءِ التأنيث ودونَها[3]، وما كافَّةٌ تكفُّه عن الجرِّ فيجوز دخولُه على الفعل، وحقُّه أن يدخلَ الماضي لكنْ لما كان المترقَّبُ في أخبار الله تعالى كالماضي في تحقُّقِه أُجْرِيَ مَجْرَاهُ، وقيل: ما نكرةٌ موصوفةٌ كقوله:

ربَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ لَهُ فُرْجَةً كَحَلِّ العِقَالِ

ومعنى التقليلِ فيه بالإيذانِ بأنهم لو كانوا يودُّون الإسلامَ مرةً فبالحريِّ أن يسارِعوا إليه، فكيف وهم يودُّونه كلَّ ساعة. وقيل تدهشُهم أهوالُ القيامة فإن حانتْ منهم إفاقةٌ في بعض الأوقات تمنَّوْا ذلكَ. والغَيْبَةُ في حكاية وَدَادَتِهِم كالغيبةِ في قولك: حلفَ بالله ليفعلنَّ.

---

(١) مكية بالإتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير انظر الدر المنثور (٥/ ٦١).

(٢) وقرأ الباقون من السبعة بتشديد الباء.

(٣) وذكر ابن هشام في مغني اللبيب (١/ ١٣٨) أن فيها ست عشرة لغة. وقوله (وبتاء التأنيث) أي بدل ما (ربت).

(٣) ﴿ ذَرْهُمْ﴾ دعْهم. ﴿ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بدنياهُم[١]. ﴿ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغِلُهم توقُّعهم لطولِ الأعمار واستقامةِ الأحوال عن الاستعدادِ للمعاد. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم إذا عاينوا جزاءَه. والغرضُ إقناطُ الرسولِ ﷺ مِن ارعوائِهم وإيذانُه بأنهم من أهل الخذلان، وإنْ نَصَحَهم بعد اشتغالٍ بما لا طائلَ تحتَه، وفيه إلزامٌ لِلْحُجَّةِ وتحذيرٌ عن إيثار التنعُّم وما يؤدي إليه طولُ الأمل.

(٤) ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ أجلٌ مقدَّرٌ كُتِبَ في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملةٌ واقعةٌ صفةً لقريةٍ، والأصل أن لا تدخلَها الواوُ كقوله: ﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[٢] ولكن لما شابهتْ صورتُها صورةَ الحال أُدْخِلتْ تأكيداً لِلُصُوقِها بالموصوف.

(٥) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه[٣]، وتذكيرُ ضميرِ أُمَّةٍ فيه لِلْحَمْلِ على المعنَى.

(٦) ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ نادَوْا به النبيَّ ﷺ على التهكُّم، ألا ترى إلى ما نادَوْه له وهو قولُهم: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظيرُ ذلك قولُ فرعونَ: إن رسولَكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون، والمعنى إنك لتقول قولَ المجانينِ حينَ تدَّعي أن الله تعالى نزَّل عليك الذكرَ، أي القرآن[٤].

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨

(٧) ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركِّبَ لو معَ ما كما رُكِّبَتْ مع لا لمعنيينِ: امتناعِ الشيء لوجودِ غيرِه، والتحضيضِ. ﴿ بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ليصدقوك ويعضِّدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتتِ الأممُ المكذِّبة قبلُ. ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواكَ.

(٨) ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ بالياء ونَصْبِ الملائكةِ على أن الضميرَ لله تعالى. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ

---

(١) وفي تقديم الأكل على التمتع إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب (س٥/ ٦٥).

(٢) الشعراء: «٢٠٨».

(٣) وصيغة الاستفعال «وما يستأخرون» للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له. وإيثار صيغة المضارع في الفعلين ـ بعدما ذكر نفي الإهلاك بصيغة الماضي ـ لأن المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى الأمة ـ بعد إسناد الإهلاك إلى القرية ـ لما أن السبق والاستئخار حال الأمة دون القرية.. وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم ـ مع كون المقام مقامَ المبالغة في بيان تحقق عذابهم ـ إما باعتبار تقدم السبق في الوجود، وإما باعتبار أن المراد بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك (س٥/ ٦٦).

(٤) وتقديم الجار والمجرور «عليه» على القائم مقام الفعل «الذكر» لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى، لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله تعالى «لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم».
فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى.
وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل (س٥/ ٦٧).

وحفصٌ بالنون، وأبو بكرٍ بالتاءِ والبناءِ للمفعولِ ورفعِ الملائكةِ. وقرىء تَنَزَّلُ بمعنى تَتَنَزَّلُ. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجْهِ الذي قدَّره واقتضَتْه حِكْمتُه، ولا حكمةَ في أن تأتِيَكم بِصُوَرٍ تشاهدونَها فإنه لا يزيدُكم إلا لَبْساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإنَّ منكم ومِنْ ذراريكم مَنْ سبقتْ كَلِمَتُنا له بالإيمان. وقيلَ الحقُّ الوحيُ أو العذابُ. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ إذاً جوابٌ لهم وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي ولو نَزَّلْنا الملائكةَ ما كانوا مُنْظَرِيْنَ.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارِهم واستهزائِهم، ولذلك أكَّده من وجوهٍ وقرَّرَهُ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي منَ التحريفِ والزيادةِ والنقصِ بأن جعلْنا معْجِزاً مبايناً لكلام البشر، بحيثُ لا يَخْفَىٰ تغييرُ نَظْمِهِ على أهلِ اللسان، أو نفيُ تَطَرُّقِ الخلل إليه في الدَّوام بضمانِ الحفظِ له كما نَفَى أن يُطْعَنَ فيه بأنه المنزِّلُ له. وقيلَ الضميرُ في لهُ للنبي ﷺ.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في فِرَقِهم، جمعُ شيعةٍ وهي الفِرقةُ المتَّفِقَةُ على طريقٍ ومذهبٍ مِنْ شَاعَه إذا تَبِعَه، وأصلُه الشِّياعُ وهو الحطبُ الصغارُ تُوقَدُ به الكبارُ، والمعنى نَبَّأْنا رجالاً فيهم وجعلْناهم رُسُلاً فيما بينَهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعلُ هؤلاءِ، وهو تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام. وما للحال لا يَدْخُل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه، وهذا على حكاية الحال الماضية.

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ نُدْخِلُه. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسَّلْكُ إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيطِ والرمحِ في المطعونِ، والضميرُ للاستهزاء. وفيهِ دليل على أن الله تعالى يوجِدُ الباطلَ في قلوبِهم. وقيلَ لِلذِّكر فإن الضميرَ الآخرَ في قوله:

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ له وهو خالٍ من هذا الضمير، والمعنى مثلُ ذلك السلكِ نسلكُ الذِّكْرَ في قلوبِ المجرمينَ مكذِّباً غيرَ مؤمِنٍ به، أو بيانٌ للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيفٌ إذ لا يلزمُ مِنْ تعاقبِ الضمائر توافقُها في المرجوعِ إليه ولا يتعيَّنُ أن تكونَ الجملةُ حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونُها مفسِّرةً للمعنى الأولِ بل يقوِّيه. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنةُ الله فيهم بأنْ خَذَلهم وسلكَ الكفرَ في قلوبهم، أو بإهلاكِ مَنْ كذَّبَ الرسلَ منهم فيكون وعيداً لأهل مكةَ.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحينَ. ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدونَ إليها ويَرَوْنَ عجائِبَها طولَ نهارِهم مستوضِحِينَ لما يَرَوْنَ، أو تصعدُ الملائكةُ وهم يشاهدونَهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من غُلُوِّهم في العنادِ وتشكيكِهم في الحقّ. ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ سُدَّتْ عن الأبصار بالسِّحرِ من السَّكَر، ويدل عليه قراءةُ ابن كثير بالتخفيف[1]، أو حُيِّرَتْ منَ السُّكْرِ ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ سَكِرَتْ. ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سَحَرَنَا محمدٌ بذلكَ كما قالوه عندَ ظهورِ غيرِهِ من الآيات. وفي كلمتي الحصرِ والإضرابِ دلالةٌ على البتّ بأنَّ ما يَرَوْنَهُ لا حقيقةَ له بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ من السِّحْر.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشرَ مختلفةَ الهيئاتِ والخواصِّ على ما دلَّ عليه الرَّصْدُ والتجربةُ معَ بساطةِ السماء. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالأشكال والهيئات البهيةِ. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ المعتبرينَ المستدِلِّينَ بها على قدرةِ مُبْدِعِها وتوحيدِ صانعِها.

وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يَقْدِرُ أن يصعَدَ إليها ويوسوسَ إلى أهلها ويتصرَّفَ في أمرها ويطَّلِعَ على أحوالها.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ بدلٌ مِنْ كلِّ شيطان. واستراقُ السمع اختلاسُه سِرّاً، شبَّه به خَطْفَتَهُم اليسيرةَ من قُطّانٍ[2] السمواتِ لما بينَهم من المناسبةِ في الجوهرِ أو بالاستدلالِ من أوضاعِ الكواكبِ وحركاتِها. وعن ابن عباس[3] رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يُحْجَبُونَ عن السموات، فلما وُلِدَ عيسى عليه الصلاة والسلام مُنِعُوا منْ ثلاثِ سمواتٍ، فلما وُلِدَ محمدٌ ﷺ مُنِعُوا مِنْ كلِّها بالشُّهُبِ. ولا يَقْدَحُ فيه تَكَوُّنُها قبلَ المولدِ لجواز أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ. وقيلَ الاستثناءُ مُنْقَطِعٌ أي ولكنْ مَنِ استرقَ السمعَ. ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ فتبِعَه ولَحِقَهُ. ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ للمُبْصِرين. والشِّهابُ شعلةُ نار ساطعةٌ، وقد يُطْلَقُ للكوكبِ والسِّنانِ لما فيهما من البريق.

(١٩) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطْناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابتَ. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدَّرٌ بمقدار مُعَيَّنٍ تقتضيه حِكْمَتُه، أو مستحسنٌ مناسبٌ من قولهم كلامٌ موزونٌ، أو ما يُوْزَنُ ويُقَدَّرُ، أو له وَزْنٌ في أبوابِ النعمةِ والمنفعةِ.

(٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعِم والملابس. وقرىء معائِشَ بالهمزةِ على التشبيهِ بشمائلَ. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على معايشَ أو على محلِّ لكم. ويريدُ به العِيالَ والخدمَ

---

(١) قراءة ابن كثير بتخفيف الكاف والبناء للمفعول «سُكِرَتْ».

(٢) قطّان جمعٌ مفردها قاطن وهو المقيم.

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٢) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٨٩) عنه.

والمماليكَ وسائرَ ما يظنون أنهم يَرزقونَهم ظناً كاذِباً، فإنَّ اللهَ يرزقُهم وإياهم. وفَذْلَكَةُ الآية: الاستدلالُ بِجَعْلِ الأرضِ ممدودةً بمقدارٍ وشكلٍ مُعَيَّنَيْنِ مختلفةَ الأجزاءِ في الوضعِ مُحْدِثةً فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً مع جوازِ أن لا تكونَ كذلكَ على كمال قدرتِهِ وتناهي حكمتِهِ والتفردِ في الألوهية والامتنانِ على العبادِ بما أنعم عليهم في ذلك لِيُوحِّدُوه ويعبدوه، ثم بَالغَ في ذلكَ وقالَ:

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرونَ على إيجادِه وتكوينِه أضعافَ ما وُجِدَ منه. فضربَ الخزائنَ مثلاً لاقتدارِه، أو شَبَّه مقدوراتِه بالأشياء المخزونة التي لا يُحَوِجُ إخراجُها إلى كَلَفَةٍ واجتهاد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ من بقاعِ القُدرةِ. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ حدَّه الحكمةُ وتعلّقتْ به المشيئةُ، فإنَّ تخصيصَ بعضِها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتمِلاً على بعضِ الصفات والحالات لا بدَّ له من مُخَصِّصٍ حكيم.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ حواملَ، شبَّه الريحَ التي جاءت بخير من إنشاءِ سَحَاب ماطر بالحاملِ كما شبَّه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملقِّحاتٍ للشجر ونظيرُه الطوائحُ بمعنى المطيحاتِ في قوله:

ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَوَائِحُ

وقُرِيءَ وأَرْسلْنا الريحَ على تأويل الجِنْس. ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سُقْيَاً. ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قادرينَ متمكِّنينَ من إخراجه، نَفَى عنهم ما أَثْبَتَهُ لنفسِه، أو حافظينَ في الغُدْرانِ والعيونِ والآبار. وذلك أيضاً يدل على المدبِّر الحكيم كما تدل حركةُ الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجْهٍ ينتفع به الناسُ، فإن طبيعةَ الماء تقتضي الغورَ فَوُقُوفُهُ دونَ حدٍّ لا بدَّ له من سببٍ مخصِّصٍ.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ﴾ بإيجاد الحياةِ في بعض الأجسام القابلةِ لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها، وقد أَوَّلَ الحياةَ بما يعمُّ الحيوانَ والنباتَ. وتكريرُ الضمير للدلالة على الحصْرِ. ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتَ الخلائقُ كلُّها.

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَنِ استقْدَمَ ولادةً وموتاً ومن استأْخَرَ، أو مَنْ خرج من أصلابِ الرجال ومن لم يخرجْ بعدُ، أو مَنْ تقدَّم في الإسلام والجهاد وسبقَ إلى الطاعة أو تأخَّر، لا يَخْفَى علينا شيءٌ من أحوالِكُم، وهو بيانٌ لكمال عِلْمِه بعدَ الاحتجاج على كمالِ قدرته فإن ما يدلُّ على قدرته دليلٌ على عِلْمِهِ. وقيلَ رَغَّبَ رسولُ الله ﷺ في الصفِّ الأولِ فازدحَمُوا عليهِ

فنزلتْ[١]. وقيلَ إن امرأةً حسناءَ كانتْ تصلِّي خلفَ رسولِ الله ﷺ فتقدَّم بعضُ القوم لئلاَّ ينظرَ إليها وتأخَّر بعضٌ لِيُبْصِرَها فنزلتْ[٢].

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالةَ للجزاء. وتوسيطُ الضميرِ للدلالة على أنهُ القادرُ والمتولي لحشرِهم لا غيرُ. وتصديرُ الجملةِ بإنّ لتحقيقِ الوعْدِ والتنبيهِ على أنَّ ما سبقَ من الدلالة على كمال قُدرته وعِلْمِهِ بتفاصيلِ الأشياء يدلُّ على صِحَّةِ الحكْمِ كما صرَّحَ به بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحكمةِ مُتْقِنٌ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وَسِعَ عِلْمُهُ كلَّ شيء[٣].

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس يُصَلْصِلُ أي يُصَوِّتُ إذا نُقِرَ. وقيلَ هو من صَلْصَلَ إذا أَنْتَنَ تضعيفُ صلَّ. ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ طين تغيَّر واسودَّ من طول مجاورةِ الماء، وهو صفةُ صلصالٍ

---

(١) لم أقف عليه.
وقد أخرج مسلم (١/ ٣٢٦ رقم ١٣٢/ ٤٤٠) عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «خيرُ صفوف الرِجَالِ أولُهَا، وشرُّهَا آخِرَهَا، وخيرُ صفوف النساء آخرها، وشرها أولُهَا».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٦ رقم ٣١٢٢) والنسائي (٢/ ١١٨ رقم ٨٧٠) وابن ماجه (١/ ٣٣٢ رقم ١٠٤٦) وابن حبان (ص٤٣٣ رقم ١٧٤٩ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٣) وأحمد في المسند (١/ ٣٠٥) والطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ٢٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٧٣) والطيالسي في المسند (ص٣٥٤ رقم ٢٧١٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٧١ رقم ١٢٧٩١).
كلهم بأسانيد عن نوح بن قيس الحُدائي، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ـ به قال الترمذي «وروَى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس. وهذا أشبه أن يكونَ أصحَّ من حديثِ نوح» هـ.
وقال المباركفوري في «التحفة» (٨/ ٥٥١) «لو صح حديث ابن عباس هذا لكان هو أولى الأقوال لكن الأشبه أنه قول أبي الجوزاء كما صرح به الترمذي» هـ.
وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٦٩) «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة...».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.
قلت: ذكر ابن جرير الطبري تأويلين آخرين في الآية (٨/ج١٤/ ٢٦).
(الأول): المستقدمين من الأمم والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.
(الثاني): ـ المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه.
وأسند كلا التأويلين عن جماعة من السلف، ثم قال رحمه الله تعالى:
«وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك، ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ، ومن حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام على ما بعده....
وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء، والمستأخرين فيه لذلك ثم يكون الله عز وجل عم بالمعنى المراد منه جميع الخلق...» هـ.

(٣) وتقديم صفة الحكمة على العلم للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء (س٥/ ٧٣).

أي كائنٍ من حمأ. ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصوَّرٍ من سَنَةِ الوجْه[١]. أو مصبوبٍ لِيَبْبَسَ ويُتَصَوَّرَ كالجواهرِ المذابة تُصَبُّ في القوالب، من السَّنِّ وهو الصبُّ كأنه أفرغَ الحمأَ فصَوَّرَ منها تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فَيَبِسَ حتى إذا نُقِرَ صَلْصَلَ، ثمَّ غيَّر ذلكَ طوراً بعد طَوْرٍ حتى سوَّاهُ ونفخَ فيه منْ روحه. أو منتنٍ من سننتُ الحجرَ على الحجرِ إذا حَكَكْتُه به، فإنَّ ما يسيل بينَهما يكونُ منتناً ويُسَمَّى السِّنينَ.

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنِّ، وقيلَ إبليسُ، ويجوزُ أن يُرَادَ به الجِنْسُ كما هو الظاهرُ من الإنسان، لأن تَشَعُّبَ الجِنسِ لما كانَ من شخص واحد خُلِقَ من مادةٍ واحدة كانَ الجنسُ بأسْرِهِ مخلوقاً منها. وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الإنسان. ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحرِّ الشديد النافذِ في المسامِّ، ولا يمتنعُ خَلْقُ الحياةِ في الأجرامِ البسيطة كما لا يمتنعُ خَلْقُهَا في الجواهر المجرَّدَةِ فَضْلاً عن الأجساد المؤلَّفة التي الغالبُ فيها الجزءُ الناريُّ، فإنها أَقْبَلُ لها من التي الغالبُ فيها الجزءُ الأرضيُّ. وقولُه: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبارِ الغالبِ كقوله: ﴿خلقكم من ترابٍ﴾. ومساقُ الآية كما هو للدلالة على كمال قدرةِ الله تعالى وبيانِ بَدْءِ خَلْقِ الثَّقَلَيْنِ، فهو للتنبيهِ على المقدمةِ الثانية التي يتوقفُ عليها إمكانُ الحشر، وهو قَبُولُ المواد للجَمْعِ والإحْيَاءِ.

(٢٨) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكرْ وقتَ قوله[٢] ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَلْتُ خِلْقَتَه وهيَّأْتُه لنفخِ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ حتى جَرَى آثارُه في تجاويفِ أعضائِهِ فَحَيِيَ. وأصلُ النفخ إجراءُ الرِّيح في تجويفِ جسمٍ آخرَ، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخارِ اللطيف المنبَعِثِ من القلب وتفيض عليه الحيوانيةُ فيسري حاملاً لها في تجاويفِ الشرايينِ إلى أعماق البدن جعل تعلُّقَه بالبدن نفخاً. وإضافةُ الروحِ إلى نفسِه لما مرَّ في النساء[٣]. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فاسْقُطُوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ أمْرٌ مِنْ وَقَعَ يَقَعُ.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أُكِّدَ بتأكيدينِ للمبالغة في التعميم ومنعِ التخصيص. وقيلَ أُكِّدَ بالكُلِّ للإحاطة وبأجمعينَ للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعينَ دُفْعَةً، وفيه نظَرٌ إذْ لو كان الأمرُ كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

---

(١) من سنة الوجه أي صورته.

(٢) وتذكير الوقت لأنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث.. والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء إلى كماله اللائق به شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام (س٥/ ٧٤).

(٣) عند قوله تعالى: «ألقاها إلى مريم وروح منه» [النساء: «١٧١»].

إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

(٣١) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ إنْ جُعِلَ مُنْقَطِعاً اتَّصَلَ بهِ قوله: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي ولكنَّ إبليسَ أَبَىٰ، وإنْ جُعِلَ متَّصِلاً كان استئنافاً على أنهُ جوابُ سائلٍ قال هلاَّ سجدَ.

(٣٢) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أيُّ غَرَضٍ لك في أنْ لا تكونَ. ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدمَ.

(٣٣) ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصحُّ مِنِّي وينافي حالي أن أسجدَ. ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسمانيٍّ كثيفٍ وأنا مَلَكٌ روحانيٌّ. ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهو أخسُّ العناصرِ، وخلقْتَني من نار وهي أشرفُها، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصلِ وقد سبق الجوابُ عنه في سورة الأعراف[1].

(٣٤) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنةِ أو زُمَرِ الملائكة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الخير والكرامة، فإنَّ مَنْ يُطْرَدُ يُرْجَمُ بالحجر أو شيطانٌ يُرْجَمُ بالشُّهُبِ، وهو وعيد يتضمَّن الجوابَ عن شُبْهَتِهِ.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هذا الطردَ والإبعادَ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه مُنْتَهى أمدِ اللعن، فإنه يناسب أيامَ التكليف، ومنه زمانُ الجزاء. وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] بمعنى آخرَ يَنسىٰ عندَه هذه. وقيل إنما حدَّ اللعنَ به لأنه أبعدُ غايةٍ يضربُها الناسُ، أو لأنه يعذبُ فيه بما ينسىٰ اللعنَ معه فيصيرُ كالزائل.

(٣٦) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ فأخِّرْني، والفاء متعلقةٌ بمحذوف دلَّ عليه: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[3] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجدَ فُسْحَةً في الإغواءِ أو نجاةً من الموت، إذ لا موتَ بعدَ وقتِ البعث فأجابه إلى الأولِ دونَ الثاني.

(٣٧) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المسمَّى فيه أجلُكَ عند الله، أو انقراضُ الناسِ كلُّهم وهو النفخةُ الأُولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام الثلاثة يومَ القيامة. واختلافُ العبارات لاختلافِ الاعتباراتِ، فعبَّر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرْفَتَهُ، وثانياً بيوم البعث إذ به يحصلُ العلم بانقطاعِ التكليف واليأسِ عن التضليل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعِه في الكلامَيْنِ. ولا يلزم مِنْ ذلكَ أن لا يموتَ

---

(١) الأعراف: «١٢».
(٢) الأعراف: «٤٤».
(٣) الحجر: «٣٤».

فلعلَّه يموت أولَ اليوم ويُبْعَثُ مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبةُ وإن لم تكنْ بواسطة لم تدلَّ على منصِبِ إبليسَ لأن خطابَ الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسَم، وما مصدريةٌ، وجوابُه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنىٰ: أقسمُ بإغوائِك إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لهم المعاصيَ في الدنيا التي هيَ دارُ الغرور كقوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾. وفي انعقادِ القَسَم بأفعالِ الله تعالى خلافٌ. وقيلَ للسببيةِ. والمعتزلةُ أوَّلُو الإغواءَ بالنسبة إلى الغَيِّ. أو التَّسَبُّبِ له بأمره إياه بالسجود لآدمَ عليه السلام، أو بالإضلال عن طريق الجنة، واعتذروا عن إمهالِ الله له ـ وهو سببٌ لزيادة غِيِّهِ وتسليطٌ له على إغواءِ بني آدمَ ـ بأنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ منه ومِمَّنْ تَبِعَه أنَّهم يموتون على الكفر ويصيرونَ إلى النار أُمْهِلَ أو لم يُمْهَلْ وأنَّ في إمهاله تعريضاً لِمَنْ خالفَه لاستحقاق مزيدِ الثواب. وضَعْفُ ذلكَ لا يَخْفَى على ذوي الألباب. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأَحْمِلَنَّهم أجمعينَ على الغوايةِ.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصْتَهم لطاعتك وطهَّرتَهُم مِنَ الشوائب فلا يعملُ فيهم كَيْدي. وقرأ ابن كثير وابنُ عامر وأبو عمرو بالكسر[1] في كلِّ القرآن أي الذين أخلصوا نفوسَهم لله تعالى.

(٤١) ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ حقٌّ عليَّ أن أراعِيَهُ. ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحرافَ عنه. والإشارةُ إلى ما تضمَّنه الاستثناءُ وهو تخليصُ المخلَصين من إغوائه، أوِ الإخلاصُ على معنى أنه طريقٌ عليَّ يؤدي إلى الوصول إليَّ مِنْ غيرِ اعوجاجٍ وضلال. وقرىء عَلِيٌّ مِنْ عُلُوِّ الشرف.

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ تصديقٌ لإبليسَ فيما استثْنَاه. وتغييرُ الوضع[2] لتعظيم المخلِصينَ، ولأن المقصودَ بيانُ عِصْمَتِهم وانقطاعُ مخالبِ الشيطان عنهم، أو تكذيبٌ له فيما أُوهِمَ أنَّ له سلطاناً على مَنْ ليسَ بمخلِصٍ من عباده فإنَّ مُنْتَهَى تزيينِهِ التحريضُ والتدليسُ كما قال ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[3] وعلى هذا يكون الاستثناءُ منقطِعاً، وعلى الأولِ يدفعُ قولَ مَنْ شَرَط أن يكون المستثْنَى أقلَّ من الباقي لإفضائهِ إلى تناقضِ الاستثناءَيْنِ.

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعدُ الغاوينَ أو المتَّبِعين. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ للضمير. أو حالٌ،

---

(١) أي بكسر اللام في «المخْلِصين».

(٢) قوله (وتغيير الوضع) أي تغيير وضع النظم، فإنه فيما سبق كان المستثنىٰ منه الناس والمستثنى المخلَصين، وههنا المستثنى منه العباد والمستثنى الغاوون. (حاشية الكازروني على البيضاوي ص١٧٠).

(٣) إبراهيم: «٢٢».

والعاملُ فيها الموعدُ إنْ جعلْتَهُ مصدراً على تقديرِ مضافٍ، ومعنَى الإضافةِ إن جَعَلْتَهُ اسمَ مكانٍ فإنهُ لا يعملُ.

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلونَ منها لكثرتهم، أو طبقاتٌ ينزلونَها بِحَسَبِ مراتِبِهم في المتابعة وهي: جهنمُ ثمَّ لَظَى ثم الْحُطَمَةُ ثم السعيرُ ثم سقرُ ثمَّ الجحيمُ ثمَّ الهاويةُ. ولعل تخصيصَ العَدَدِ لانحصار مجامِعِ المهلِكاتِ في الركونِ إلى المحسوساتِ ومتابعةِ القوة الشَّهويةِ والغَضَبِيَّة، أو لأن أهلَها سبعُ فِرَقٍ. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتْبَاع. ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحِّدينَ العصاة. والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركينَ والسابع للمنافقينَ. وقرأ أبو بكر جُزُؤٌ بالتثقيل. وقرىء جُزٌّ على حذفِ الهمزة وإلقاءِ حركَتِها على الزاي ثم الوقفِ عليه بالتشديد ثم إجراءِ الوصل مَجْرَى الوقفِ. ومنهم حالٌ منه، أو من المستَكِنِّ في الظَّرْفِ لا في مقسومٍ لأنَّ الصفةَ لا تعملُ فيما تقدَّم موصُوفَها.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

(٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِنْ اتّباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرها مُكَفَّرة. ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعيْن، أو لكلِّ عدّة منهما كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] ثم قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[2] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[3] الآية. وقرأ نافعٌ وحفص وأبو عمرو وهشامٌ «وعُيُون والعُيونُ» بضمِّ العين حيث وقعَ، والباقونَ بكسر العين.

(٤٦) ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القولِ. وقرىء بقطعِ الهمزةِ وكسرِ الخاء على أنه ماضٍ فلا يُكْسَرُ التنوينُ. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمينَ أو مُسَلَّماً عليكم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الآفة والزوالَ.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما أَلَفَ بينَ قلوبهم، أو في الجنة بتطييبِ نفوسِهم. ﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم[4]. أو من التحاسدِ على درجاتِ الجنة ومراتبِ القُرْبِ. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حالٌ من الضمير في جناتٍ أو فاعلِ اذْخُلُوها أو الضميرِ في آمنينَ أو الضميرِ المضافِ إليه، والعاملُ فيها معنىٰ الإضافة، وكذا قولُه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ويجوز أن يكونا صفتينِ لإخواناً، أو حالٌ من ضميره لأنه بمعنى مُتَصَافِيْنَ، وأن يكون متقابلينَ حالاً من المستقرِّ في على سُرُرٍ.

---

(١) الرحمن: «٤٦».
(٢) الرحمن: «٦٢».
(٣) محمد: «١١٥».
(٤) أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه وابن أبي شيبة والطبراني (فتح القدير ٣/ ١٣٦).

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بعد حال، أو حالٌ من الضمير في متقابلينَ. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمامَ النعمة بالخلود.

(٤٩) ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فَذْلَكَةُ ما سبق مِنَ الوعْدِ والوعيد وتقريرٌ له. وفي ذِكْرِ المغفرةِ دليل على أنه لم يُرِدْ بالمتقينَ مَنْ يتقي الذنوبَ بأسْرِها كبيرِها وصغيرِها، وفي توصيفِ ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيبِ ترجيحُ الوعدِ وتأكيدُه، وفي عطف.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عَلَى نبيءْ عبادي تحقيقٌ لهما بما يُعتَبَرون به[١].

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفونَ، وذلك لأنهم دخلوا بغير إذنٍ وبغير وقتٍ. ولأنَّهم امتنعُوا من الأكْلِ. والْوَجَلُ اضْطرابُ النَّفْسِ لِتَوَقُّعِ ما تكرهُ.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ وقُرِىءَ لا تَأْجلْ مَن أوْجَلَه، ولا تُوَاجِلْ من وَاجَلَه بمعنى أوجَلَه. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوَجَلِ، فإن المبشَّر لا يُخَافُ منه. وقرأ حمزة نَبْشُرك بفتح النون والتخفيفِ مِنَ البِشْر. ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾[٢]. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغَ.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجُّبٌ منْ أنْ يُولَدَ له مع مسِّ الكِبَرِ إيَّاهُ، أو إنكارٌ لأنْ يُبَشَّرَ به في مِثْلِ هذه الحالةِ، وكذا قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبةٍ تبشرون، أو فبأي شيءٍ تبشرون فإن البشارةَ بما لا يُتَصَوَّرُ وقوعُه عادةً بشارةٌ بغير شيء. وقرأ ابن كثير بكسرِ النون مشددةً في كلِّ القرآنِ على إدغام نونِ الجمعِ في نونِ الوقاية وكَسْرِها[٣]، وقرأ نافعٌ بكسرها مخففةً على حذفِ نون الجمع استثقالاً لاجتماعِ الْمَثْلَيْنِ ودلالةً بإبقاءِ نونِ الوقاية وكسرِها على الياء[٤].

(٥٥) ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بما يكونُ لا محالةَ، أو باليقينِ الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقةٍ هي حقٌّ

---

(١) لم يتعرض لعنوان رسالة الملائكة لأنهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيم عليه السلام، بل أُرسِلوا إلى قوم لوطٍ عليه السلام (س٥/ ٨١).

(٢) الصافات: «١١٢».

(٣) أي «تُبَشِّرُونِّ».

(٤) أي «تُبَشِّرونِ».

وهو قول الله تعالى وأمْرُهُ. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسينَ من ذلك فإنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلُقَ بشراً من غيرِ أَبَوَيْنِ فكيف من شيخٍ فَانٍ وعجوزٍ عاقرٍ. وكان استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِ العادةِ دونَ القدرةِ، ولذلك:

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ المخطئونَ طريقَ المعرفةِ فلا يعرفونَ سَعَةَ رحمة الله تعالى وكمالَ عِلْمِه وَقُدْرتِه كما قال تعالى: ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[١]. وقرأ أبو عمرو والكسائي يَقْنِطُ بالكسر، وقرىء بالضمِّ، وماضيهما قَنَطَ بالفتح.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنُكم الذي أُرْسِلْتُم لأجْلِه سوى البشارةِ، ولعلَّه علمَ أنَّ كمالَ المقصودِ ليسَ البشارةَ لأنَّهم كانوا عَدَداً والبشارةُ لا تحتاجُ إلى العَدَدِ، ولذلكَ اكتفَى بالواحدِ في بشارة زكريا ومريمَ عليهما السلام، أو لأنهم بشَّروهُ في تضاعيفِ الحال لإزالة الوَجَلِ ولو كانتْ تمامَ المقصودِ لابتدؤُوا بها[٢].

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قومَ لوط[٣].

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناءً مِنْ قوم كان منقطِعاً إذِ القومُ مقيَّدٌ بالإجرام، وإنْ كان استثناءً منَ الضمير في مجرمينَ كان مُتَّصِلاً، والقومُ والإرسالُ شامِلَيْنِ للمجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنينَ به وكأن المعنَى: إنا أرسلنا إلى قوم أجرمَ كلُّهم إلا آلَ لوطٍ منهم لنُهلِكَ المجرمين ونُنَجِّي آلَ لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يُعَذَّبُ به القومُ. وهو استئنافٌ إذا اتصلَ الاستثناءُ ومتصلٌ بآلِ لوطٍ جارٍ مَجْرَى خبرِ لكنْ إذا انقطعَ، وعلى هذا جازَ أن يكونَ قولُه:

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ استثناءٌ من آل لوط، أو من ضميرِهم، وعلى الأول لا يكونُ إلا مِنْ ضميرِهم لاختلافِ الْحَكَمَيْنِ اللهمَّ إلا أنْ يَجْعَلَ إنا لمنجوهم اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي لَمُنْجُوهُم مخففاً. ﴿قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ مع الكَفَرةِ لِتَهْلِكَ معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم قَدَرْنا هنا وفي النمل بالتخفيف[٤]. وإنما عُلِّقَ[٥] ـ والتعليقُ من خواصِّ أفعالِ القلوبِ ـ لِتَضَمُّنِهِ معنى العِلْم. ويجوزُ

---

(١) يوسف: «٨٧».

(٢) وتوسيط «قال» بين قوله السابق وقوله «فما خطبكم...» للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه. ثم إن خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة ـ بعدما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك ـ لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة، بل لهم شأن آخر (س٥/ ٨٢).

(٣) ووصفهم بالإجرام وبطريق التنكير لذمهم والاستهانة بهم (س٥/ ٨٢).

(٤) النمل: «٥٧» «قَدَّرْنَاها».

(٥) قوله (وإنما عُلِّق) أي فعل التقدير «قدَّرنا».
والتعليق هو: ترك العمل لفظاً دون معنًى لمانع... وارجع لبيان معنى التعليق في شرح ابن عقيل (١/ ٤٣٣) باب=

أن يكونَ قَدَّرْنَا أُجْرِيَ مَجْرى قُلنا لأن التقديرَ بمعنى القضاءِ قولٌ، وأصلُه جَعْلُ الشيءِ على مقدارِ غيرِهِ. وإسنادُهم إياه إلى أنفسِهم ـ وهو فعل الله سبحانه وتعالى ـ لِمَا لهم من القُرْبِ والاختصاصِ به.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

(٦٢) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ تنكِرُكم نفسي وتَنْفُرُ عنكم مخافةَ أن تطرقوني بشرٌ.

(٦٣) ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناكَ بما تنكرُنا لأجلهِ بل جئناكَ بما يَسُرُّكَ ويشفي لك من عدوِّك، وهو العذاب الذي توعَّدتَهم به فيمترونَ فيه[2].

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابِهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرْناكَ به.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهبْ بهم في الليل. وقرأ الحجازيانِ[3] بوصْلِ الهمزة من السُّرى وهما بمعنى، وقرىء فَسِرْ مِنَ السَّيْرِ. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال:

افتَحِي البَابَ وَانْظُري فِي النُّجُومِ ... كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكن على أثَرِهم تذودُهم وتسرعُ بهم وتَطَّلِعُ على حالهم[4]. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظرَ ما وراءه فيرى من الهولِ ما لا يطيقُه، أو فيصيبُه ما أصابَهم، أو ولا ينصرفْ أحدُكم ولا يتخلفِ امرؤٌ لغرض فيصيبه العذاب. وقيل نُهُوا عن الالتفاتِ ليوطِّنُوا نفوسَهم على المهاجرة. ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيثُ أمَرَكُمُ اللهُ بالمضي إليه وهو الشامُ أو مِصْرُ، فَعُدِّيَ وامضُوا إلى حيثُ وتؤمرون إلى ضميرِهِ المحذوفِ على الاتساع[5].

= ظن وأخواتها.

(١) قوله «المرسلون» حيث وضع المظهر موضع الضمير للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والنتجية (س٥/ ٨٣).

(٢) ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهما (س٥/ ٨٤).

(٣) الحجازيان هما: نافع وابن كثير.

(٤) ولعل إيثار الاتّباع على السَّوْق ـ مع أنه المقصود بالأمر ـ للمبالغة في ذلك، إذ السوْق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر (س٥/ ٨٤).

(٥) وإيثار المضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين (س٥/ ٨٤).

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي وأوحَيْنا إليه مَقْضِيّاً، ولذلك عُدِّيَ بإلى. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مبهم يُفسره: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّه النَّصْبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ للآمِرِ وتعظيمٌ له. وقرىء بالكسر على الاستئنافِ، والمعنى: أنهم يُسْتَأْصَلُونَ عن آخرهم حتى لا يبقَى منهم أحد[1]. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصُّبْحِ، وهو حالٌ من هؤلاء أو منَ الضمير في مقطوع، وجمْعُهُ للحملِ على المعنَى فإنَّ دابِرَ هؤلاء في معنًى مدبري هؤلاءِ.

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سَدوم. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضيافِ لوطٍ طمعاً فيهم.

(٦٨) ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحةِ ضيفي فإنَّ مَنْ أُسِيءَ إلى ضيفه فقدْ أُسِيءَ إليه.

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ركوبِ الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تُذِلُّوني بِسَبَبِهم من الخِزْيِ وهو الهوانُ، أو لا تُخْجِلُوني فيهم من الخَزَايةِ وهو الحياءُ.

(٧٠) ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أن تجيرَ منهم أحداً أو تمنعَ بيننا وبينَهم فإنَّهم كانوا يتعرضونَ لكلِّ أحد وكان لوطٌ يمنعهم عنه بِقَدَرِ وُسْعِهِ، أو عن ضيافةِ الناس وإنزالِهم.

(٧١) ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ يعني نساءَ القومِ فإن نبيَّ كلِّ أمة بمنزلةِ أبيهم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَتْ في سورة هود[2]. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ قضاءَ الوَطَرِ، أو ما أقولُ لكم.

(٧٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياة المخاطَبِ، والمخاطَبُ في هذا القسم هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقيلَ لوطٌ عليه السلام قالتِ الملائكةُ له ذلك، والتقديرُ لعمركَ قسمي، وهو لغةٌ في العُمْرِ يختصُّ به القسَمُ لإيثار الأخفِّ فيه لأنه كثيرُ الدَّوْرِ على ألسنَتِهم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ لفي غِوايتِهم أو شدةِ غِلْمَتِهم التي أزالتْ عقولَهم وتمييزِهم بين خطئِهم والصوابِ الذي يُشَارُ بهِ إليهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرونَ فكيفَ يسمعون نُصْحَكَ. وقيلَ الضميرُ لقريشٍ، والجملة اعتراضٌ.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحةً هائلةً مهلكةً. وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقتَ شروقِ الشمس.

---

(١) وإيثار اسم الإشارة «هؤلاء» على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحكم.
وإيراد صيغة المفعول «مقطوع» بدل صيغة المضارع لكونها أدخل في الدلالة على الوقوع.
وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وتأخيره عن الجار والمجرور، وإبهامِه أولاً ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفىٰ (س٥/ ٨٥).

(٢) هود: «٧٨».

فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ
مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

(٧٤) ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ عاليَ المدينةِ أو عالي قُرَاهُم. ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت مُنْقَلِبَةً بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجِّر أو طين عليه كتابٌ من السَّجْل. وقد تقدَّم مزيدُ بيانٍ لهذه القصةِ في سورة هود.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرينَ المتفرِّسينَ الذينَ يَتثبَّتُونَ في نظرهم حتى يعرفُوا حقيقةَ الشيء بِسِمَتِهِ.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن المدينةَ أو القُرى. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابتٍ يسلُكه الناسُ ويرونَ آثارَها.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللهِ ورُسُلِهِ.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ همْ قومُ شعيبٍ كانوا يسكنونَ الغِيْضَةَ فبعثه الله إليهم فكذَّبوه فأُهْلِكُوا بالظُّلَّةِ. والأيكةُ الشجرةُ المتكاثفةُ.

(٧٩) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاكِ. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدومَ والأيكةَ. وقيل الأيكةُ ومَدْينُ فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذِكْرُ إحداهُما منبِّهاً على الأُخرى. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبِطَرِيقٍ واضحٍ. والإمام اسمُ ما يُؤْتَمُّ به فَسُمِّيَ به الطريقُ ومَطْمَرُ البناءِ واللوحُ لأنَّها مما يُؤْتَمُّ به.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني ثمودَ كذَّبوا صالحاً، ومَنْ كذَّب واحداً من الرُّسُلِ فكأنما كذَّبَ الجميعَ. ويجوز أن يكونَ المراد بالمرسلينَ صالحاً ومَنْ معهُ من المؤمنينَ، والحِجْرُ وادٍ بينَ المدينةِ والشأمِ يسكنونَه.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آياتِ الكتاب الْمُنْزَلِ على نبيِّهم، أو معجزاتِه كالناقةِ وسَقْيِهَا وشُرْبِها ودَرِّها، أو ما نُصِبَ لهم من الأدلة.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من الانهدامِ ونَقْبِ اللصوصِ وتخريبِ الأعداءِ لوثاقَتِها، أو مِنَ العذابِ لِفَرْطِ غَفْلَتِهم أو حُسْبَانِهم أنَّ الجبالَ تحميهم منه.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من بناءِ البيوتِ الوثيقةِ واستكثارِ الأموالِ والعُدَدِ.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خَلْقاً مُلْتَبِساً بالحقِّ لا يلائِمُ استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشرورِ، فلذلك اقتضتِ الحكمةُ إهلاكَ أمثالِ هؤلاءِ وإزاحةَ فسادهم منَ الأرض. ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فينتقمُ اللهُ لك فيها ممن كذَّبكَ. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ ولا تعجلْ بانتقامٍ منهم وعامِلْهُم معاملةَ الصَّفُوحِ الحليم. وقيل هو منسوخٌ بآية السيفِ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلَقَهم وبيدِهِ أَمْرُكَ وأَمْرُهُم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالِكِ وحالِهم فهو حَقيقٌ بأن تَكِلَ ذلكَ إليه ليحكمَ بينكم، أو هوَ الذي خلقكم وعَلِمَ الأصْلَحَ لكم، وقد علم أن الصفحَ اليومَ أصلحُ، وفي مصحفِ عثمانَ وأُبَيٍّ رضي الله عنهما هو الخالقُ، وهو يَصْلُحُ للقليل والكثير والخلاَّقُ يختص بالكثير.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ سبعَ آياتٍ وهي الفاتحة. وقيل سبعَ سُوَرٍ وهي الطِّوالُ وسابعتُها الأنفالُ والتوبةُ فإنهما في حُكْمِ سورةٍ ولذلك لم يُفْصَلْ بينَهما بالتسمية. وقيلَ التوبةُ وقيل يونسُ أو الحواميم السَّبْع. وقيلَ سَبْعُ صحائفَ وهيَ الأسباعُ[1]. ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسَّبْعِ، والمثاني من التثنيةِ أو الثَّنَاءِ فإنَّ كلَّ ذلكَ مثْنًى تُكرَّرُ قراءَتُه، أو ألفاظُه، أو قَصَصُهُ ومواعظُه، أو مَثْنِيٌّ عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مُثْنٍ على الله بما هو أهلُه من صفاته العُظْمى وأسمائِه الْحُسْنَى. ويجوزُ أنْ يُرادُ بالمثاني القرآنُ أو كتبُ الله كلُّها فتكونُ مِنْ لِلتَّبْعِيضِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إنْ أُرِيْدَ بالسَّبْعِ الآياتِ أو السُّورِ فَمِنْ عطفِ الكُلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ. وإن أُرِيدَ بهِ الأسباعُ فَمِنْ عَطْفِ أحدِ الوصْفَيْنِ على الآخر.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تَطْمَحْ بِبَصَرِكَ طُمُوحَ راغبٍ. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنهُ مُسْتَحْقَرٌ بالإضافةِ إلى ما أُوتِيَتْهُ فإنه كمالٌ مطلوبٌ بالذات مُفْضٍ إلى دوام اللذاتِ. وفي حديثِ أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه «مَنْ أُوتِيَ القرآنَ فرأى أنَّ أحداً أُوتِيَ مِنَ الدنيا أفضلَ مما أُوتِيَ فقدْ صَغَّرَ عظيماً وعظَّمَ صغيراً»[2]. وروي أنهُ عليه الصلاة والسلام وَافَى بِأَذْرِعَاتِ سَبْعَ قوافلَ ليهودِ بني قُرَيْظَةَ والنَّضِيْرِ فيها أنواعُ الْبَزِّ والطِّيبِ والجواهر وسائر الأمتعةِ، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا لَتَقَوَّيْنَا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: «لقد أُعْطِيتُم سَبْعَ آياتٍ هيَ خَيْرٌ مِنْ هذه القوافلِ السَّبْعِ»[3]. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

---

(١) أي سبعة أسباع القرآن. وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٦) والطبري «جامع البيان» للطبري (٨/ج١٤/ ٥٤ ـ ٥٥) والدر المنثور (٥/ ٩٥ ـ ٩٦) ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٣ ـ ٩٤ رقم ٢٤٣): «لم أجده عن أبي بكر. وأخرجه ابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٨٧) ـ في ترجمة حمزة النصيبي، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظنَّ أنَّ أحداً أغنى منه، فقد حقر عظيماً وعظم صغيراً» وحمزة اتهموه بالوضع.
وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبدالله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن، فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله وصغر ما عظم الله ـ الحديث» ١ هـ.
● قال ابن عدي عن حمزة هذا «وكل ما يرويه أو عامته مناكير موضوعة والبلاء منه ليس ممن يروي عنه، ولا ممن يروي هو عنهم» هـ.
والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٧) عن الحسين بن الفضل، قال: إن سبع قوافل وافت من بصري =

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضعْ لهم وارفُقْ بهم.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أُنْذِرُكم ببيانٍ وبرهانٍ أنَّ عذابَ اللهِ نازلٌ بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

(٩٠) ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثلَ العذابِ الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعولِ النذيرِ أُقِيمَ مُقَامَه، والمقتسِمُونَ همُ الاثنا عشرَ الذينَ اقتسموا مداخلَ مكةَ أيامَ الموسِمِ لِيُنَفِّرُوا الناسَ عن الإيمان بالرسولِ ﷺ. فأهلكهم الله تعالى يومَ بَدْرٍ، أو الرهْطُ الذينَ اقتسموا أي تقاسَمُوا على أن يُبَيِّتُوا صالحاً عليه الصلاة والسلام. وقيل هو صفةُ مَصْدَرٍ محذوفٍ يدلُّ عليه: «ولقد آتيناكَ» فإنهُ بمعنَى أنزلْنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآنَ عِضِينَ حيثُ قالوا عِناداً: بعضُه حقٌّ موافِقٌ للتوراةِ والإنجيلِ وبعضُه باطلٌ مخالِفٌ لهما، أو قَسَّمُوهُ إلى شِعْرٍ وسِحْرٍ وكَهَانَةٍ وأساطيرِ الأولين، أو أهلُ الكتابِ آمنوا ببعضِ كُتُبِهم وكفَروا ببعضٍ على أنَّ القرآنَ ما يقرأ مِنْ كتبهم، فيكون ذلك تسليةً لرسولِ الله ﷺ، وقولُه: «لا تَمُدَنَّ عينيك» إلخ اعتراضاً مُمِدّاً لها.

(٩١) ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أجزاءً جَمْعُ عِضَةٍ وأصلها عِضْوَةٍ من عَضَى الشاةَ إذا جعلَها أعضاءَ، وقيلَ فَعْلَةٌ مِنْ عَضَهْتَهُ إذا بَهَتَّهُ وفي الحديثِ: «لعنَ رسولُ الله ﷺ العاضِهةَ والمستعْضِهَةَ»[1]. وقيلَ أسْحَاراً، وعن عِكرمةَ العِضَةُ السِّحْرُ. وإنما جُمِعَ جَمْعَ السَّلامةِ جَبْراً لما حُذِفَ منه. والموصولُ بِصِلَتِهِ صِفةٌ للمقْتَسِمِينَ، أو مبتدأٌ خبرُه:

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ منَ التقسيمِ أو النَّسَبِ إلى السِّحرِ فنجازيهِم عليه. وقيل هو عامٌّ في كلِّ ما فعلُوا من الكفر والمعاصي.

(٩٤) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجْهَرْ به مِنْ صَدَعَ بالْحُجَّةِ إذا تكلَّم بها جَهَاراً، أو فافْرُقْ به بينَ الحقِّ والباطلِ، وأصلُه الإبانةُ والتمييزُ. وما مصدريةٌ أو موصولةٌ، والراجِعُ محذوفٌ أي بما تُؤْمَرُ بهِ مِنَ الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفتْ إلى ما يقولون.

= وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد... فذكره.
وقال الواحدي: ويدل على صحة هذا قوله على أثرها «لا تمدنَّ عينيك» الآية.
● أذرعات: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وكسر الراء المهملة: موضع بالشام (الصحاح. مادة: ذرع).
● البز: الثياب والأمتعة.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة سلمة بن وهرام وأخرجه أبو يعلى. وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، قال ابن حجر وهما ضعيفان، وله شاهد عند عبد الرزاق من روايته عن ابن جريج عن عطاء (الكافي الشافِ ص٩٤ رقم ٢٤٤)
والعاضهة والمستعضهة هما: الساحرة والمستسحرة.

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بِقَمْعِهم وإهْلاكِهم. قيلَ كانوا خمسةً من أشراف قريش: الوليدُ بنُ المغيرة، والعاصُ بن وائلٍ، وعديُّ بنُ قيس، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والأسودُ بنُ المطَّلِبِ، يبالغونَ في إيذاءِ النبيِّ ﷺ والاستهزاءِ به فقال جبريلُ عليه السلام لرسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُكْفِيَكَهُمْ. فَأَوْمَأَ إلى ساقِ الوليدِ فمرَّ بِنِبَالٍ فَتَعَلَّق بثوبِه سَهْمٌ فلم ينعطِفْ تَعَظُّماً لأخْذِهِ فأصاب عِرْقاً في عَقِبِهِ فقطعَهُ فماتَ، وأومأ إلى أخمصِ العاصِ فدخلتْ فيه شوكةٌ فانتفختْ رِجْلُه حتَّى صارتْ كالرَّحَى وماتَ، وأشارَ إلى أَنْفِ عديِّ بنِ قيس فامتخطَ قيحاً فماتَ، وإلى الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ وهو قاعدٌ في أصلِ شجرةٍ فجعلَ ينطحُ برأسِه الشجرةَ ويضربُ وجْهَهُ بالشوكِ حتى مات، وإلى عَيْنَيِ الأسودِ بنِ المطَّلبِ فَعَمِيَ[1].

(٩٦) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ أمْرِهم في الدَّارَيْنِ.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشِّركِ والطعنِ في القرآنِ والاستهزاءِ بك.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافْزَعْ إلى اللهِ تعالَى فيما نَابَكَ بالتسبيحِ والتحميدِ يَكْفِكَ ويكشفِ الغمَّ عنك، أو فَنَزِّهْهُ عمَّا يقولون حامِداً له على أنْ هداكَ للحقِّ. ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ من المصلِّينَ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حَزَبَه أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصلاة[2].

(٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي الموتُ فإنهُ متيَقَّنٌ لَحَاقُهُ كلَّ حيٍّ مخلوقٍ، والمعنى فاعْبُدْه ما دُمْتَ حيّاً ولا تُخِلَّ بالعبادةِ لحظةً[3]. عنْ رسولِ الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحِجْرِ كان له من الأجر عَشْرُ حسنات بِعَدَدِ المهاجرينَ والأنصارِ والمستهزئينَ بمحمدٍ ﷺ»[4] واللهُ أعلم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣١٦ ـ ٣١٨) من حديث ابن عباس بإسناد حسن.
وأخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/ ٤٦ ـ ٤٧) وقال الهيثمي: «فيه محمد بن عبدالحكيم النيسابوري، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
انظر «الكافي الشافِ» (ص٩٤ رقم ٢٤٥).

(٢) أخرجه ابن جرير بهذا اللفظ (١/ ٢٦٠) وأخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨) وأبو داود (١٣١٩) بلفظ: كان إذا حزبه أمر صلى، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٥٣).
والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (٥/ ٤١٥) ثم أحاله إلى تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥) وقال هناك: إسناده ضعيف.
لكن الحديث فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، وهو مقبول ولكن لا متابع له، فالحديث ضعيف كما في تخريج الفتح السماوي (ص١٧٠).

(٣) وإسناد الإتيان إلى الموت للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه (س٥/ ٩٣).

(٤) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النحلِ مكيةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخرِها وهيَ مائةٌ وثمانٍ وعشرونَ آية[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلونَ ما أَوْعَدَهُمُ الرسولُ ﷺ من قيامِ الساعة، أو إهلاكِ اللهِ تعالى إيَّاهم كما فعلَ يومَ بدرٍ استهزاءً وتكذيباً، ويقولون إن صحَّ ما تقولُه فالأصنامُ تشفع لنا وتخلِّصُنا منه فنزلتْ. والمعنى أن الأمرَ الموعودَ به بمنزلة الآتي المتحقِّقِ مِنْ حيثُ إنه واجبُ الوقوعِ، فلا تستعجلوا وقوعَه فإنه لا خيرَ لكم فيه ولا خلاصَ لكم منه[2]. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرَّأَ وجَلَّ عن أن يكونَ له شريكٌ فيدفعَ ما أرادَ بهم[3]. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتاء على وِفْقِ قوله: ﴿فلا تستعجلُوه﴾ والباقونَ بالياء على تلوينِ الخطابِ. أو على أن الخطابَ للمؤمنين أو لهم ولغيرِهم، لما رُوِيَ أنه لما نزلتْ «أَتَى أمرُ الله» فوثبَ النبيُّ ﷺ ورفعَ الناسُ رؤوسَهم فنزلت «فلا تستعجلُوه»[4].

---

(١) انظر «زاد المسير» فصل في نزولها ـ أي سورة النحل (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦). و«الدر المنثور» (٥/ ١٠٧).

(٢) عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانَه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب (س٥/ ٩٤).

(٣) وصيغة الاستقبال «يشركون» للدلالة على تجدد شركهم واستمراره.
والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم (س٥/ ٩٥).

(٤) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٢٨٤) عن ابن عباس وبدون إسناد. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآنِ فإنه يُحيِي به القلوبَ المَيْتَةَ بالجهلِ، أو يقومُ في الدين مقامَ الروحِ في الجسد، وذِكْرُهُ عقيبَ ذلكَ إشارةٌ إلى الطريق الذي به عَلِمَ الرسولُ ﷺ ما تحقَّقَ موعدُهم بهِ ودُنُوَّهُ وإزاحةٌ لاستبعادِهم اختصاصَه بالعلمِ به. وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرو يُنْزِلُ من أَنْزَلَ، وعن يعقوبَ مثلَه، وعنه تَنَزَّلُ بمعنَى تَتَنَزَّلُ. وقرأ أبو بكر تُنَزَّلُ على المضارع المبني للمفعولِ من التنزيل. ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بأمره أو مِنْ أجْلِهِ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أن يتَّخِذَه رسولاً. ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بأنْ أنذِرُوا أي أعلِموا مَنْ نَذَرْتُ بكذا إذا عَلِمْتُه. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أنَّ الشأنَ لا إله إلا أنا فاتقونِ[1]، أو خَوِّفُوا أهلَ الكفرِ والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، وقولُه فاتقونِ رجوعٌ إلى مخاطَبَتِهم بما هو المقصودُ. وأنْ مفسِّرةٌ لأنَّ الرُّوحَ بمعنَى الوحْيِ الدالِّ على القول، أو مصدريةٌ في موضِعِ الجرِّ بدلاً مِنَ الرُّوحِ أو النَّصْبِ بنزعِ الخافضِ، أو مخففةٌ من الثقيلة. والآيةُ تدل على أنَّ نزولَ الوحي بواسطةِ الملائكةِ، وأن حاصِلَه التنبيهُ على التوحيدِ الذي هو مُنْتَهَى كمالِ القوةِ العلميةِ والأمرِ بالتقوى الذي هو أقْصَى كمالِ القوة العمليةِ، وأنَّ النبوةَ عطائيةٌ، والآياتُ التي بعدَها دليلٌ على وحدانيتِهِ مِنْ حيثُ إنها تدلُّ على أنه تعالى هو الموجِدُ لأُصُولِ العالَمِ وفروعِهِ على وِفْقِ الحكمةِ والمصلحةِ، ولو كان له شريكٌ لَقَدَرَ على ذلكَ فيلزمُ التمانُعُ.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أوجدَهما على مقدارٍ وشكلٍ وأوضاعٍ وصفاتٍ مختلفةٍ قدَّرها وخصَّصَها بحكمته. ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو مما يفتقرُ في وجودِه أو بقائِه إليهما ومما لا يقدرُ على خَلْقِهما. وفيه دليلٌ على أنه تعالى ليسَ من قبيلِ الأَجْرَامِ.

(٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمادٍ لا حِسَّ بها ولا حِراكَ سيَّالةً لا تحفظُ الوضْعَ والشَّكْلَ. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مِنطِيقٌ مجادِلٌ. ﴿مُّبِينٌ﴾ للحجَّة أو خصيمٌ مكافحٌ لخالِقِهِ قائلٌ: مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟. روي أن أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ أَتَى النبيَّ ﷺ بِعَظْمٍ رميمٍ وقال: يا محمدُ أَتَرَى اللهُ يُحْيِي هذا بعدَ ما قد رَمَّ؟. فنزلتْ[2].

(٥) ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ الإبلَ والبقرَ والغنمَ. وانتصابُها بِمُضْمَرٍ يفسِّره: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أو بالعطفِ على الإنسانِ، وخلقَها لكم بَيَانُ ما خُلِقَتْ لأجْلِهِ وما بعدَه تفصيلٌ له. ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ ما يُدْفَأُ به فَيَقِي البَرْدَ. ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ نسلُها ودرُّها وظُهورُها. وإنما عبَّر عنها بالمنافعِ ليتناولَ عِوَضَها[3]. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يُؤْكَلُ منها من اللحوم والشحوم والألبان. وتقديمُ الظرفِ للمحافظةِ على رؤوسِ الآي، أو لأنَّ الأَكْلَ منها هو المعتادُ المعتمَدُ عليه في المعاشِ وأما الأكلُ مِنْ سائرِ الحيواناتِ المأكولةِ فَعَلَى سبيلِ التداوي أو التفكُّهِ.

= (فتح القدير ٣/ ١٥٠).

(١) وتصدير الجملة بـ«أنه» للإيذان بدايةً بفخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة تقرير له في الذهن (س٥/ ٩٦).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٨ ـ ٢٧٩). و«الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٦٨) و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨).

(٣) وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى (س٥/ ٩٧).

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينةٌ. ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونها مِنْ مراعيها إلى مَرَاحِها بالعشيِّ. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تُخرِجُونَها بالغَدَاةِ إلى المراعي فإنَّ الأَفْنِيَةَ تتزينُ بها في الوقْتَيْنِ ويُجَلُّ أهلُها في أَعْيُنِ الناظرينَ إليها. وتقديمُ الإراحةِ لأنَّ الجَمَالَ فيها أَظْهَرُ فإنها تُقْبِلُ ملأَى البطونِ حافلةَ الضروعِ، ثم تأوي إلى الحظائرِ حاضرةً لأَهْلِها. وقُرِىءَ حيناً على أنَّ تُريحون وتَسْرحون وصْفَانِ له بمعنَى تريحون فيه وتسْرحُون فيه.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَحْمَالَكُم. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي إن لم تكنِ الأنعامُ ولم تُخْلَقْ فَضْلاً أنْ تحملُوها على ظهوركم إليه. ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ إلا بِكَلَفَةٍ ومشقَّةٍ. وقرىء بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل المفتوحُ مصدرُ شُقَّ الأمرُ عليه وأصلُه الصَّدْعُ والمكسورُ بمعنى النِّصْفِ، كأنه ذهبَ نِصْفُ قُوَّتِهِ بالتعب. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ رَحِمَكُم بِخَلْقِهَا لانتفاعِكُم وتيسيرِ الأمرِ عليكم[1].

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطفٌ على الأنعامِ. ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي لِتَرْكَبُوها وتَتَزَيَّنُوا بها زينةً، وقيلَ هيَ معطوفةٌ على محلِّ لتركبوها. وتغييرُ النظمِ لأنَّ الزينةَ بفعلِ الخالقِ والركوبَ ليس بفعلِهِ، ولأنَّ المقصودَ من خَلْقِها الركوبُ وأما التزيُّنُ بها فحاصلٌ بالعرضِ. وقُرِىءَ بغيرِ واوٍ، وعلى هذا يُحْتَمَلُ أن يكونَ عِلَّةً لتركَبُوها أو مصدراً في موضعِ الحالِ من أَحَدِ الضميرَيْنِ أي: متزينينَ أو مُتَزَيِّناً بها. واسْتُدِلَّ بهِ على حُرْمَةِ لحومِها، ولا دليلَ فيه، إذ لا يلزمُ من تعليل الفعل بما يُقْصَدُ منه غالباً أن لا يُقْصَدَ منه غيرُه أصلاً، ويدلُّ عليه أنَّ الآيةَ مكيةٌ وعامةُ المفسِّرينَ والمحدِّثينَ على أن الحُمُرَ الأهليةَ حُرِّمَتْ عامَ خيبرَ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصَّل الحيواناتِ التي يُحْتَاجُ إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غيرَ ضروريٍّ أَجْمَلَ غيرَها، ويجوزُ أن يكونَ إخباراً بأن له منَ الخلائقِ ما لا عِلْمَ لنا به، وأنْ يُرادَ به ما خلقَ في الجنةِ والنارِ مما لم يخطرْ على قلبِ بَشَرٍ[2].

(٩) ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بيانُ مستقيمِ الطريقِ الموصلِ إلى الحق، أو إقامةُ السبيلِ وتعديلها رحمةً وفضلاً، أو عليهِ قَصْدُ السبيل يصلُ إليه مَنْ يَسْلُكُه لا محالةَ يقالُ سبيلٌ قَصْدٌ وقاصِدٌ أي مستقيمٌ، كأنهُ يقصدُ الوجْهَ الذي يقصدُهُ السالكُ لا يميلُ عنه. والمرادُ من السبيل الجِنْسُ ولذلك أضاف إليه القَصْدَ وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ حائدٌ عن القصد أو عن الله. وتغييرُ الأسلوبِ لأنه ليس بحقٍّ

---

(١) وتغيير النظم إلى الجملة الفعلية «تحمل...» الدالة على مجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم ـ بحسب المنشأ وبحسب المتعلق ـ وفي الشمول للأوقات والاطراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ ـ وخاصة بالإبل ـ وبحسب المتعلق بالضاربين في الأرض.. وأما سائر النعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الأنعام وعامة لكافة المخاطبين دائماً أو في عامة الأوقات (س٥/٩٨).

(٢) والعدول إلى صيغة الاستقبال في «ويخلق» للدلالة على الاستمرار أو لاستحضار الصورة (س٥/٩٨).

على الله تعالى أن يبيِّنَ طُرُقَ الضلالة، أو لأن المقصودَ بيانُ سبيلِهِ وتقسيمُ السبيلِ إلى القصد والجائرِ إنما جاء بالعَرَضِ. وقُرِىءَ ومنكم جائرٌ أي عن القَصْدِ. ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ. ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتَكُم أجمعينَ لهدَاكُم إلى قَصْدِ السبيل هدايةً مستلزمةً للاهتداء[1].

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب، أو مِنْ جانبِ السماء. ﴿مَآءٌ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونَهُ، ولكم صِلَة أَنْزَلَ أو خَبَرُ شراب ومِنْ تبعيضية متعلقة به، وتقديمُها يوهِمُ حَصْرَ المشروبِ فيهِ ولا بأسَ به لأنَّ مياهَ العيونِ والآبار منه لقوله: ﴿فسلكه ينابيعَ﴾[2] وقوله ﴿فأسكنَّاه في الأرض﴾[3] ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكونُ شجرٌ يعني الشجرَ الذي ترعاه المواشي. وقيل كلَّ ما نَبَتَ على الأرض شَجَرٌ قال:

يعْلِفُهَا اللَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرْ والخَيْلُ في إِطْعَامِهَا اللَّحْم ضَرَرْ

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تَرْعون، مِنْ سَامتِ الماشيةُ وأسامَها صاحِبُها، وأصلُه السَّوْمَةُ وهيَ العلامةُ لأنَّها تُؤَثر بالرعي علاماتٍ.

(١١) ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنونِ على التفخيم. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وبعضُ كلِّها إذْ لم يَنبتْ في الأرضِ كلُّ ما يمكنُ من الثِّمار. ولعل تقديمَ ما يُسَامُ فيهِ على ما يُؤْكَلُ منه لأنه سيصيرُ غِذاءً حيوانياً هوَ أشرفُ الأغذيةِ، ومن هذا تقديمُ الزرعِ، والتصريحُ بالأجناسِ الثلاثةِ وترتيبُها[4]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجودِ الصانعِ وحِكْمَتِهِ، فإنَّ مَنْ تأمَّلَ أنَّ الحبةَ تقعُ في الأرضِ وتصلُ إليها نداوةٌ تَنْفُذُ فيها، فَيَنْشَقُّ أعلاها ويخرجُ منه ساقٌ

---

(١) قوله «على الله» حيث آثر حرف الاستعلاء «على» على أداة الانتهاء «إلى» لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه (س٥/ ١٠٠).

(٢) الزمر: «٢١».

(٣) المؤمنون: «١٨».

(٤) تقديم الزرع على ما عداه لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش.
وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه أدامٌ من وجه وفاكهة من وجه.
وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها.
وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة.
وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر ـ مع اندراجها تحت قوله تعالى «ومن كل الثمرات» للإشعار بفضلها. وتقديم الشجر عليها ـ مع كونه غذاء للأنعام ـ لحصوله بغير صنع بشر، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق، فإن مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر (س٥/ ١٠١).

الشجرة، وينشقُّ أسفلُها فيخرجُ منه عروقُها. ثم ينمو ويخرجُ منه الأوراقُ والأزهارُ والأكمامُ والثمارُ، ويشتمل كل منها على أجسامٍ مختلفةِ الأشكالِ والطباعِ مع اتحادِ الموادِّ ونسبةِ الطبائع السُّفْلِيَّةِ والتأثيراتِ الفلَكيةِ إلى الكلِّ، عَلِمَ أنَّ ذلكَ ليسَ إلا بفعلِ فاعلٍ مختارٍ مقدَّسٍ عنْ منازعةِ الأضدادِ والأندادِ، ولعلَّ فَصْلَ الآيةِ بهِ لذلكَ.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ﴾ بأنْ هيَّأَها لمنافِعِكُم[1]. ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حالٌ من الجميعِ أي نَفَعَكُم بها حالَ كونِها مسخراتٍ لله تعالى خلَقَها ودبَّرَها كيفَ شاء، أو لِمَا خُلِقْنَ له بإيجادِهِ وتقديرِهِ، أو لحكمِهِ. وفيه إيذانٌ بالجوابِ عما عسَى أنْ يُقَالَ إنَّ المؤثِّرَ في تكوينِ النباتِ حركاتُ الكواكبِ وأوضاعُها، فإنَّ ذلكَ إنْ سَلِمَ فلا ريبَ في أنها أيضاً ممكنةُ الذاتِ والصفاتِ واقعةٌ على بعضِ الوجودِ المحتملةِ، فلا بدَّ لها مِنْ مُوجِدٍ مخصِّصٍ مختارٍ واجبِ الوجودِ دَفْعاً للدَّوْرِ والتَّسَلْسُلِ. أو مصدرٌ ميميٌّ جُمِعَ لاختلافِ الأنواعِ. وقرأ حفصٌ والنجومُ مسخراتٌ على الابتداء والخبر فيكونُ تعميماً لِلْحُكْمِ بعدَ تخصيصِه، ورفعَ ابنُ عامرٍ الشمسَ والقمرَ أيضاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جَمَعَ الآيةَ وذكَرَ العقلَ لأنها تدلُّ أنواعاً مِنَ الدلالةِ ظاهرةً لذوي العقولِ السليمةِ غيرَ مَحُوجَةٍ إلى استيفاءِ فِكَرٍ كأحوالِ النباتِ.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على الليل، أي وسخَّرَ لكم ما خلقَ لكم فيها مِنْ حيوانٍ ونباتٍ. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أصنافه فإنها تتخالفُ باللون غالباً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ اختلافَها في الطِّباعِ والهيئاتِ والمناظرِ ليس إلا بصنعِ صانعٍ حكيمٍ.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ جعلَه بحيثُ تتمكَّنُونَ مِنَ الانتفاعِ به بالركوبِ والاصطيادِ والغَوْصِ. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمكُ، ووصفَه بالطراوةِ لأنه أرطبُ اللحومِ يُسْرِعُ إليه الفسادُ فَيُسَارَعُ إلى أَكْلِهِ، ولإظهارِ قُدْرَتِهِ في خَلْقِهِ عَذْباً طرياً في ماءٍ زُعَاقٍ. وتمسَّكَ بهِ مالكٌ والثوريُّ على أنَّ مَنْ حَلَفَ أنْ لا يأكلَ لحماً حنثَ بأكلِ السَّمَكِ، وأُجِيبَ عنه بأنَّ مَبْنَى الأيمانِ على العُرْفِ وهوَ لا يُفْهَمُ منه عندَ الإطلاقِ، ألا ترى أنَّ الله تعالى سمَّى الكافرَ دابةً ولا يحنثُ الحالِفُ على أن لا يركبَ دابةً بركوبِهِ. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤِ والْمَرْجَانِ أي تَلْبَسُها نساؤُكم، فَأُسْنِدَ إليهم لأنهنَّ مِنْ جُمْلَتِهِم ولأنهنَّ يتزيَّنَّ بها لأجْلِهِم. ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ. ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواريَ فيه تشقُّه

(١) وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين. وإيثار صيغة الماضي «سخر» للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره. (س٥/ ١٠١).

بحيزومها، من المخر وهو شق الماء، وقيل صوت جري الفلك. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفونَ نعمَ الله تعالى فتقومونَ بحقِّها، ولعلَّ تخصيصَه بتعقيبِ الشكرِ لأنهُ أقوى في باب الإنعام مِنْ حيثُ إنه جعلَ المهالكَ سَبَباً للانتفاعِ وتحصيلِ المعاش.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً رواسيَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أنْ تميلَ بكم وتضطربَ، وذلك لأنَّ الأرضَ قبلَ أنْ تُخلَقَ فيها الجبالُ كانتْ كُرَةً خفيفةً بسيطةَ الطَّبْعِ، وكان مِنْ حقِّها أنْ تتحرَّك بالاستدارةِ كالأفلاك، أو أنْ تتحركَ بأدنى سببٍ للتحريكِ فلمَّا خُلِقَتِ الجبالُ على وجْهِهَا تفاوتَتْ جوانِبُهَا وتوجَّهتِ الجبالُ بِثِقْلِهَا نحوَ المركزِ فصارتْ كالأوتادِ التي تمنعُها عنِ الحركةِ. وقيلَ لما خلقَ اللهُ الأرضَ جَعَلَتْ تمورُ فقالتِ الملائكةُ: ما هيَ بمقرِّ أحدٍ على ظَهْرِهَا فأصبحتْ وقدْ أُرْسِيَتْ بالجبالِ. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعلَ فيها أنهاراً، لأنَّ أَلْقَى فيه معناه[1]. ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصِدِكم، أو إلى معرفةِ الله سبحانه وتعالى.

(١٦) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ﴾ معالمَ يَسْتَدَلُّ بها السابلةُ من جبلٍ وسَهْلٍ وريحٍ ونحوِ ذلكَ. ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحارِ، والمرادُ بالنجمِ الجِنْسُ ويدل عليه قراءةُ وبالنُّجُم بضمتينِ وضمَّةٍ وسكونٍ على الجمْعِ. وقيل الثُّرَيَّا والفرقدانِ وبناتُ نَعْشٍ والْجَدْيُ. ولعلَّ الضميرَ لقريشٍ لأنَّهم كانوا كثيري الأسفارِ للتجارة مشهورينَ بالاهتداء في مَسَايِرِهِمْ بالنجومِ. وإخراجُ الكلامِ عن سُنَنِ الخطابِ وتقديمُ النجمِ وإقحامُ الضميرِ للتخصيصِ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاءِ خصوصاً يهتدونَ، فالاعتبارُ بذلكَ والشكرُ عليه ألزمُ لهمْ وأَوْجَبُ عليهم.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ إنكارٌ بعد إقامةِ الدلائل المتكاثرةِ على كمالِ قدرته وتناهي حكمتهِ والتفرُّدِ بخلْقِ ما عدَّدَ مِنْ مُبْدَعَاتِه لأنْ يساويَهُ ويستحقَ مشاركته ما لا يقدِرُ على خَلْقِ شيءٍ منْ ذلكَ بلْ على إيجادِ شيءٍ ما، وكان حقُّ الكلامِ أفمنْ لا يخلُق كَمَنْ يخلُقُ، لكنه عَكَسَ تنبيهاً على أنهم بالإشراكِ بالله سبحانه وتعالى جعلُوهُ من جِنْسِ المخلوقاتِ العجَزةِ شبيهاً بها. والمرادُ بِمَنْ لا يخلُقُ كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَه وتعالَى مغلّباً فيهِ أولو العلمِ منهم، أو الأصنامِ وأَجْرَوْهَا مَجْرَى أولي العلمِ لأنَّهم سمُّوهَا آلهةً ومِنْ حقِّ الإلهِ أنْ يَعْلَمَ، أو للمشاكلةِ بينَه وبينَ مَنْ يخلُقُ، أو للمبالغةِ وكأنه قيلَ: إنَّ مَنْ يخلُق ليسَ كَمَنْ لا يخلقُ مِنْ أولي العلمِ فكيفَ بما لا عِلْمَ عندَه؟[2] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعْرِفوا فسادَ ذلكَ فإنَّهُ لجلائِه كالحاصلِ للعقلِ الذي يحضرُ عندَه بأدْنَى تذكُّرٍ والتفاتٍ.

---

(١) أي أن ألقى فيه معنى الجعل.

(٢) والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها (س٥/ ١٠٤).

وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تَضبِطُوا عددَها فضلاً أنْ يطيقوا القيامَ بشكرها، أَتْبَعَ ذلكَ تعدادَ النِّعمِ وإلزامَ الحُجَّةِ على تَفَرُّدِهِ باستحقاقِ العبادةِ تنبيهاً على أنَّ وَرَاءَ ما عدَّدَ نعماً لا تنحصرُ، وأنَّ حقَّ عبادتِه تعالى غيرُ مقدور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيثُ يتجاوزُ عن تقصيرٍ في أداءِ شكرِها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يقطعُها لتفريطِكُم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبةِ على كُفْرَانِهَا[1].

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ مِنْ عقائدِكم وأعمالِكم، وهو وعيدٌ وتزييفٌ للشِّركِ باعتبارِ العلمِ بعدَ تزييفِه باعتبار القدرة[2].

(٢٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي والآلهةُ الذين تعبدونَهم مِنْ دونِهِ. وقرأ أبو بكر يَدْعُونَ بالياء، وقرأ حفصٌ ثلاثتَها بالياء[3]. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ لما نَفَى المشاركةَ بينَ مَنْ يخلقُ ومَنْ لا يخلقُ بَيَّنَ أنَّهم لا يخلُقُونَ شيئاً لِيَنْتُجَ أنَّهم لا يشاركونَه، ثمَّ أكَّدَ ذلكَ بأنْ أثْبَتَ لهم صفاتٍ تنافي الألوهيةَ فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأنهم ذواتٌ ممكنةٌ مفتقرةُ الوجودِ إلى التخليق، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ واجبَ الوجود[4].

(٢١) ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ هم أمواتٌ لا تعتريهِمُ الحياةُ، أو أمواتٌ حالاً أو مآلاً. ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بالذاتِ ليتناولَ كلَّ معبود، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ حياً بالذاتِ لا يَعْتَرِيْهِ المماتُ. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يَعْلَمُونَ وقتَ بَعْثِهِم، أو بَعْثِ عَبَدَتِهِمْ فكيفَ يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ على عبادتِهم، والإلهُ ينبغي أنْ يكونَ عالماً بالغيوبِ مقدِّراً للثوابِ والعقابِ، وفيه تَنْبِيْهٌ على أنَّ البعثَ مِنْ توابعِ التكليفِ.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تكريرٌ للمدَّعى بعدَ إقامةِ الْحُجَج. ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. بيانٌ لما اقتضَى إصرارَهم بعدَ وضوحِ الحقِّ وذلكَ عدمُ إيمانِهم بالآخرةِ، فإنَّ المؤمنَ بها يكونُ طالباً للدلائلِ متأمِّلاً فيما يسمعُ فينتفعُ به، والكافرُ بها يكونُ حالُه بالعكسِ، وإنكارُ قلوبِهم ما لا يُعْرَفُ إلاَّ بالبرهانِ اتِّباعاً للأَسْلافِ وَرُكُوناً إلى المألوفِ، فإنهُ ينافي النظرَ والاستكبارَ عن اتباعِ الرسولِ وتصديقِهِ والالتفاتِ إلى قوله، والأولُ هوَ العُمْدَةُ في الباب ولذلك رتَّبَ عليه ثبوتَ الآخَرِيْنَ.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهِم، وهوَ في موضعِ الرفعِ

---

(١) تقديم وصف المغفرة على الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (س٥/ ١٠٥).

(٢) وتقديم السر على العلن لبيان تحقيق المساواة بين العِلمين كأن علمه تعالى بالسر أقدم فيه بالعلن، أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم منه بحالته الثانية (س٥/ ١٠٥).

(٣) ثلاثتها أي (تسرون وتعلنون وتدعون).

(٤) وبناء الفعل للمفعول «يُخْلَقون» للإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله (س٥/ ١٠٦).

بِجَرَمَ لأنهُ مصدرٌ أو فِعْلٌ. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلاً عن الذين اسْتَكْبَرُوا عَنْ توحيدِه أو اتباعِ الرسول.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ﴾ القائلُ بعضُهم على التَّهَكُّمِ أو الوافدونَ عليهم أو المسلمونَ. ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما تَدَّعُونَ نُزُولَه، أوِ المنزَّلُ أساطيرُ الأولينَ، وإنما سَمَّوْهُ منزلاً على التهكمِ أو على الفَرَضِ أي على تقديرِ أنه مُنَزَّلٌ فهوَ أساطيرُ الأولينَ لا تحقيقَ فيهِ، والقائلونَ قيلَ همُ المقْتَسِمُون.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ﴾ أيْ قالوا ذلكَ إضلالاً للناسِ فحملُوا أوزارَ ضَلاَلِهم كاملةً فإنَّ إضْلاَلَهُم نتيجةُ رُسُوخِهم في الضلال. ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وبعضَ أوزارِ ضلالِ مَنْ يُضِلُّونَهم وهو حِصَّةُ التَّسَبُّبِ. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حالٌ من المفعولِ أي يضِلُّونَ مَنْ لا يعلمُ أنَّهم ضُلاَّلٌ. وفائدتُها الدلالةُ على أنَّ جَهْلَهُم لا يُعْذِرُهُم، إذْ كانَ عليهم أنْ يبحثُوا وَيُمَيِّزُوا بينَ المحقِّ والمبْطِلِ. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بِئْسَ شيئاً يَزِرُونَهُ فِعْلُهم.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أيْ سَوَّوْا منصوباتٍ ليمكُروا بها رسلَ اللهِ عليهم الصلاة والسلام. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ فأتاها أَمْرُهُ مِنْ جهةِ الْعَمَدِ التي بَنَوْا عليها بأنْ ضُعْضِعَتْ. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وصارَ سببَ هلاكِهم. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحتسبونَ ولا يتوقَّعونَ، وهو على سبيلِ التمثيل. وقيلَ المرادُ بهِ نُمْرُوذُ بْنُ كنعانَ بَنَى الصَّرْحَ ببابلَ سُمْكُهُ خمسةُ آلافِ ذراعٍ ليترصَّدَ أَمْرَ السماءِ، فَأَهَبَّ اللهُ الريحَ فَخَرَّ عليه وعلى قومِه فَهَلَكُوا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهم أو يُعَذِّبُهم بالنارِ[1] كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضافَ إلى نفسه استهزاءً، أو حكايةً لإضافَتِهم زيادةً في توبيخهم. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ تُعَادُونَ المؤمنينَ في شأنِهم. وقرأ نافعٌ بكسرِ النونِ بمعنَى تُشَاقُّونَنِي فإنَّ مُشَاقَّةَ المؤمنينَ كمشاقةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي الأنبياءُ أو العلماءُ الذينَ كانوا يَدْعُونَهم إلى التوحيد فَيُشَاقُّونَهم ويتكبَّرونَ عليهم، أو الملائكةُ. ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ الذِلَّةُ والعذابُ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفائدةُ قولِهم إظهارُ الشَّمَاتَةِ بهم وزيادةُ الإهانة، وحكايتُه لأنْ يكونَ لُطْفاً وَوَعْظاً لِمَنْ سَمِعَه.

---

(١) وتقديم الظرف «يوم» للإخبار بأن جزاءهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخروياً فتبقىٰ النفس مترقبة إلى رود ه سائلة عنه.. (س٥/١٠٨).

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء، وقُرِئَ بإدغام في التاءِ[١]. وموضعُ الموصولِ يحتملُ الأَوْجُهَ الثلاثةَ[٢]. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأنْ عرَّضوها للعذابِ المُخْلِدِ. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ فسالَمُوا وأَخْبَتُوا حينَ عَايَنُوا الموتَ. ﴿مَا كُنَّا﴾ قائلينَ ما كُنَّا. ﴿نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ كفرٍ وعُدْوانٍ، ويجوز أن يكونَ تفسيراً للسَّلَم على أنَّ المرادَ به القولُ الدالُّ على الاستسلام. ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي فتجيبُهُمُ الملائكة بلى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل قوله ﴿فألقوا السلم﴾ إلى آخرِ الآيةِ استئنافٌ ورجوعٌ إلى شرحِ حالِهم يومَ القيامة، وعلى هذا أَوَّلَ مَنْ لم يُجَوِّزِ الكذبَ يَوْمَئِذٍ ما كُنَّا نعملُ مِنْ سوءٍ بأنا لم نكنْ في زَعْمِنَا واعتقادِنا عاملينَ سُوءاً، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الرادُّ عليهم هوَ الله تعالَى أوْ أُولُو العلم.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ صِنْفٍ بابَها الْمُعَدَّ له. وقيلَ أبوابُ جهنَّمَ أصنافُ عذابِها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنَّمُ[٣].

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني المؤمنينَ. ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ أيْ أَنْزَلَ خيراً، وفي نَصْبِه دليلٌ على أنهم لم يتلعثَمُوا في الجواب، وأطبقُوهُ على السؤالِ معترفينَ بالإنزالِ على خلافِ الكفرةِ. رُوِيَ أنَّ أحياءَ العربِ كانُوا يَبْعَثُونَ أيامَ الموسِمِ مَنْ يأتِيهم بِخَبَرِ النبيِّ ﷺ، فإذا جاءَ الوافدُ المقْتَسِمِيْنَ قالوا له ما قالُوا وإذا جاءَ المؤمنينَ قالوا له ذلكَ[٤]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ﴾ مكافأةً في الدنيا. ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ أي وَلَثَوابُهم في الآخرةِ خيرٌ منها، وهو عِدَةٌ للذين اتقوا على قولهم، ويجوز أن يكون بما بعده حكايةً لقولهم بدلاً وتفسيراً لخيراً على أنه منتصبٌ بقالوا. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فَحُذِفَتْ لتقدُّمِ ذكرها، وقولُه:

(٣١) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾ من أنواعِ المشتهيات، وفي تقديم الظرف تنبيهٌ على أن الإنسان لا يجد جميعَ ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مثلَ هذا الجزاءِ يجزيهم، وهو يؤيد الوجْهَ الأوَّل.

---

(١) أي إدغام التاء في التاء بقوله «تتوفاهم».

(٢) أي الجر على النعت للكافرين أو بدلاً منهم، أو النصب أو الرفع على الذم.
وفائدة الموصول تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره لحين الموت دون من آمن (س٥/١٠٩).

(٣) وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعلّيته (س٥/١٠٩).

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٥/١٧) بدون راوٍ ولا سند.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل فَرِحِينَ ببشارة الملائكة إيَّاهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لِتَوَجُّهِ نفوسِهم بالكلية إلى حضرة القدس. ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيقكم بَعْدُ مكروه. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تُبْعَثُونَ فإنها مُعَدَّةٌ لكم على أعمالكم. وقيل هذا التوفي وفاةُ الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفارَ المارَّ ذِكْرُهم. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل[1]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه. والْحَيْقُ لا يُسْتَعْمَلُ إلا في الشرِّ.

(٣٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاءً أو منعاً للبعْثَة والتكليف متمسكينَ بأنَّ ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدةُ فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجِّينَ بأنها لو كانت مستقبحةً لما شاء الله صُدُورَها عنهم ولشاء خِلافَه ملجئاً إليه، لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قُبْحَ أعمالهم، وفيما بعده تنبيهٌ على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرَّموا حِلَّهُ وردُّوا رُسُلَه. ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلا الإبلاغ الموضِّحُ للحق وهو لا يؤثر في هدي مَنْ شاء الله هُدَاهُ لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعَه إنما يجب وقوعُه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له[2]. ثم بين أن البعْثة أَمْرٌ جَرَتْ به السُّنَّةُ الإلهية في الأُمم كلِّها سبباً لهدي من أراد اهتداءَه وزيادةً لضلال من أراد ضلاله، كالغِذاء الصالح فإنه ينفع المزاجَ السويَّ ويقويه ويضرُّ المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

---

(١) وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بأن إتيانَه لطف به عليه الصلاة والسلام (س٥/ ١١١).

(٢) وإيراد كلمة «على» بقوله «على الرسل» للإيذان بأنهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم إيفاؤه (س٥/ ١١٢).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يُرِدْ هداهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تَحَقُّقَ الضلال وثباتَه بفعل الله تعالى وإرادته من حيثُ إنه قسيم مِنْ هدي الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمودَ وغيرهم لعلكم تعتبرون[1].

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعنيُّ بِمَنْ حقَّتْ عليه الضلالة. وقرأ غيرُ الكوفيينَ لا يُهْدَىٰ على البناء للمفعول، وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيدَ أنكروا البعث مقسِمينَ عليه زيادةً في البيت على فساده، ولقد رد الله عليهم أبلغَ ردٍّ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم. ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه بلى فإنّ يبعث موعدٌ من الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه لامتناع الْخُلْفِ في وعده، أو لأن البعث مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من مواجِبِ الحكمة التي جرتْ عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعَه، ثم إنه تعالى بَيَّنَ الأمرينِ فقال:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي يبعثهم ليبين لهم ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق[2] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له مِنْ حيثُ الحكمةُ، وهو المميِّزُ بَيْنَ الحق والباطل والمحقِّ والمبطلِ بالثواب والعقاب[3]، ثم قال:

---

(١) وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للإيذان بأنه غني عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان.
وترتيب النظر على السير لما أنه بعده، وأن ملاك الأمر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء (س٥/ ١١٣).

(٢) والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته، وللإشعار بعلّية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين (س٥/ ١١٤).

(٣) وخص الكافرين بإسناد العلم إليهم لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً (س٥/ ١١٤).

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانه. وتقريرُه أنَّ تكوينَ الله بمحض قدرته ومشيئته لا تَوَقُّفَ له على سَبْقِ الموادِّ والمدَدِ، وإلاَّ لَزِمَ التسلسلُ، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سَبْقِ مادةٍ ومثالٍ أمكن له تكوينها إعادةً بعده. ونَصَبَ ابنُ عامرٍ والكسائي ههنا وفي يَس[1]، فيكون عطفاً على نقولَ أو جواباً للأمر.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابُه المهاجرون ظَلَمَهُم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكةَ بعدَ هجرة رسول الله ﷺ وهم بلالٌ وصهيبٌ وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي في حقه ولوجهه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مَبَاءَةً حسنةً وهي المدينة أو تَبوِئَةً حسنةً. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمرَ رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له: خُذْ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضلُ[2]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الضميرُ للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خيرَ الدارَيْنِ لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحلُّه النصب أوِ الرفعُ على المدح. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إلى الله مفوِّضِينَ إليه الأمرَ كلَّهُ[3].

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً، أي جرتِ السُّنَّةُ الإلهية بأن لا يُبْعَثَ للدعوة العامة إلا بشراً يُوْحَى إليه على ألسنة الملائكة، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة الأنعام[4]، فإنْ شَكَكْتُم فيه ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهلَ الكتاب أو علماءَ الأخبارِ لِيُعْلِمُوكُم. ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليلٌ على أنه تعالى لم يرسلِ امرأةً ولا مَلَكاً للدعوة العامة، وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[5] معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يُبْعَثُوا إلى الأنبياء إلا مُتَمَثِّلِينَ بصورةِ الرجال، وَرُدَّ بما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريلَ صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

---

(١) أي بنصب «يكون» وفي سورة يَس «٨٢» بينما قرأ الباقون «فيكونُ» بالرفع.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن جرير.

(٣) تقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام توكلهم (س٥/١١٦).

(٤) وهو قوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون» الأنعام «٩».

(٥) فاطر: «١».

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب، كأنه جواب قائل قال: بِمَ أُرسِلُوا؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً في الاستثناء مع رجالاً أي، وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربتُ إلا زيداً بالسوط، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بيوحي على المفعولية، أو الحال من القائم مُقَامَ فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراضٌ، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيتِ والإلزام. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن وإنما سُمِّيَ ذِكْرَاً لأنه موعظة وتنبيه. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكْرِ بِتَوَسُّط إنزاله إليك مما أُمِرُوا به ونُهُوا عنه، أو مما تشابه عليهم، والتبيينُ أعمُّ من أن ينصَّ بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي المكَرَاتِ السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ ورامُوا صَدَّ أصحابه عن الإيمان. ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خُسِفَ بقارونَ. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتةً من جانب السماء كما فُعِلَ بقوم لوطٍ.

(٤٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي متقلِّبينَ في مَسَايِرِهِم ومَتَاجِرِهِم. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1].

(٤٧) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأنْ يُهْلِكَ قوماً قبلَهم فيتخوَّفوا فيأتيهم العذابُ وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا مِنْ تخوَّفْتُه إذا تَنَقَّصْتُه. رُوِيَ أن عمرَ رضي الله تعالى عنه قال على المِنْبَرِ: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هُذَيْلٍ فقالَ: هذه لغتنا التخوُّفُ التنقُّصُ، فقال هل تعرف العربُ ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخَوَّفَ الرَحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسيرَ كتابِكم ومعاني كلامِكم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٤٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ استفهامُ إنكارٍ أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالُهم لم يتفكروا فيها لِيَظْهَرَ لهم كمالُ قدرته وقهره فيخافوا منه، وما موصولةٌ مُبْهَمَةٌ بيانُها: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي أَوَلم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال مُتَفَيِّئَةٌ. وقرأ حمزة والكسائي تَرَوْا بالتاء، وأبو عمرو تتفيّؤُ بالتاء. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ عن أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كلِّ واحد منها، استعارةً من يمين

(١) إيراد الجملة الإسمية للدلالة على دوام النفي لا نفي الدوام (س٥/ ١١٧).

الإنسان وشِمَالِهِ، ولعلّ توحيدَ اليمين وجَمْعَ الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجَمْعِهِ في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله. والمرادُ من السجود الاستسلامُ سواءٌ كان بالطبع أو الاختيار، يُقَالُ سَجَدَتِ النخلةُ إذا مالت لكثرة الْحَمْلِ وسجدَ البعيرُ إذا طَأْطَأَ رأسَه لِيُرْكَبَ، وسُجَّداً حال من الظلال، وهم داخرون حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقادةً لما قُدِّرَ لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. والأَجْرامُ في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها، وجَمْعُ داخرون بالواو لأنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا مَنْ يعقل أو لأن الدخورَ من أوصاف العقلاء. وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفُلْكِ وهو جانبُه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذةً في الارتفاع والسطوع وشِماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعةً على الرُّبْعِ الشرقي من الأرض.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينقاد انقياداً يعمُّ الانقيادَ لإرادته وتأثيره طبعاً والانقيادَ لتكليفه وأَمْرِهِ طوعاً ليصح إسناده إلى عامَّةِ أهل السموات والأرض، وقولُه: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ بيان لهما، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء[1]. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عَطْفٌ على الْمُبَيَّنِ به عَطْفَ جبريلَ على الملائكةِ للتعظيم، أو عَطْفَ المجرَّداتِ على الجسمانياتِ، وبه احتج مَنْ قال إن الملائكة أرواح مجردة، أو بيانٌ لما في الأرض والملائكةُ تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، أو المراد بها ملائكتها من الْحَفَظَةِ وغيرِهم. وما لَمَّا اسْتُعْمِلَ للعقلاء ـ كما استعمل لغيرهم ـ كان استعمالُه حيثُ اجتمع القبيلانِ أَوْلَى من إطلاق مَنْ تغليباً للعقلاء. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[2]. والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون، أو بيان له وتقرير لأن مَنْ خاف الله تعالى لم يستكبرْ عن عبادته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3] من الطاعة والتدبير،

---

(١) وتقديمه على الملائكة لقِلّته، ولئلا يقع فصل بين المبيَّن والمبيَّن.
وإفراد لفظ الدابة ـ مع أن المراد الجمع ـ لإفادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب (س٥/١١٨).

(٢) الأنعام: «٦١».

(٣) وإيراد «يُؤْمَرون» مبنياً للمفعول جرياً عن سنن الجلالة، وإيذاناً بعدم الحاجة للتصريح به لاستحالة استناده لغيره

وفيه دليل على أَنَّ الملائكة مكلَّفون مُدَارُونَ بين الخوف والرجاء.

(٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أنَّ المعدود يدل عليه دلالةً على أن مَسَاقَ النهي إليه، أو إيماءٌ بأن الاثنينيةَ تنافي الألوهيةَ كما ذَكَرَ الواحدَ في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية[١]. ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نَقَلَ من الغَيْبَةِ إلى التكلُّمِ مبالغةً في الترهيب وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإلهُ الواحد فإيايَ فارهبونِ لا غيرَ.

(٥٢) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِباً﴾ لازماً، لما تقرر من أنه الإله وحدَه والحقيق بأن يُرْهَبَ منه. وقيل واصباً من الوَصَبِ أي وله الدين ذا كُلْفَةٍ. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضارَّ سواهُ كما لا نافعَ غيرُه، كما قال تعالى:

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أيْ وأيُّ شيء اتصل بكم من نعمة فهو مِنَ الله، وما شرطيةٌ أو موصولةٌ متضمنة معنَى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنَّ استقرارَ النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والْجُؤَارُ رفعُ الصوت في الدعاء والاستغاثة[٢].

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ وهم كفاركم. ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره[٣]، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإنْ كان خاصاً بالمشركين كان مِنْ للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون مِنْ للتبعيض على أنْ يعتبرَ بعضُهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[٤].

= سبحانه (س٥/ ١١٩).

(١) وإظهار الفاعل «الله» وتخصيصه بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية، وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين.. (س٥/ ١١٩).

(٢) وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر، وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنىٰ ما ينطلق عليه اسم الجنس، مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام، والتعبيرُ عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة، وإيراد ما المُعْرِبة عن العموم ما لا يخفىٰ من الجزالة والفخامة. ولعل إيراد «إذا» دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب (س٥/ ١٢٠).

(٣) والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك والكفران (س٥/ ١٢٠).

(٤) لقمان: «٣٢».

(٥٥) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بِشِرْكِهم كفرانَ النعمة أو إنكارَ كونِها مِنَ الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أمْرُ تهديد[١]. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أغْلَظَ وعيدَه[٢]. وقرىء ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد والفاءُ للجواب.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا عِلْمَ لها لأنها جماد فيكون الضمير لما، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالاتٍ مثلَ أنَّها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائِدَ إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجعولَ له محذوفٌ للعلم به. ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرُّبِ إليها، وهو وعيد لهم عليه[٣].

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ كانت خُزَاعةُ وكِنَانَةُ يقولون: الملائكة بناتُ الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له من قولهم، أو تَعَجُّبٌ منه. ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفعُ بالابتداءِ والنصبُ بالعطفِ على البنات على أن الْجَعْلَ بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعدُ تجويزُه في المعطوف.

(٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أُخبِرَ بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ صار أو دامَ النهارَ كلَّه. ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسوداد الوجْهِ كنايةٌ عن الاغتمام والتشوير[٤]. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ غيظاً مِنَ المرأة.

(٥٩) ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم. ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾. من سوء المبَشَّرِ به عُرْفاً[٥]. ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ مُحَدِّثاً نَفْسَه متفكِّراً في أن يتركَهُ. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه ويَئِدُهُ، وتذكير الضمير للفظ ما. وقرىء بالتأنيث فيهما. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلُّه عندهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفةُ السوْء، وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإناث ﴿وَأَدِهِنَّ﴾ خشيةَ

---

(١) والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط (س٥/ ١٢٠).
(٢) ولم يذكر مفعول «تعلمون» للإشعار بأنه لا يوصف من شدته (س٥/ ١٢٠).
(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب «لتسألنّ...» ينبىء عن كمال الغضب وشدة الوعيد (س٥/ ١٢١).
(٤) التشوير هو الإشارة والتلويح، يقال: أشار إشارة وشوّر تشويراً أي لوّح.. (المصباح المنير «شور»).
(٥) والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء (س٥/ ١٢١).

الإملاق[١]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۖ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أَضْمَرَها من غير ذِكْرٍ لدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قطُّ بِشُؤْم ظُلْمِهم. وعن ابن مسعود[٢] رضي الله تعالى عنه: كادَ الْجُعَلُ يَهْلِكُ في جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابن آدمَ، أو مِنْ دابَّةٍ ظالمة. وقيل لو أَهْلَكَ الآباءَ بكفرهم لم يكن الأبناءُ. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بل هلكوا أو عُذِّبُوا حينئذٍ لا محالةَ، ولا يلزم من عموم الناس وإضافةِ الظلم إليهم أن يكونوا كلُّهم ظالمينَ حتى الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، لجواز أنْ يُضَافَ إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم[٣].

(٦٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسل وَأَرَاذِلِ الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، وهو: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي عند الله، كقوله: ﴿ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده لَلْحُسْنَى﴾[٤]. وقرىء الكُذُبُ جمع كَذُوب صفة للألسنة. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ رَدٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِضِدِّهِ. ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدَّمونَ إلى النارِ مِنْ أَفْرَطْتُهُ في طلب الماء إذا قَدَّمْتُهُ. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه مِنَ الإفراط في المعاصي، وقرىء بالتشديد مفتوحاً من فَرَّطْتُه في طلب الماء، ومكسوراً من التفريط في الطاعات.

(٦٣) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا وعبَّر باليوم عن زمانها، أو فهو وَلِيُّهُم حين كان يُزَيِّنُ لهم، أو يومَ القيامة على أنه حكايةُ حالٍ ماضية أو آتية. ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين

---

(١) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (س٥/ ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ج١٤/ ١٢٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥٤ رقم ٧٤٧٨) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٤٠) نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه.

(٣) صيغة الاستفعال بقوله «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له.
وقولهُ «لا يستقدمون» تعرض لذكره ـ مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجي الأجل ـ مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سِلْك ما يمتنع (س٥/ ١٢٢).

(٤) فصلت: «٥٠».

الشيطانُ لِلْكَفَرَةِ المتقدمينَ أعمالَهم وهو وَلِيُّ هؤلاءِ اليومَ يغريهم ويُغْوِيهم، وأَنْ يُقَدَّرَ مضافٌ أيْ فهو وليُّ أمثالِهم، والولي القرين أوِ الناصرُ فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغِ الوجوه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٤) ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ مِنَ التوحيد والقَدَرِ وأحوال المعَادِ وأَحْكَامِ الأفعال. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فِعْلاَ الْمُنَزِّلِ بخلاف التبيين[1].

(٦٥) ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أنبت فيها أنواعَ النبات بعد يُبْسِهَا. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَدَبُّرٍ وإنصاف.

(٦٦) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ دلالةٌ يُعْبَرُ بها مِنَ الجهل إلى العلم. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ استئناف لبيان الْعِبْرَةِ، وإنما ذَكَرَ الضمير ووحَّدَه ههنا لِلَّفْظِ وأَنَّثَهُ في سورة المؤمنين[2] للمعنى، فإنَّ الأَنعامَ اسمُ جَمْعٍ ولذلك عدَّه سيبويهِ في المفردات الْمَبْنِيَّةِ على أفعال كأخلاقٍ وأكياسٍ. ومَنْ قال إنه جَمْعُ نَعَمٍ جعلَ الضميرَ للبعض فإنَّ اللَّبَنَ لبعضها دون جميعها أو لواحده أو له على المعنى، فإن المراد به الجنسُ. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نَسْقِيْكُم بالفتح هنا وفي المؤمنين. ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولِّدِ من الأجزاء اللطيفة التي في الفَرْثِ، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعضَ الانهضامِ في الكَرِشِ. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[3]: أن البهيمة إذا اعْتَلَفَتْ وانطبخَ العلفُ في كَرِشِهَا كان أسفلُه فرثاً وأوسطُه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أنَّ أَوْسَطَهُ يكون مادة اللَّبَنِ وأعلاه مادةُ الدمِ الذي يغذي البدنَ، لأنهما لا يتكونان في الكَرِشِ بلِ الكبدُ يجذِبُ صُفَارةَ الطعام المنهضِم في الكرش، ويبقي ثَفَلُهُ وهو الفَرْثُ ثُمَّ يمسكُها ريثما يهضمها هضماً ثانياً فيحدث أخلاطاً أربعةً معها مائية، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكِلْيَةِ والمرارةِ والطِّحالِ، ثُمَّ يُوَزِّعُ الباقي على الأعضاء بِحَسَبِهَا فَيُجْرِي إلى كلٍّ حَقَّهُ على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إنْ كانَ الحيوان أُنْثَى زاد أخلاطُها على قَدَرِ غذائِها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرَّحِم لأجل الجنينِ فإذا انفصل انصبَّ

---

(١) تقديم التبيين على الهدىٰ والرحمة لعله لتقدمه في الوجود.
وتخصيص الهدىٰ والرحمة بالمؤمنين لأنهم المغتنمون لآثاره (س٥/ ١٢٣).

(٢) المؤمنون: «٢١».

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥) وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٦٤).

ذلك الزائد أو بعضُه إلى الضُّروعِ، فَيَبْيَضُّ بمجاورة لحومها الغُدَدِيَّةِ البيضِ فيصير لبناً، ومَنْ تَدَبَّرَ صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مَقَارِّها ومجاريها والأسبابِ المولِّدة لها والقِوَى المتصرِّفةِ فيها كلَّ وقت على ما يليق به، اضْطُرَّ إلى الإقرار بكمال حِكْمَتِهِ وتناهي رحمته. ومِنْ الأُوْلَى تبعيضيةٌ لأنَّ اللَّبَنَ بعضُ ما في بطونها والثانيةُ ابتدائيةٌ كقولك: سقيتُ مِنَ الحوض، لأن بينَ الفرث والدم المحلُّ الذي يبتدأُ منه الإسقاءُ وهي متعلِّقة بنسقيكم أو حالٌ من ﴿لَّبَنًا﴾ قُدِّمَ عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضعُ العِبْرَةِ. ﴿خَالِصًا﴾ صافياً لا يَسْتَصْحِبُ لونَ الدم ولا رائحةَ الفَرْثِ، أو مُصَفًّى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجهِ. ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ سهلَ المرورِ في حَلْقِهِم، وقرىء سَيِّغاً بالتشديد والتخفيف.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أيْ ونسقيكم مِنْ ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقولُه: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئنافٌ لبيان الإسقاءِ أو بتتخذون، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبرٌ لمحذوفٍ صِفَتُهُ تتخذون، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه. وتذكيرُ الضمير على الوجهين الأَوَّلَيْنِ لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الثمرات بمعنى الثَّمَرِ، والسَّكَرُ مصدرٌ سُمِّيَ به الخمرُ. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدِّبسِ والخلِّ، والآية إن كانت سابقةً على تحريم الخمرِ فَدَالَّةٌ على كراهتها وإلاَّ فجامعةٌ بينَ العتاب والمِنَّةِ. وقيل السَّكَرُ النبيذ وقيل الطَّعْمُ قال:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سُكْراً

أي تنقلتُ بأعراضِهم. وقيل ما يسدُّ الجوعَ مِنَ السَّكَرِ فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أَلْهَمَهَا وقذف في قلوبها. وقرىء إلى النَّحَلِ بفتحين. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ بأنِ اتخذي، ويجوز أن تكون أنْ مُفَسِّرةً لأنَّ في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضمير على المعنى فإن النحل مُذَكَّرٌ. ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ذُكِرَ بحرف التبعيض لأنها لا تَبْنِي في كل جبل وكلِّ شجر وكل ما يُعْرَشُ مِنْ كَرْمٍ أو سقف ولا في كل مكان منها. وإنما سُمِّيَ ما تَبْنِيْهِ لتتعسَّلَ فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحذقُ المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة، ولعلَّ ذِكْرَهُ للتنبيه على ذلك. وقرىء بِيُوتاً بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يَعرُشُون بضم الراء.

ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۗ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينَها مُرِّها وحُلْوِهَا. ﴿فَٱسْلُكِي﴾ ما أَكَلْتِ. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيلُ فيها بقدرته النورَ المرَّ عسلاً من أجوافِك، أو فاسلكي الطُّرُقَ التي ألهمكِ في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك سُبُلَ ربِّكِ لا تتوعرُ عليكِ ولا تَلْتَبِسُ. ﴿ذُلُلًا﴾ جَمْعُ ذَلولٍ وهي حال من السّبل، أي مُذَلَّلَةً ذَلَّلَهَا اللهُ تعالى وسَهَّلَهَا لكِ، أو من الضمير في اسلكي أي وأنتِ ذُلَلٌ منقادةٌ لما أُمِرْتِ به. ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ كأنه عَدَلَ به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس لأنه محلُّ الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. ﴿شَرَابٌ﴾ يعني العسلَ لأنه مما يُشْرَبُ. واحْتَجَّ به مَنْ زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطِرةَ فتستحيل في بطنها عسلاً ثم تقيءُ ادخاراً للشتاء، ومَنْ زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاءَ طليّة[1] حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل. فَسَّرَ البطونَ بالأفواه. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسودُ بِحَسَبِ اختلاف سِنِّ النحل والفصلِ. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجونٌ إلا والعسلُ جُزْءٌ منه. مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعيض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادةَ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه العسلَ»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فَبَرَأَ فكأنما أُنْشِطَ من عِقَال[2]. وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَنْ تَدَبَّرَ اختصاصَ النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبُّر عَلِمَ قطعاً أنه لا بدَّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بآجال مختلفة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ يعاد. ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أَخَسِّهِ يعني الْهَرَمَ الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة، وقيل خمس وسبعون[3]. ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليصيرَ إلى حالةٍ شبيهة بحالة الطفولية في النِّسْيَانِ وسوءِ الفهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقاديرِ أعمارِكم. ﴿قَدِيرٌ﴾ يميت الشابَّ النشيط ويبقي الْهَرِمَ الفاني. وفيه تنبيه على أن تَفَاوُتَ آجال الناس ليس إلا بتقديرِ قادرٍ حكيم، رَكَّبَ أبنيتهم وعدَّل أمزجتهم على قَدَرٍ معلوم، ولو

---

(١) قوله (طلية) أي ذات بهجة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١٣٩ رقم ٥٦٨٤) ومسلم (٤/ ١٧٣٦ ـ ١٧٣٧ رقم ٩١/ ٢٢١٧) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٤٧ رقم ٣٢٣٢).
من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) وإيثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة (س٥/ ١٢٦).

كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغِ التفاوتُ هذا المبلغَ.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مَوَالٍ يتولَّوْنَ رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليكُ حالُهم على خلاف ذلك. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾ بمعطي رزقِهم. ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم فإنما يَرُدّون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مُقَرِّرَةٌ لها، ويجوز أن تكون واقعةً موقعَ الجواب كأنه قيل: فما الذين فُضِّلُوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فَيَسْتَوُوا في الرزق، على أنه ردٌّ وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعضَ مخلوقاته في الألوهية ولا يرضَوْن أن يشاركهم عبيدُهم فيما أنعم الله عليهم فيساووهم فيه. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يتخذون له شركاءَ، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحهم، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر تجحدون بالتاء لقوله: «خلقكم» و«فَضَّلَ بعضكم».

(٧٢) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلَكم. وقيلَ هوَ خَلْقُ حَوَّاءَ مِنْ آدمَ[١]. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وأولادُ أولادٍ أو بنات فإن الحافِدَ هو المسرعُ في الخدمة. والبناتُ يَخْدُمْنَ في البيوت أتمَّ خِدْمة، وقيل هم الأُخْتَانِ على البنات، وقيل الربائبُ، ويجوز أن يُرَادَ بها البنونَ أنفسُهم والعطفُ لِتَغَايُرِ الوصْفَيْنِ[٢]. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ من اللذائذ أو الحلالاتِ، ومِنْ للتبعيض فإنَّ المرزوقَ في الدنيا أُنْمُوْذَجٌ منها. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيباتِ ما يحرمُ كالبحائرِ[٣] والسوائبِ[٤]. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نِعَمَهُ إلى الأصنام، أو حَرَّمُوا ما أحل الله لهم. وتقديمُ الصلة على الفعل إما للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغةً، أو للمحافظة على الفواصل[٥].

---

(١) ووضع الظاهر «لكم» موضع المضمر للإيذان بأن المراد أنه جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره. وتقديم المجرور «لكم» للتشويق للمؤخر والاهتمام بالمقدم. (س٥/١٢٨).

(٢) وتقديم المجرور باللام «لكم» على المجرور بمن «من أنفسكم» للإيذان من أول الأمر بعوْد منفعة الجعل إليهم إمداداً للتشويق وتقوية له (س٥/١٢٨).

(٣) البحائر جمع بحيرة وهي الناقة التي تشق أذنها إذا ولدت عشرة أبطن فلا تُركَب ولا يحمل عليها (المفردات مادة بحر).

(٤) السوائب جمع سائبة وهي التي تُسَيَّب في المرعىٰ فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن (المفردات مادة سيب).

(٥) والالتفات إلى الغيبة في «يؤمنون ويكفرون..» للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى =

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ من مطر ونبات، ورزقاً إن جعلتَه مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يتملَّكوه أو لا استطاعةَ لهم أصلاً، وجَمْعُ الضمير فيه وتوحيدُه في «لا يملك» لأن ما مفردٌ في معنَى الآلهة، ويجوز أن يعودَ إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

(٧٤) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تَقيسُونَهُ عليه فإنَّ ضَرْبَ المثلِ تشبيهُ حالٍ بحال[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فسادَ ما تعولُون عليه من القياس ـ على أن عبادة عبيدِ المِلكِ أَدْخَلُ في التعظيم من عبادتِهِ ـ وعِظَمَ جُرْمِكُم فيما تفعلون. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جَرَأْتُم عليه فهو عليم للنهي، أو أنه يعلم كُنْهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه فَدَعُوا رَأْيَكُم دون نَصِّه، ويجوز أن يُرَادَ فلا تضربوا لله الأمثالَ فإنه يعلم كيف تُضْرَبُ الأمثالُ وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يُضْرَبُ فضرب مثلاً لنفسه وَلِمَنْ عُبِدَ دونَه فقال:

(٧٥) ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ﴾[2] مثّل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومَثَّلَ نفسه بالحرِّ المالكِ الذي رَزَقَهُ الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتجَّ بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بَيْنَ الأصنام التي هي أعجزُ المخلوقات وبَيْنَ الله الغنيِّ القادرِ على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييدُ العبدِ بالمملوكية للتمييز عن الحرِّ فإنه أيضاً عَبْدُ الله وبِسَلْبِ القُدْرَةِ للتمييز عن الْمُكَاتِبِ والمأذونِ، وجعْلُه قسيماً للمالكِ المتصرِّفِ يدلُّ على أن المملوكَ لا يَمْلك، والأظْهَرُ أنَّ مَنْ نكرةٌ موصوفة ليطابقَ عبداً، وجَمَعَ الضميرَ في يستوون لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرارُ والعبيد؟. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمدِ له، لا يستحقه غيرُه فَضْلاً عن العبادة لأنه مولي النِّعَم كلِّها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نِعَمَهُ إلى غيرِهِ ويعبدونه لأجلها.

= غيرهم من السامعين، تعجيباً لهم مما فعلوه (س٥/ ١٢٨).

(١) والالتفات فيه إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي (س٥/ ١٢٨).

(٢) قوله تعالى «ومَنْ رزقناه» فيه التفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق.
وقوله «فهو ينفق» عبر بالجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق واستمراره التجددي.
وقوله «سراً وجهراً» حيث قدم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه.
ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك لكنهم لا يعلمون بموجبه عناداً (س٥/ ١٣٠).

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وُلِدَ أَخْرَسَ لا يَفْهَم ولا يُفْهِم. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عَيَّالٌ وثِقْلٌ على مَنْ يلي أَمْرَهُ. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر. وقرىء يُوَجَّهُ على البناء للمفعول ويوجه بمعنى يتوجَّه كقوله أينما أُوَجَّهْ أَلْقَ سَعْداً، وتَوَجَّهَ بلفظ الماضي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بِنَجْحٍ وكفايةٍ مُهِمٍّ. ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ ومَنْ هو فَهْمٌ مِنطِيْقٌ ذو كفاية وَرُشْدٍ ينفع الناسَ بِحَثِّهم على العدل الشامل لمجامعِ الفضائل. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجَّه إلى مطلب إلا ويبلُغه بأقربِ سَعْيٍ. وإنما قابل تلكَ الصفاتِ بهذين الوصفين لأنهما كمالُ ما يقابلهما[1]، وهذا تمثيل ثانٍ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينَه وبينَها أو للمؤمن والكافر.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يختص به علمه لا يَعْلَمه غيرُه، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدلَّ عليه محسوسٌ. وقيل يوم القيامة فإنَّ عِلْمَهُ غائبٌ عن أهل السموات والأرض. ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ إلا كرجع الطَّرْفِ من أعلى الْحَدَقَةِ إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أَمْرُهَا أقربُ منه بأن يكونَ في زمانِ نصفِ تلكَ الحركةِ بل في الآن الذي تبتدئُ فيه، فإنه تعالى يُحْيِي الخلائقَ دُفْعَةً وما يُوْجَدُ دُفْعَةً كان في آنٍ، وأو للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تَرَاخَى، فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقربُ مبالغةً في استقرابه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَيَقْدِرُ أن يُحْيِيَ الخلائقَ دفعةً كما قَدَرَ أنْ أحياهم متدرِّجاً. ثم دل على قدرته فقال:

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة[2] على أنه لغةٌ أو إتباع لما قبلها، وحمزة بكسرها وكسر الميم. والهاء مزيدة مثلها في إهراقٍ. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ جُهَّالاً مُسْتَصْحِبِيْنَ جهلَ الجماديةِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أداةَ تتعلمون بها فَتُحِسُّونَ بمشاعركم جزئياتِ الأشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركاتٍ ومباياناتٍ بينها بتكرر الإحساس حتى تتحصلَ لكم العلومُ البديهية، وتتمكَّنوا من تحصيل المعالمِ الكَسْبِيَّةِ بالنظر فيها[3]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أَنْعَمَ عليكم طَوْرَاً بعد طَوْرٍ فتشكروه.

---

(١) تغيير الأسلوب في قوله «ومن يأمر بالعدل...» عن سابقه وذلك لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين (س٥/ ١٣٠).

(٢) أي بكسر همزة «أمهاتكم».

(٣) وتقديم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر. وإفرادُه باعتبار كونه مصدراً في الأصل (س٥/ ١٣٢).

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مُذَلَّلاتٍ للطيران بما خَلَقَ لها من الأجنحة والأسباب المؤاتيةِ له. ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإن ثِقَلَ جَسَدِها يقتضي سقوطَها ولا علاقةَ فوقَها ولا دَعَامةَ تحتَها تُمْسِكُها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تسخيرِ الطيرِ للطيران بأنْ خَلَقَهَا خِلْقَةً يمكن معها الطيرانُ، وخَلَقَ الجوَّ بحيثُ يمكن الطيران فيه. وإمساكُها في الهواء على خلاف طَبْعِها. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

(٨٠) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضِعاً تسكُنون فيه وقتَ إقامتِكم كالبيوت الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الحجرِ والمدَرِ، فَعَلَ بمعنى مفعول. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ هي القِبَابُ الْمُتَّخَذَةُ مِنَ الأُدم. ويجوز أن يتناول المتخذةَ من الوبر والصُّوف والشَّعْرِ فإنها مِنْ حيثُ إنها نابتة على جلودها يصدقُ عليها أنها مِنْ جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفةً يَخِفُّ عليكم حملُها ونقلُها. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقتَ تَرْحَالِكُم. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضْعُها أو ضربُها وقتَ الْحَضَرِ أو النزول. وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ[1] يومَ ظَعْنِكُم بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ الصوف للضائنةِ والوبرُ للإبلِ والشَّعْرُ لِلْمَعْزِ. وإضافتُها إلى ضمير الأنعام لأنها من جُمْلَتِهَا. ﴿أَثَٰثًا﴾ ما يُلْبَسُ وَيُفْرَشُ. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ما يُتَّجَرُ به. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدةٍ من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدةً، أو إلى حين مماتِكم، أو إلى أن تقضُوا منه أوطاركم.

(٨١) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرِها. ﴿ظِلَٰلًا﴾ تتقون بها حرَّ الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضِعَ تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، جَمْعُ كِنٍّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكَتَّانِ والقطن وغيرها. ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خَصَّهُ بالذِّكْرِ اكتفاءً بأحد الضِّدَّيْنِ، أو لأنَّ وِقايةَ الحرِّ كانت أهمَّ عندَهم. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروعَ والجواشِنَ. والسِّربالُ يعمُّ كلَّ ما يُلْبَسُ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كإتمام هذه النِّعم التي تقدمتْ. ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لِحُكْمِهِ[2]. وقرىء تَسْلَمُونَ من السَّلامة أي تشكرون فتسلمونَ من العذاب، أو تنظرون فيها فتَسْلمون من الشركِ. وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٢) وإفراد النعمة: إما لأن المراد بها المصدر، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل (س٥/ ١٣٣).

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضُوا ولم يقبلوا منك[١]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فلا يضرُّكَ فإنما عليك البلاغُ وقد بلَّغتَ. وهذا من إقامة السبب مُقَامَ المسَبَّبِ.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي يعرفُ المشركونَ نعمةَ الله التي عدَّدَها عليهم وغيرَها حيثُ يعترفون بها وبأنها مِنَ اللهِ تعالى. ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غيرَ الْمُنْعِم بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمةُ اللهِ نُبُوَّةُ محمد ﷺ[٢] عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عِناداً، ومعنى «ثم» استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً. وذَكَرَ الأَكْثَر إما لأن بعضَهم لم يعرفِ الحقَّ لنقصان العقل أو التفريطِ في النظر أو لم تقمْ عليه الْحُجَّةُ لأنه لم يبلغْ حدَّ التكليف، وإما لأنه يقام مقامَ الكلِّ كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار إذ لا عُذْرَ لهم، وقيل في الرجوع إلى الدنيا. وثُمَّ لزيادة ما يحيقُ بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكُلِّيِّ على ما يَمُنُّونَ به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يُسْتَرْضَوْنَ، مِنَ العُتْبى وهي الرضا. وانتصاب «يومَ» بمحذوف، تقديره: اذْكُرْ أو خَوِّفْهم أو يحيقُ بهم ما يحيق، وكذا قوله:

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم التي ادَّعوها شركاءَ، أو الشياطينَ الذين شاركوهم في الكفر بالْحَمْلِ عليه. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو الْتماسٌ لأنْ يَشْطُرَ عذابَهم[٤]. ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقةً وإنما عبدوا أهواءَهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[٥]. ولا يمتنع إنطاقُ الله الأصنامَ به حينئذ، أو

---

(١) التفات إلى رسول الله ﷺ تسلية له وإعراضاً عنهم.

(٢) وهو الذي رجحه الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٤/١٥٨).

(٣) النحل: «٧٥».

(٤) يَشْطُر عذابهم أي يوزع العذاب بينهم.

(٥) مريم: «٨٢».

في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياهُ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[1].

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلامَ لِحُكْمِهِ بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحملِ على الكفر. ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ لِصَدِّهم. ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الْمُسْتَحَقِّ بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدينَ بِصَدِّهم.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني نبيَّهم، فإن نبيَّ كلِّ أمةٍ بُعِثَ منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمدُ[2] ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أُمَّتِكَ. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئناف، أو حال بإضمار قد. ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بياناً بليغاً. ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالةِ إلى السُّنَّةِ أو القياس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع. وإنما حِرمانُ المحروم من تفريطه. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصةً.

(٩٠) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوسُّط في الأمور، اعتقاداً كالتوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك والقولِ بالكسْب المتوسِّطِ بين مَحْضِ الجبر والقَدَرِ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسطِ بينَ البِطَالَةِ والترهُّب، وخُلُقاً كالْجُودِ المتوسِّطِ بينَ البخل والتبذير. ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إحسانِ الطاعات. وهو إما بحسبِ الكميةِ كالتطوع بالنوافل، أو بحسَب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]. ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ للمبالغة. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ عن الإفراط في متابعة

---

(١) إبراهيم: «٢٢».

(٢) وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (س٥/ ١٣٥).

(٣) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان. أخرجه البخاري (١/ ١١٤ رقم ٥٠) ومسلم (١/ ٣٦ ـ ٣٧ رقم ٨) والبغوي في شرح السنة (١/ ٨ ـ ٩ رقم ٢).

القوة الشَّهَوِيَّةِ كالزنا فإنه أقبحُ أحوال الإنسان وأشنعُها. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطِيهِ في إثارة القوة الغَضَبِيَّةِ. ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبُّرِ عليهم، فإنها الشَّيْطَنَةُ التي هي مُقْتَضَىٰ القوةِ الوهميةِ، ولا يوجد من الإنسان شرٌّ إلا وهو مُنْدَرِجٌ في هذه الأقسام صادرٌ بِتَوَسُّطِ إحدى هذه القِوَى الثلاثِ. ولذلكَ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هيَ أَجْمَعُ آية في القرآن للخير والشر[1]. وصارت سببَ إسلامِ عثمانَ بنِ مظعونٍ رضي الله تعالى عنه[2]. ولو لم يكن في القرآن غيرُ هذه الآيةِ لصدقَ عليه أنه تِبْيَانٌ لكل شيء وهدىً ورحمةٌ للعالمين. ولعلَّ إيرادَها عَقِبَ قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والْمَيْزِ بَيْنَ الخير والشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظُون.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يعني البيعةَ لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[3]. وقيل كل أمر يجب الوفاء به، ولا يلائمه قولُه: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ وقيل النذورُ. وقيلَ الإيمانُ بالله ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي أيمانَ البيعةِ أو مطلقَ الأيْمَانِ. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بِذِكْرِ الله تعالى، ومنه أُكِّدَ بقلب الواوِ همزةً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهِداً بتلك البيعةِ فإن الكفيلَ مُراعٍ لحال المكفولِ به رقيبٌ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأَيْمَانِ والعهود.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلَتْهُ، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِنَقَضَتْ أي نقضت غزلها من بعد إبرامٍ وإحكام. ﴿أَنكَٰثًا﴾ طاقاتٍ نُكِثَ فَتْلُهَا جَمْعُ نِكْثٍ، وانتصابُه على الحال مِنْ غَزْلِهَا أو المفعولِ الثاني لِنَقَضَتْ فإنه بمعنى صيَّرتْ. والمراد به تشبيهُ الناقضِ بِمَنْ هذا شأنُهُ، وقيل هي رِيطَةُ بِنْتُ سعدِ بن تَيْمٍ القرشيةِ[4] فإنها كانتْ خَرْقَاءَ تفعلُ ذلك. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ

---

(١) وهو جزء من أثر أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ٤٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٥٨ رقم ٢٣٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/١٦٣) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٠) نسبته إلى سعيد بن منصور، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٤٩) وفيه: عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح ـ والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، والطبراني، وأحمد عن ابن عباس (روح المعاني ١٤/ ٢١٩).

(٣) الفتح: «١٠».

(٤) ذكر البغوي في «معالم التنزيل» (٥/ ٣٩ ـ ٤٠) أن اسمها «رَيْطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم».
وانظر «زاد المسير» (٤/ ٤٨٥).

دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حالٌ من الضمير في ولا تكونوا أو في الجارِّ الواقع مَوْقِعَ الخبرِ، أي لا تكونوا مُتَشَبِّهِيْنَ بامرأةٍ هذا شأنُها متخذي أيمانِكم مَفْسَدَةً وَدَخَلاً بينكم، وأصلُ الدَّخَلِ ما يَدْخُلُ الشيءَ ولم يكن منه. ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ لأنْ تكونَ جماعةٌ أَزْيَدُ عَدَداً وأوفرُ مالاً من جماعة، والمعنى: لا تَغْدُرُوا بقومٍ لِكَثْرَتِكُم وقِلَّتِهِمْ أو لكثرة منابذتِهم وقُوَّتِهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائِهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءَهم. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير لأن تكون أمةٌ لأن بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أَرْبَىٰ لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعةِ رسوله أم تَغْتَرُّونَ بكثرةِ قريشٍ وشوكتِهم وقِلَّةِ المؤمنين وضَعْفِهِمْ. وقيلَ الضميرُ للرياء، وقيل للأمرِ بالوفاء. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفِقَةً على الإسلام. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلانِ. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق. ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالُ تَبْكِيتٍ ومجازاةٍ.

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريحٌ بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغة في قُبْحِ الْمَنْهِيِّ. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ أي عن محجَّةِ الإسلام. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها. والمراد أقدامُهم، وإنما وحَّد ونكَّر للدلالة على أن زَلَلَ قَدَمٍ واحدة عظيم فكيف بأقدامٍ كثيرة؟! ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بِصَدِّكم عن الوفاء أو صَدِّكُم غيرَكم عنه، فإنَّ مَنْ نَقَضَ البيعةَ وارتدَّ جعلَ ذلكَ سُنَّةً لغيرِهِ. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ولا تستبدِلُوا عَهْدَ الله وبَيْعَةَ رسوله ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَرَضاً يسيراً، وهو ما كانت قريشٌ يَعِدُونَ لضعفاءِ المسلمين ويشترطونَ لهم على الارتدادِ. ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدونكم. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أَعْراض الدنيا. ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ويفنى. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمة. ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفدُ، وهو تعليلٌ للحكم السابق ودليلٌ على أن نعيمَ أهلِ الجنة باقٍ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاقِّ التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصمٌ بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاءٍ أحسنَ من أعمالهم.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيَّنَهُ بالنوعين دَفْعاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتدادَ بأعمال الكَفَرَةِ في استحقاقِ الثواب، وإنما المتوقَّعُ عليها تخفيفُ العذاب[١]. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عَيْشاً طيباً فإنه إنْ كانَ موسِراً فظاهرٌ وإن كان معسِراً يطيبُ عيشُه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقُّعِ الأَجْرِ العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كانَ معسِراً فظاهرٌ وإن كان موسِراً لم يَدَعْهُ الحِرْصُ وخَوْفُ الفواتِ أن يتهنأ بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة[٢].

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فاسأل اللهَ أنْ يعيذَك من وَسَاوِسَه لئلا يوسوسك في القراءة. والجمهورُ على أنه للاستحباب[٤]. وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكمَ المترتِّبَ على شرطٍ يتكرر بِتَكَرُّرِهِ قياساً. وتعقيبُه لِذِكْرِ العمل الصالح والوعدِ عليه إيذانٌ بأنَّ الاستعاذةَ عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أَقْرَأَنِيهِ جبريلُ عن القلمِ عنِ اللوحِ المحفوظ»[٥].

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تَسَلُّطٌ وَوِلاَيَةٌ. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامرَهُ ولا يَقْبَلُونَ وَسَاوِسَهُ إلا فيما يحتقرون على نُدُورٍ وغَفْلَةٍ، ولذلك أُمِرُوا بالاستعاذة، فَذِكْرُ السلطنةَ بعدَ الأمر بالاستعاذةِ لئلا يُتَوَهَّمُ منهُ أنَّ له سلطاناً[٦].

---

(١) وإيثار إيراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه في سلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (س٥/ ١٣٩).

(٢) والجمع في الضمائر العائدة إلى الموصول «مَنْ» لمراعاة جانب المعنى، كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ. وإيثار ذلك على العكس لأن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية، ووقوع ما في حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للإفراد.

(٣) المائدة: «٦».

(٤) قال ابن حجر في «جامع البيان» (٨/ ١٤/ ١٧٣) «وليس قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجمع أنَّ من قرأ القرآن، ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل قراءته أو بعدها، أنه لم يضيع فرضاً واجباً».
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٩٠) «والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها».

(٥) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦١) «رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخه أبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود. ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي» هـ.

(٦) وفي التعرض لصفة الربوبية عِدَة كريمة بإعاذة المتوكلين (س٥/ ١٤٠).

إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ بالله أو بسبب الشيطان[١]. ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخةَ مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح فَلَعَلَّ ما يكون مصلحةً في وقتٍ يصيرُ مفسدةً بعدَه فينسخُه، وما لا يكون مصلحةً حينئذ يكون مصلحةً الآنَ فَيُثْبِتُهُ مكانَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الكَفَرَةُ. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ مُتَقَوِّلٌ على الله تأمر بشيء ثم يبدو لكَ فتنهى عنه وهو جوابُ إذا. والله أعلم بما ينزلُ اعتراضٌ لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيهِ على فساد سَنَدِهِم، ويجوز أن يكون حالاً[٢]. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمةَ الأحكامِ ولا يميزونَ الخطأَ من الصواب[٣].

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدُس وهو الطُّهْرُ كقولهم: حَاتَمُ الجودِ[٤]. وقرأ ابنُ كثير روحُ القُدْسِ بالتخفيف. وفي يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ تنبيهٌ على أنَّ إنزالَه مدرَّجاً على حَسَبِ المصالح بما يقتضي التبديلَ. ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلْتَبِساً بالحكمة[٥]. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِيُثَبِّتَ اللهُ الذينَ آمنوا على الإيمان بأنه كلامُه، وأنهم إذا سمعوا الناسخَ وتدبَّروا ما فيه من رعايةِ الصلاحِ والحكمة رسختْ عقائدُهم واطمأنتْ قلوبُهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، وهما معطوفانِ على محل لِيُثَبِّتَ أي تثبيتاً وهدايةً وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضدادِ ذلك لغيرهم. وقرىء لِيُثْبِتَ بالتخفيف.

(١٠٣) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يَعْنُونَ جَبْرَاً الروميَّ غلامَ عامرِ بنِ الحضرمي. وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعانِ السيوفَ بمكةَ ويقرآنِ التوراةَ والإنجيلَ، وكانَ الرسول ﷺ يمر عليهما ويَسْمَعُ ما يقرآنِه. وقيل عائشاً غلامَ حُوَيْطِبِ بن عبدِالْعُزَّى قد أسلم وكان صاحبَ كُتُبٍ. وقيل سلمانُ

---

(١) وتكرير الموصول «الذين» للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه (س٥/ ١٤٠).

(٢) وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان بأن ذلك كفوة ناشئة عن نزغات الشيطان وأنه وليهم (س٥/ ١٤١).

(٣) وإسناد هذا الحكم لأكثرهم لأن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عناداً (س٥/ ١٤١).

(٤) أي للمبالغة في ذلك الوصف كأنه طبع منه.

(٥) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه ـ ﷺ ـ ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (س٥/ ١٤١).

الفارسيُّ[1]. ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولَهم عن الاستقامة إليه، مأخوذٌ من لَحْدِ القبر. وقرأ حمزة والكسائي يَلْحَدُونَ بفتح الياء والحاء، لسان أعجمي غيرُ بيِّنٍ. ﴿وَهَـٰذَا﴾ وهذا القرآن. ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملتان مُسْتَأْنَفَتَانِ لإبطال طَعْنِهم، وتقريره يَحْتَمِلُ وجهين أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأملٍ، فكيف يكون ما تلقفه منه؟! وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يَتَلَقَّفْ منه اللفظَ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجزٌ باعتبار المعنَى فهو معجز مِنْ حيثُ اللفظُ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تَعَلُّمُهَا إلا بملازمة مُعَلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدةً متطاولَةً، فكيف تَعَلَّمَ جميعَ ذلكَ من غلامٍ سوقيٍّ سمعَ منه في بعض أوقاتِ مرورِهِ عليه كلماتٍ أعجميةً لعلهما لم يعرفا معناها؟! وطَعْنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكةِ دليلٌ على غاية عَجْزِهِم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يصدِّقون أنها من عند الله. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة. وقيل إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، هدَّدَهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماطَ شُبْهَتهم وردَّ طَعْنَهُمْ فيه، ثم قَلَبَ الأمرَ عليهم فقال:

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافونَ عِقَاباً يردعُهم عنه. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذين كفروا، أو إلى قريش. ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافاتِ أعظمُ الكذِبِ، أوِ الذينَ عادتُهم الكذبُ لا يصرفهم عنه دِينٌ ولا مروءةٌ، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنتَ مفترٍ إنما يعلِّمه بَشَرٌ.

(١٠٦) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض، أو مِنْ أولئك، أو مِنْ الكاذبونَ. أو مبتدأ خبرُه محذوف دلَّ عليه قولُه: ﴿فعليهم غضب﴾. ويجوز أن ينتصبَ بالذمِّ، وأن تكون مَنْ شرطيةً محذوفةَ الجوابِ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الافتراءِ أو كلمةِ الكفر، استثناءٌ متصلٌ لأن الكفرَ لغةً يعمُّ القولَ والعقْدَ كالإيمان. ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ لم تتغيرْ عقيدتُه. وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب. ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده

---

(١) تحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد.
وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه ـ مع كونه أدخل في ظهور كذبهم ـ للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائناً من كان (س٥/ ١٤١).

وطابَ بهِ نَفْساً. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أَعْظَمَ مِنْ جُرْمِهِ. رُوِيَ أنَّ قريشاً أَكْرَهُوا عمَّاراً وأَبَوَيْهِ ياسِراً وسُمَيَّةَ على الارتدادِ، فَرَبَطُوا سُمَيَّةَ بينَ بَعِيْرَيْنِ وَجِيْءَ بِحَرْبَةٍ في قُبُلِهَا وقالوا: إنكِ أسلمتِ مِن أجلِ الرجالِ فَقُتِلَتْ، وقتلوا ياسراً وهما أولُ قَتِيْلَيْنِ في الإسلام، وأعطاهم عَمَّارٌ بلسانه ما أرادوا مُكْرَهَاً فقيل: يا رسول الله إنَّ عماراً كَفَرَ فقال: «كلاَّ إن عماراً مَلِيءٌ إيماناً مِنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ، واختلطَ الإيمانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ» فأتى عمارٌ: رسولَ الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «مَا لَكَ؟ إنْ عادوا لكَ فَعُدْ لهم بما قُلْتَ»[1]. وهو دليل على جواز التكلُّم بالكفر عند الإكراهِ، وإنْ كان الأفضل أن يتجنَّبَ عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه، لما رُوِيَ أنَّ مسيلمةَ أخذَ رَجُلَيْنِ فقال لأَحَدِهِمَا: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنتَ أيضاً، فخلاَّه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أَصَمُّ، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتلَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له»[2].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثَرُوهَا عليها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثباتَ الإيمان ولا يعصمهم من الزَّيْغِ.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦٢): هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند» اهـ.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٤/ ١٨١ ـ ١٨٢) عن أبي مالك وقتادة مرسلاً بسند صحيح. أن الآية نزلت في عمار بن ياسر. وهذا مذهب جمهور المفسرين.
وانظر «الدر المنثور» (٥/ ١٧٢) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١٨١) والمستدرك للحاكم (٢/ ٣٥٧).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٦ رقم ٢٦٣) «وأخرج ابن أبي شيبة قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن ـ مرسلاً ـ أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال: لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ فأهوى إلى أذنيه، وقال: إني أصم فأعاد عليه فقال مثله فأمر بقتله. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. فأرسله. فأتى النبي ﷺ فقال: هلكت. فقال: ـ وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه، فقال: «أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة».
وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» عن معمر ـ مفصلاً ـ قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه.
وذكر الواحدي في «المغازي» أن اسم المقتول: حبيب بن زيد عم عباد بن تميم واسم الآخر: عبدالله بن وهب الأسلمي. قال: وكانا في السافة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار» هـ.

(١٠٨) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فَأَبَتْ عن إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أَغْفَلَتْهُم الحالةُ الراهنة عن تَدَبُّرِ العواقب.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيَّعوا أعمارهم وصرفُوها فيما أَفْضَى بهم إلى العذاب المخْلِد.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي عُذِّبُوا كعمارٍ رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، وثم لِتَبَاعُدِ حالِ هؤلاء عن حال أولئك. وقرأ ابن عامر فَتَنُوا بالفتح، أي من بعد ما عذَّبُوا المؤمنينَ كالحضرميِّ أَكْرَهَ مولاهُ جَبْراً حتى ارتدَّ ثمَّ أسلم وهاجر. ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاقِّ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر[1]. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا قبل. ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم مجازاةً على ما صنعوا بَعْدُ.

(١١١) ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب برحيم أو باذْكُرْ. ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأنُ غيرِها فتقولُ نفسي نفسي. ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ جزاءَ ما عَمِلَتْ[2]. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُنْقَصُونَ أُجُورَهم.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فَأَبْطَرَتْهُمُ النعمةُ فكفروا فأنزل الله بهم نقمته، أو لِمَكَّةَ. ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ لا يُزْعِجُ أهلَها خوفٌ. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتُها[3]. ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً. ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بنعمه، جَمْعُ نِعْمَةٍ

---

(١) وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعاً له (س٥/ ١٤٤).

(٢) وإيثار إظهار النفس «كل نفس» على الإضمار لزيادة التقرير، وللإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد (س٥/ ١٤٤).

(٣) وتغيير النظم عن صفتها الأولى «كانت آمنة..» لأن إتيان الرزق متجدد، وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (س٥/ ١٤٥).

على تركِ الاعتدادِ بالتاء كَدِرْعٍ وأَدْرُعٍ، أو جَمْعُ نِعَمٍ كَبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ[١]. ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراكِ أثر الضرر، واللباسَ لما غَشِيَهُم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقةَ عليه بالنظر إلى المستعَارِ له كقول كُثَيِّرٍ:

عمرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غلقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المالِ

فإنه استعار الرِّداءَ للمعروف لأنه يصون عِرْضَ صاحبه صَوْنَ الرداء لما يلقى عليه، وأضاف إليه الغَمْرَ الذي هو وَصْفُ المعروفِ والنَّوالِ لا وَصْفَ الرداء نظراً إلى المستعَارِ له، وقد يُنْظَر إلى المستعَارِ كقوله:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرو بن بَكْرِ

لِي الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَت يَمِينِي ودُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجَرْ نَظَراً إلى المستعار. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم[٢].

(١١٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكةَ عادَ إلى ذِكْرِهِم بعد ما ذَكَرَ مِثْلَهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي حالَ التباسِهم بالظلم والعذاب ما أصابهم مِنَ الْجَدَبِ الشديد، أو وقعة بدر.

(١١٤) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أَمَرَهُم بِأَكْلِ ما أحلَّ الله لهم وشُكْرِ ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدَّدَهم عليه بما ذَكَرَ من التمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم، صَدّاً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَمَّا أَمَرَهُم بتناولِ ما أحلَّ لهم عدَّدَ عليهم محرماتِه ليعلم أنَ ما عداها حلٌّ لهم، ثمَّ أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائِهم فقال:

---

(١) وأنْعُم جمع قلة، وأوثر جمع القلة للتهويل، أي إذا كان كفران نعمة قليلة هذا جزاؤه، فكيف بكفران نعم كثيرة؟.

(٢) وتقديم الجوع على الخوف لكونه أنسب بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق وإيقاع الإذاقة للقرية للمبالغة.. وفي صيغة الصنعة إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم (س٥/ ١٤٥).

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾[1] الآية، ومقتضى سياقِ الكلام وتصدير الجملة بإنما حَصْرَ المحرماتِ في الأجناس الأربعة إلا ما ضَمَّ إليه دليل: كالسباع والحُمُرِ الأهلية. وانتصاب الكذب بلا تقولوا، وهذا حلال وهذا حرام بدل منه، أو متعلَّقٌ بِتَصِفُ على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تَصِفُه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعولُ لا تقولوا، والكذب مُنْتَصِبٌ بتصف وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لِوَصْفِ ألسنتكم الكذبَ أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، وَوَصْفُ ألسنتِهم الكذبَ مبالغةً في وصف كلامهم بالكذب كأنَّ حقيقةَ الكذب كانتْ مجهولةً وألسنتُهم تصفُها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عُدَّ مِنْ تصحيح الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمالَ وعينُها تصف السحر. وقُرِئَ الكذبِ بالجر بدلاً من ما، والكذِبُ جَمْعُ كَذُوب أو كَذَّابٌ بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذمِّ أو بمعنى الكَلِم الكواذب. ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تعليل لا يتضمن الغرضَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لمّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نَفَىٰ عنهم الفلاحَ وبيَّنَه بقوله:

(١١٧) ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾[2] ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرَّمنا. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم. ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعمَّ الجهلُ بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوءُ يعمُّ الافتراءَ على الله وغيرَه. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ من بعد . . . . . .

---

(١) الأنعام: «١٣٩».

(٢) الأنعام: «١٤٦».

التوبة[١]. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقةً في أشخاص كثيرة، كقوله:

لَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

وهو رئيسُ الموحِّدينَ وقدوةُ المحقِّقِينَ الذي جادل فِرَقَ المشركين وأبطل مذاهبهم الزائغةَ بالحججِ الدامغة، ولذلك عقب ذِكْرَهُ بتزييف مذاهبِ المشركين مِنَ الشرك والطعن في النبوةِ وتحريم ما أحلَّه، أو لأنه كان وحدَه مؤمناً وكان سائرُ الناس كفاراً. وقيل هي فِعْلَةٌ بمعنى مفعول كالرحلة والنُّخْبةِ، مِنْ أَمَّهُ إذا قصَدَهُ أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢] ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ ذُكِرَ بلفظ القلَّةِ للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوة. ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله.

(١٢٢) ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حَبَّبَهُ إلى الناس حتى أن أرباب المِلَلِ يَتَوَلَّوْنَهُ ويُثْنُونَ عليه، ورَزَقَه أولاداً طيبةً وعُمْراً طويلاً في السَّعةِ والطاعة[٣]. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لِمَنْ أهل الجنة كما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٤].

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد. وثم إما لتعظيمه والتنبيه على أن أَجَلَّ ما أُوْتِيَ إبراهيمُ اتباعَ الرسول عليه الصلاة والسلام مِلَّتَهُ، أو لتراخي أيامه[٥]. ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيرادِ الدلائل مرةً بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حَسَبِ فَهْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوةَ الموحِّدِينَ.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ تعظيمُ السَّبْتِ، أو التخلي فيه للعبادة. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود أَمَرَهُمْ موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يومَ الجمعة فَأَبَوْا وقالوا: نريد

---

(١) تكرير قوله تعالى «إن ربك» لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه (س٥/ ١٤٨).

(٢) البقرة: «١٢٤».

(٣) والالتفات إلى التكلم «وآتيناه» لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام (س٥/ ١٤٩).

(٤) الشعراء: «٨٣».

(٥) وإيراد «ثم» التي هي للتراخي في الرتبة للإيذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (س٥/ ١٥٠).

يوم السبت لأنه تعالى فرغَ فيه مِنْ خَلْقِ السموات والأرض، فألزمهم الله السبت وشدَّد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جُعِلَ وَبَالُ السَّبتِ وهو المسخُ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصَّيْدَ فيه تارةً وحرموه أخرى واحتالوا له الحيلَ، وذَكْرُهُم هنا لتهديد المشركين كَذِكْرِ القريةِ التي كفرتْ بِأَنْعُمِ الله[1]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقُّه.

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٥) ﴿ادْعُ﴾ مَنْ بُعِثْتَ إليهم[2]. ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام. ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة الْمُحْكَمَةِ، وهو الدليل الموضِّحُ للحق المزيحُ للشبهة. ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأُولى لدعوة خواصِّ الأمة الطالبينَ للحقائق والثانية لدعوة عَوَامِّهم. ﴿وَجَادِلْهُم﴾ وجَادِلْ مُعَانِدِيهِم. ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسنُ طرقِ المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر، فإنَّ ذلك أنفعُ في تسكين لَهَبِهِم وتبيينِ شَغَبِهِم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بلِ اللهُ أعلم بالضالِّينَ والمهتدين وهو المجازي لهم[3].

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ﴾ لمّا أمره بالدعوة وبيَّنَ له طُرُقَهَا أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع مَنْ يناصِبُهم، فإن الدعوة لا تنفكُّ عنه من حيثُ إنها تتضمنُ رَفْضَ العادات وتركَ الشهوات والقَدْحَ في دين الأسلافِ والحكمَ عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مُثِّلَ به فقال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بسبعينَ

---

(١) بناء الفعل «جُعل» للمفعول للجري على سنن الكبرياء وللإيذان بعدم الحاجة للتصريح بالفاعل.
وعبر عن ذلك بالجعل موصولاً بكلمة «على» وعبر عنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي إلى العذاب، وبكونه معللاً باختلافهم في شأنه قبل الوقوع إيثاراً له على ما أمر الله تعالى به واختياراً للعكس (س٥/ ١٥٠).

(٢) وحذف المفعول للتعميم.

(٣) تقديم الضالين لأن سياق الكلام فيهم.
وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لأنه تغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض، بخلاف الاهتداء الذي هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جيء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات.
وتكرير «هو أعلم» للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب (س٥/ ١٥١).

مكانَك»[١]، فنزلت، فكفَّرَ عن يمينه. وفيه دليل على أن للمقتصِّ أنْ يماثلَ الجاني وليس له أنْ يجاوزَه. وحثَّ على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجْهِ الآكَدِ بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي الصبر. ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمنتقمين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

(١٢٧) ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فُعِلَ بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضَيْقٍ صدرٍ مِنْ مَكْرِهِم. وقرأ ابن كثير في ضِيْقٍ بالكسر هنا وفي النمل[٢] وهما لغتان كالقولِ والقيلِ، ويجوز أن يكون الضيق تخفيفَ ضَيِّقَ.

(١٢٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ المعاصي. ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يُحَاسِبْه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإنْ ماتَ في يومٍ تلاها أو ليلةٍ كان له من الأجر كالذي ماتَ وأحسنَ الوصيةَ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار (٢/٣٢٦ رقم ١٧٩٥) في سياق أطول عن أبي هريرة وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/١١٩) وقال «رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف» هـ.

● وأخرج الترمذي (٥/٢٩٩ رقم ٣١٢٩) عن أُبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم. قال: فلما كان يوم فتح مكة، فأنزل الله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثلِ ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» [النحل: ١٢٦].

فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ «كُفُّوا عن القوم إلاّ أربعة». وهو حديث حسن.

(٢) النمل: «٧٠».

(٣) حديث موضوع، أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٣٩).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

سورةُ بني إسرائيلَ مكيةٌ،

وقيلَ إلا قولَه تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾[1] إلى آخر ثمانِ آياتٍ، وهي مائة وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ سبحانَ اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه يُسْتَعْمَلُ عَلَماً له فَيُقْطَعُ عن الإضافة وَيُمْنَعُ عنِ الصَّرْفِ قال:

فَخْرُهُ قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي سبحانَ مِنْ علقمةَ الفاخرِ

وانتصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهاره، وتصديرُ الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذُكِرَ بعدُ. وأَسْرَى وَسَرَى بمعنى. وليلاً نُصِبَ على الظرفِ، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مُدَّةِ الإسراء. ولذلك قرىء من الليل، أي بعضُه كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾[2]. ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بِعَيْنِهِ لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بَيْنَا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عندَ البيت بينَ النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبُراقِ»[3]. أو من الحرمِ، وسمَّاه المسجدَ الحرامَ لأنه كلُّه مسجدٌ أو لأنه محيط به أو ليطابِقَ

(١) الآية: «٧٣».

(٢) الإسراء: «٧٩».

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٢ رقم ٣٢٠٧) و(٧/ ٢٠١ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١/ ١٥٠ رقم ٢٦٤). من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

المبدأُ الْمُنْتَهَى، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيتِ أمِّ هانىء بعد صلاة العشاء فَأُسْرِيَ به ورجَع من ليلته، وقصَّ القصةَ عليها وقال: «مُثِّلَ لي الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فصليتُ بهم» ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ الحرام وأخبر به قريشاً، فتعجَّبوا منه استحالةً، وارتدَّ ناسٌ ممن آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدقَ، فقالوا: أَتُصَدِّقُهُ على ذلك، قال: إني لأُصَدِّقُهُ على أَبْعَدَ من ذلك فَسُمِّيَ الصِّدِّيقُ. واسْتَنْعَتَهُ طائفةٌ سافروا إلى بيت المقدس فَجُلِّيَ له فَطَفِقَ ينظر إليه وينعتُه لهم، فقالوا: أما النعتُ فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عِيْرِنا، فأَخْبَرَهم بعددِ جمالها وأحوالها وقال: «تَقْدُمُ يومَ كذا مع طلوعِ الشمس يقدمُها جَمَلٌ أَوْرَقُ» فخرجوا يشتدون إلى الثنيةِ فصادفوا العِيْرَ كما أَخْبَر، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحرٌ مبين[1]. وكان ذلك قَبْلَ الهجرة

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٧ رقم ٢٧١) «ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.
ثم رأيته من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم في الإكليل والبيهقي عنه. لكن لم يسق لفظه.
وقد رواه النسائي (في التفسير رقم: ٣٠٥) ـ باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس».
ـ قلت: رجاله رجال الشيخين، غير محمد بن عبدالأعلى وهو ثقة أخرج له مسلم كما في «رجال صحيح مسلم» (رقم: ١٤٧٧). وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٣٧٤) مطولاً، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠ رقم ٣٩٣/ ٢٧٢٠) وابن جرير في «تهذيب الآثار» مسند عبدالله بن عباس (١/ ٤٠٨ رقم ١٧) كلهم من حديث ثابت عن هلال بن خباب ـ به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٦ ـ ٦٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن هلال بن خباب، قال يحيى القطان: إنه تغير قبل موته، وقال: يحيى بن معين: لم يتغير ولم يختلط، ثقة مأمون، ورواه أبو يعلى...» هـ.
وذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ١٦ ـ ١٧) عن المسند وقال «وهو إسناد صحيح» ـ وأورده ابن سعد ـ في الطبقات (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥) من طريق أبي مرة مولى عقيل، عنهما نحوه ـ وأبو يعلى ـ كما في «المجمع» (٩/ ٤١ ـ ٤٢) مختصراً على تسمية أبي بكر الصديق ـ والطبراني (في الكبير (٢٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤ رقم ١٠٥٩) من طريق عكرمة عنها نحوه. وأخرجه مختصراً على تسمية أبي بكر وهو متروك كما في «المجمع» (٩/ ٤٢) ـ من حديث أم هانىء مطولاً» هـ.
ـ قلت: وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ٢) من حديث أم هانىء لكنه من طريق أبي صالح مولاها عنها مختصراً.
وورد ذكر تسمية (الصديق) من حديث عائشة عن الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢ ـ ٦٣) وعنه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦١) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٠) بسند صحيح عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن مرسلاً.
ـ قلت: ومن الملاحظ أن ابن حجر رحمه الله اقتصر في تخريج هذا الحديث على المصادر المذكورة، مع أن ما فيه مخرج في «الصحيحين» وغيرها.
فأخرج البخاري (٧/ ١٩٦ رقم ٣٨٨٦) و(٨/ ٣٩١ رقم ٤٧١٠) ومسلم (١/ ١٥٦ رقم ٢٧٦/ ١٧٠) من حديث جابر بن عبدالله أن رسولَ الله ﷺ قال «لما كذبتني قريشٌ، قمتُ في الحِجْر فجلا الله لي بيت المقدس. فطفقتُ أخبِرُهم عن آياتِهِ وأنا انظر إليه».
=

بِسَنَةٍ[١]. واخْتُلِفَ في أنه كان في المنام أو في اليقظَةِ بروحه أو بجسدِه، والأكثرُ على أنه أُسْرِيَ بجسدِه إلى بيت المقدس، ثم عُرِجَ به إلى السموات حتى انتهى إلى سِدْرَةِ المنتَهَى، ولذلك تعجَّبَ قريشٌ واستحالوه، والاستحالةُ مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قُرْصِ الشمس ضِعْفُ ما بينَ طرفي كُرَةِ الأرض مائةً ونيفاً وستينَ مرةً، ثم إن طرفَها الأسفلَ يصل موضِعَ طرفِها الأعلى في أقلَّ من ثانية، وقد بُرْهِنَ في الكلام أن الأجسام متساوية في قَبول الأَعْراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثلَ هذه الحركةِ السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مَهْبِطُ الوحي وَمُتَعَبَّدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لَدُنْ موسى عليه الصلاة والسلام. ومحفوف بالأنهار والأشجار. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ كَذَهَابِهِ في بُرْهَةٍ من الليل مسيرةَ شهرٍ ومشاهدته بيتَ المقدس وَتَمَثُّلِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام له ووقوفِهِ على مقاماتِهم. وصَرْفُ الكلامَ من الغيبةِ إلى التكلُّم لتعظيم تلك البركاتِ والآياتِ. وقُرِىءَ لِيُرِيَهُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﷺ. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك[٢].

(٢) ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أنِ افعلْ كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على لأَنْ لا يتخذوا. ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ربّاً تَكِلُونَ إليهِ أمورَكم غيري.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ على الاختصاصِ أو النداء إن قُرِىءَ أن لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً، أو على أنه أحدُ مفعولَيْ لا تتخذوا ومِنْ دوني حالٌ من وكيلاً فيكون كقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[٣]. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدلٌ من وَاوِ تتخذوا، وذِرِّيَّةَ بكسرِ الذال. وفيه تذكيرٌ بإنْعَام الله تعالى عليهم في إنجاءِ آبائهم من الغرقِ بِحَمْلِهِم مع نوح عليه السلام في السفينة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحاً عليه السلام. ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماءٌ بأن إنجاءَه ومَنْ معه كان ببركة شُكْرِه، وحثٌّ للذريةِ على الاقتداءِ به. وقيلَ الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج مسلم (١/ ١٥٦ رقم ٢٧٨/ ١٧٢) من حديث أبي هريرة بنحو ما تقدم عندها وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣ ـ ٢٦) تحت عنوان: ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء.

(١) قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود فإن في ذلك اختلافاً كثيراً يزيد على عشرة أقوال. . .» الفتح (٧/ ٢٠٣).

(٢) لم يذكر ههنا العروج بالنبي ﷺ إلى السماء ـ كما ذكر في سورة النجم ـ وذلك تقريباً للإسراء إلى قلوب السامعين (س٥/ ١٥٥).

(٣) آل عمران: «٨٠».

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

(٤) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مَقْضِيّاً مَبْتُوتاً. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة. ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوف. أو قضينا، على إجراء القضاءِ المبتوتِ مجرى القَسَم. ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفةُ أحكامِ التوراة وقتلُ شعياءَ وقيل أرمياءَ، وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقَصْدُ قتلِ عيسى عليهم السلام. ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولتستكبِرُنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لَتَظْلِمُنَّ الناسَ.

(٥) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وغدُ عقاب أولاهما. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ بُخْتُنَصَّر عاملٌ لهراسفَ على بابلَ وجنوده. وقيل جالوتُ الجزريُّ. وقيل سنْحاريبُ من أهل نينوى. ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. ﴿فَجَاسُوا۟﴾ فترددوا لطلبكم. وقرىء بالحاء المهملة، وهما أخوان. ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وَسَبَوْا صِغارَهم وحرَّقوا التوراةَ وخربوا المسجدَ. والمعتزلةُ لما مَنَعُوا تسليطَ اللهِ الكافرَ على ذلك أوَّلُوا البعثَ بالتخلية وعدمِ المنع. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد عقابهم لابدَّ أنْ يُفْعَلَ.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الدولةَ والغلبةَ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بُعِثُوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلوب بِهْمِنَ بنِ اسفنديارٍ لما وَرِثَ الملِكُ من جدِّهِ كشناسفِ بنِ لَهْراسفِ شفقةً عليهم، فردَّ أَسْرَاهُم إلى الشام ومَلَّكَ دانيالَ عليهم فاستولوا على مَنْ كان فيها من أتباعِ بُخْتُنَصَّرٍ، أو بأن سلَّط الله داودَ عليه الصلاة والسلام على جالوتَ فقتله. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ مما كنتم. والنفير مَنْ يَنْفُرُ معَ الرجلِ من قومه، وقيل جَمْعُ نَفَرٍ وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ثوابَه لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فإنَّ وبالَه عليها، وإنما ذَكَرَها باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسوؤوا وجوهَكم أي يجعلوها باديةَ آثارِ المساءةِ فيها، فحُذِف لدلالة ذِكْرِهِ أولاً عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر لِيَسُوءَ على التوحيد، والضميرُ فيه للوعد أو لِلْبَعْثِ أو لله، ويُعَضِّدُه قراءةُ الكسائي بالنون[1]. وقرىء لنَسُوأَن بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، ولَنَسُوأَن بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا، واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمحذوف هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ لِيُهْلِكوا. ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مُدَّةَ عُلُوِّهِم. ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفُرْسَ مرةً أخرى فغزاهم مِلِكُ بابلَ من ملوك الطوائف اسمه

---

(١) قراءة الكسائي «لِنَسُوءَ».

جودرز، وقيل حردوسُ، قيل دخلَ صاحبُ الجيش مذبحَ قرابينِهم فوجدَ فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقْبَلْ مِنَّا فقال: ما صَدَقُوني فقَتَل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأِ الدمُ، ثم قال إن لم تَصْدُقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنه دمُ يَحْيَى فقال لمثل هذا ينتقم ربُّكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذنِ الله تعالى قبل أن لا أبقيَ أحداً منهم فهدأ.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبةً أخرى. ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم. وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصدِ قَتْلِهِ، فعادَ الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قُرَيْظَةَ وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ مَحْبَساً لا يقدرون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما يُبْسَطُ الحصيرُ[١].

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويَبْشُرُ بالتخفيف.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على أن لهم أجراً كبيراً، والمعنى أنه يبشر المؤمنينَ ببشارتين ثوابِهم وعقابِ أعدائِهم، أو على يبشِّر بإضمار يُخْبِرُ[٢].

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو اللهَ تعالى عند غضبه بالشرِّ على نفسه وأهله وماله، أو يدعوه بما يَحْسَبُهُ خيراً وهو شر. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدمُ عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سُرَّتِهِ ذهب لينهضَ فسقطَ[٣]. روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودةَ بنتِ زِمعةَ، فرحمته لأَنِينِهِ فَأَرْخَتْ كتافَه فهربَ، فدعا عليها بقطعِ اليدِ ثم ندمَ، فقال عليه السلام: «اللهم إنما أنا بَشَرٌ فمن دعوتُ عليه فاجعل دعائي رحمةً له» فنزلتْ[٤]. ويجوز أن يريدَ بالإنسان الكافرَ وبالدعاء استعجالَه بالعذاب استهزاءً

---

(١) وإنما عُدِل عن أن يقال: وجعلنا جهنم لكم، تسجيلاً على بالعوْد وذماً لهم بذلك وإشعاراً بعلة الحكم (س٥/١٥٨).

(٢) وتخصيص الآخرة بالذكر «لا يؤمنون بالآخرة» من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالإيمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل «أعتدنا لهم عذاباً أليماً» (س٥/١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (١٥/٤٨) وفي سنده بشر بن عمارة وهو ضعيف كما في التقريب (١/١٠٠).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٩٧ رقم ٢٧٣) «لم أجده من هذه الجهة وقرأ أخرجه الواقدي في المغازي ـ (٢/٥٥٤ ـ ٥٥٥) ـ من رواية ذكوان عن عائشة «أن النبي ﷺ دخل عليها بأسير، وقال لها: احتفظي به. قالت:

كقوول النضرِ بنِ الحارث: اللهم انصر خيرَ الحِزْبَيْنِ، اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك الآية. فَأُجِيبَ له فضربَ عنقُه صَبْراً يومَ بدر.

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ تدلأنِ على القادر الحكيم بتعاقبهما على نَسَقٍ واحد بإمكان غيره. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي الآية التي هي الليلُ بالإشراق، والإضافةُ فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مُبَصِّرَةً للناس من أبصره فَبَصُرَ، أو مُبْصِراً أهلَه كقولهم: أَجْبَنَ الرجلُ إذا كان أهله جبناءَ. وقيل الآيتان القمرُ والشمسُ، وتقدير الكلام وجعلنا نَيِّرَيْ الليلِ والنهار آيتين، أو جعلنا الليل والنهار ذَوَيْ آيتين. ومَحْوُ آيةِ الليل التي هي القمرُ جَعْلُها مظلمةً في نفسها مطموسةَ النور، أو نَقْصَ نورُها شيئاً فشيئاً إلى الْمَحَاقِ، وجَعْلُ آيةِ النهارِ التي هي الشمس مبصرةً جَعْلُها ذاتَ شعاع تُبْصَرُ الأشياءَ بضوئها[1]. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسبابَ معاشِكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم[2]. ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ باختلافهما أو بحركاتهما. ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وجنس الحساب. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا. ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ بيناه بياناً غيرَ مُلْتَبِسٍ.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عملَه وما قُدِّرَ له كأنه طُيِّرَ إليه مِنْ عُشِّ الغيب وَوَكْرِ القَدَرِ، لمَّا كانوا يتيمّنون ويتشاءمون بِسُنُوحِ الطائر وبروحه اسْتُعِيرَ لما هو سببُ الخير والشر مِنْ قدرِ الله تعالى وعملِ العبد. ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ لزومَ الطَّوقِ في عُنُقِهِ. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صحيفة عمله أو نَفْسِهِ المنتقشةِ بآثار أعماله، فإنَّ الأعمال الاختياريةَ تُحْدِثُ في النفس أحوالاً ولذلك يفيدُ تكريرُها لها مَلَكَاتٍ، ونَصْبُهُ بأنه مفعول، أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر، ويعضِّدُه قراءةُ يعقوبَ ويَخْرُجُ مِنَ خرجَ ويخرج، وقرىء ويُخْرِجُ أي الله عز وجل. ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ لكشف الغطاء. وهما صفتان للكتاب، أو يلقاه صفةٌ ومنشوراً حال من مفعوله. وقرأ ابن عامر يُلَقَّاهُ على البناء للمفعول من لَقَّيْتُه كذا.

= فلهوتُ مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه. فقلت والله ما أدري. فقال: قطع الله يدك، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا أحمد بن صالح. حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا» ١هـ.

(١) وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة (س٥/ ١٥٩).

(٢) وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير سوىٰ الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية (س٥/ ١٦٠).

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

(١٤) ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ على إرادة القول. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كفى نفسُك، والباء مزيدةٌ، وحسيباً تمييز، وعلى صِلتِه. لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم وضريبِ القداحِ بمعنى ضاربُها مِنْ حَسَبَ عليه كذا، أو بمعنى الكافي فَوُضِعَ موضعَ الشهيد، لأنه يكفي المدعي ما أهمَّه. وتذكيرُه على أن الحساب والشهادة مما يتولاه الرجال، أو على تأويل النفس بالشخص.

(١٥) ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ لا يُنجي اهتداؤُه غيرَه ولا يُرْدي ضلالُه سواهُ. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ ولا تحمل نفس حاملةٌ وزراً وِزْرَ نفسٍ أخرى، بل إنما تحملُ وِزْرَها. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يُبَيِّنُ الحُجَجَ ويُمَهِّدُ الشرائع فيلزمُهم الحجَّةَ، وفيه دليل على أن لا وجوبَ قبلَ الشرع.

(١٦) ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتُنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائِنا السابق، أو دَنَا وقتُه المقدَّرُ كقولهم: إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضُه شدةً. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعّميها بالطاعة على لسان رسولٍ بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبلَه وما بعدَه، فإن الفِسْقَ هو الخروجُ عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة. وقيل أَمَرْنَاهُم بالفسق لقوله: ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ كقولك أَمَرْتُهُ فقراً فإنه لا يُفْهَمُ منه إلا الأمرُ بالقراءة، على أن الأمرَ مجازٌ مِنَ الْحَمْلِ عليه أو التسببِ له، بأنْ صَبَّ عليهم من النِّعَمِ ما أَبْطَرَهُم وأفضَى بهم إلى الفسوق. ويحتمل أن لا يكون له مفعول مَنْوِيٌّ كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كَثَّرنا، يقال: أمرتُ الشيءَ وآمرتُه فَأُمِرَ إذا كثَّرتُه، وفي الحديث «خيرُ المال سُكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[1]، أي كثيرةُ النِّتَاجِ، وهو أيضاً مجازٌ من معنى الطلبِ، ويؤيده قراءة يعقوبَ آمَرْنَا وروايةُ أَمَّرْنا عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أُمِّرَ ـ بالضم ـ أمارةً أي جعلناهم أُمَرَاءَ. وتخصيصُ المترفين لأن غيرَهم يتبعُهم، ولأنهم أسرعُ إلى الحماقة وأقدرُ

---

(١) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٦٨) والطبراني في الكبير (٧/ ٩١ رقم ٦٤٧٠ و٦٤٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ١٢٥٠ و١٢٥١) من حديث سويد بن هبيرة.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٥٨): وقال «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات».

وانظر كلام ابن حجر عليه في الإصابة (٢/ ١٠١) وابن عبدالبر في الاستيعاب (٢/ ١١٥) وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥)، فقد أعلوه بالإرسال. والله أعلم.

- السُكة: الطريقة المصطفة من النخل.
- المأبورة: ما أبر من النخل. [النهاية: (١/ ١٤)].
- مأمورة: كثيرة النتاج [النهاية: (١/ ٦٥)].

ومعنى الحديث: خير المال نتاج أو زرع.

على الفجور. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بِحُلُولِهِ، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيانٌ لِكَم وتمييز له. ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كَعَادٍ وثمودَ. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطِنَها وظواهِرَها فيعاقب عليها. وتقديم الخبير لتقدم مُتَعلَّقِه[1].

(١٨) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قَيَّد المعجَّل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كلُّ مُتَمَنٍّ ما يتمناه ولا كلُّ واجِدٍ جميعَ ما يهواه، ولِيُعْلَمَ أن الأمرَ بالمشيئة والهمَّ فضلٌ. ولمن نريد بدلٌ من له بدلَ البعضِ. وقرىء ما يَشَاءُ، والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة، وقيل لِمَنْ فيكونُ مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمينَ ويغزونَ معهم ولم يكن غَرَضُهم إلا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقَّها من السَّعْي، وهو الإتيان بما أُمِرَ به والانتهاءُ عما نُهِيَ عنه لا التقرُّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شِرْكَ معه ولا تكذيبَ فإنه العمدةُ[2]. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ من الله تعالى، أي مقبولاً عنده مُثَاباً عليه، فإنَّ شكرَ اللهِ الثوابُ على الطاعة.

(٢٠) ﴿كُلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين بدلٌ من المضاف إليه. ﴿نُّمِدُّ﴾ بالعطاء مرةً بعد أخرى ونجعل آنِفَهُ مدداً لسالِفه. ﴿هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ﴾ بدل من كلاً. ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ من مُعْطَاهُ، متعلِّق بِنُمِدُّ. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تَفَضُّلاً[3].

(٢١) ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصابُ كيف بِفَضَّلْنا على الحال. ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودَرَكَاتِها.

---

(١) أو لعمومه فإنه يتعلق بغير المبصرات.

(٢) وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذُكِر في حيز الصلة (س٥/ ١٦٤).

(٣) وإظهار «عطاء ربك» إظهاراً لمزيد الاعتناء بشأنه، وإشعاراً بعليته للحكم (س٥/ ١٦٥).

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمتَه، أو لكل أحد. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ فتصيرَ من قولهم شحذ الشفرةَ حتى قَعَدَتْ كأنها حربةٌ، أو فتَعْجِز من قولهم قَعَدَ عن الشيء إذا عَجَزَ عنه. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلانَ من الله تعالى، ومفهومه أن الموحِّدَ يكون ممدوحاً منصوراً.

(٢٣) ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمَرَ أمْرَاً مقطوعاً به. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظَمَة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون أنْ مفسرة ولا ناهيةٌ. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وبأن تحسنوا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السببُ الظاهر للوجود والتعيُّش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدَّمُ عليه. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ «إما» هي إنْ الشرطية زِيْدَتْ عليها ما تأكيداً، ولذلك صحَّ لحوقُ النون المؤكِّدةِ للفعل. وأحدُهما فاعلَ يبلغنَّ، وبدلٌ على قراءة حمزة والكسائي مِنْ أَلِفِ يَبْلُغَانِّ الراجعِ إلى الوالدين، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يَجُزْ أن يكون تأكيداً للألف. ومعنى عندك أن يكونا في كَنَفِكَ وكفالتك[1]. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فلا تتضجرْ مما يُسْتَقْذَرُ منهما وتَسْتَثْقِلْ مِنْ مَؤُنَتِهما. وهو صوت يدل على تَضَجُّرٍ، وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجَّر، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، وتنوينُه في قراءة نافع وحفص للتنكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف[2]، وقرىء به منوناً، وبالضم للاتباع كَمُنْذُ منوناً وغيرَ مُنَوَّنٍ. والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى، وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيرَ والقِطْميرَ، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفةَ من قتل أبيه وهو في صفِّ المشركين[3]. نهى عما يؤذيهما بعدَ الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجُرْهما عمَّا لا يعجبك بإغلاظ، وقيل النَّهْيُ والنَّهْرُ والنَّهْمُ أخواتٌ. ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنَّهْرِ. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً لا شراسةَ فيه.

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ تَذَلَّلْ لهما وتواضَعْ فيهما، جَعَلَ لِلذُّلِ جناحاً كما جعلَ لبيدُ في

---

(١) تقديم الظرف «عندك» على المفعول للتشويق إلى وروده فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان. وتأخير الفاعل «أحدُهما» عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه.
وتوحيد ضمير الخطاب في «عندك» وفيما بعده ـ مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما.. (س٥/١٦٦).

(٢) أي «أُفَّ».

(٣) قال ابن حجر: لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين، فإنه استُشهد بأُحُدٍ مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأ. لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة بن الجراح (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٥).

قوله:

وَغــدَاةَ رِيــحٍ قَــدْ كشفــت وَقــرّةً إذْ أَصْبَحَــتْ بِيَــدِ الشَّمَــالِ زِمَــامُهَــا

لِلشِّمَالِ يداً أو لِلْقَرَّةِ زماماً، وأَمَرَهُ بخفضِه مبالغةً أو أراد جناحَه كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيفَ حَاتَمٌ إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحَك الذليل. وقرىء الذُّلُّ بالكسر وهو الانقياد، والنَّعْتُ منه ذَلولٌ. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ مِنْ فَرْطِ رحمتك عليهما لافتقارهما إلى مَنْ كان أفقرَ خَلْقِ الله تعالى إليهما بالأمسِ. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وادع الله تعالى أن يرحَمَهُما برحمته الباقية، ولا تَكْتَفِ برحمتك الفانية وإن كانا كافرَيْنِ لأن مِنَ الرحمة أن يهديَهما: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ رحمةً مثلَ رحمتهما عليَّ وتربيتَهما وإرشادَهما لي في صغري وفاءً بِوَعْدِكَ للراحمين. روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبويَّ بلغا من الكِبَرِ أني أَلِي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتُهما حقَّهما، قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبَّان بقاءَك وأنتَ تفعل ذلك وتريد موتَهما»[2].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البرِّ إليهما واعتقادِ ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديدٌ على أن يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً. ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ ما فَرَطَ منهم عندَ حَرَجِ الصدر من أذيةٍ أو تقصير، وفيه تشديدٌ عظيم، ويجوز أن يكونَ عاماً لكلِّ تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لِوُرُودِه على أَثَرِه.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبِرِّ عليهم. وقال أبو حنيفة: حقُّهم إذا كانوا محارِمَ فقراءَ أن ينفقَ عليهم. وقيل المراد بذي القربى أقاربُ الرسول ﷺ. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بِصَرْفِ المال فيما لا ينبغي، وإنفاقُه على وَجْهِ الإسراف. وأصل التبذير التفريقُ. وعن النبي ﷺ أنه قال لسعدٍ وهو يتوضأ: «ما هذا السَّرَفُ؟» قال: أَوَ في الوضوء سَرَفٌ قال: «نعم وإن كنتَ على نَهْرٍ جارٍ»[3].

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أمثالَهم في الشَّرارة فإنَّ التضييعَ والإتلاف شرٌّ، أو

---

(١) الحجر: «٨٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٩٨ رقم ٢٨٠): «لم أجده».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) وابن ماجة (٤٢٥). قال ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٧).

أصدقاءَهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسرافِ والصَّرْفِ في المعاصي. روي أنهم كانوا ينحرون الإبلَ ويتياسَرُون عليها ويُبَذِّرُون أموالَهم في السُّمْعَةِ، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القُرُبَاتِ. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ مبالِغاً في الكفر به فينبغي أن لا يُطَاعَ[1].

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ وإن أعرضتَ عن ذي القربى والمسكينِ وابن السبيل حياءً من الردِّ، ويجوز أنْ يرادَ بالإعراض عنهم أن لا ينفعَهم على سبيل الكناية. ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لانتظار رزقٍ من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه، أو منتظرينَ له. وقيل معناه لِفَقْدِ رزقٍ من ربِّك ترجوه أن يَفْتَحَ لك، فَوَضَعَ الابتغاءَ موضعَه لأنه مُسَبَّبٌ عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاءَ رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور مِنْ يَسِرَ الأمرُ مثل سَعِدَ الرَّجُلُ ونَحِسَ، وقيل القول الميسور الدعاءُ لهم بالميسور وهو اليسرُ مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

(٢٩) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر، نهى عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكَرَمُ. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوءِ التدبير. ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادِماً أو منقطِعاً بك لا شيءَ عندك مِنْ حَسَرَهُ السَّفَرُ إذا بلغ منه. وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالسٌ أتاه صبيٌّ فقال: إن أمي تَسْتَكْسِيْكَ دِرعاً، فقال ﷺ: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ فعُد إلينا» فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصَه وأعطاه وقعد عُرْياناً، وأذَّنَ بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله ذلك[2]. ثم سَلاَّه بقوله:

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُوَسِّعُه ويضيِّقُه بمشيئته التابعة للحكمة البالغةِ فليس ما يرهقُك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم سِرَّهم وعَلَنَهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يُرَادَ أن البَسْطَ والقبضَ من أمر الله تعالى العالم بالسرائر

---

(١) تخصيص التبذير بالذكر للإيذان بأنه من الكفران المقابل للشكر.
والتعرض لوصف الربوبية «لربه» للإشعار بكمال عتوه، فإن كفران نعمة الرب ـ مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ـ غايةُ الكفران ونهاية الضلال والطغيان (س٥/١٦٨).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده (الكافي الشافِ ص٩٩ رقم ٢٨٩) لكن أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٤ بنحوه، وهو ضعيف أيضاً لأن في سنده سليمان بن سفيان الجهني وهو ضعيف (التقريب ١/٣٢٥) وأورد الواحدي أيضاً عن جابر بن عبدالله ص٢٩٥ وبدون إسناد.

والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى يبسط تارةً ويقبضُ أخرى فاستنوا بِسُنَّتِهِ ولا تقبضوا كلَّ القبضِ ولا تبسطوا كلَّ البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ مخافةَ الفاقة. وقَتْلُهم أولادَهم هو وَأْدُهم بناتِهم مخافةَ الفقرِ فنهاهم عنه وضَمِنَ لهم أرزاقَهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النَّوعِ. والخطأُ الإثمُ يقال خطىءَ خطأً كَأَثِمَ إِثْماً. وقرأ ابن عامر خَطَأً وهو اسمٌ مِنْ أخطأ يُضَادُّ الصوابَ، وقيل: لغةٌ فيه كَمِثْلٍ ومَثَلٍ وحِذْرٍ وحَذَرٍ، وقرأ ابن كثير خِطَاءً بالمد والكسر وهو إما لغةٌ فيه أو مصدرُ خَاطَأَ، وهو وإن لم يُسْمَعْ لكنه جاءَ تَخَاطَأَ في قوله:

تَخَـاطَـأَهُ القَنَّـاصُ حَتَّـى وَجَـدْتُـهُ وخُـرْطُـومَـهُ فِـي مَنْقَـعِ المَـاءِ رَاسِـبُ

وهو مبني عليه، وقرىء خَطاءً بالفتح والمد، وخِطَا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً[1].

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ فِعْلَةً ظاهرةَ القُبْحِ زائدتَه. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقُه، وهو الغصْبُ على الأبْضَاعِ المؤدي إلى قطع الأنساب وهَيْجِ الفتن[2].

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتلُ مؤمنٍ معصومٍ عَمْداً. ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غيرَ مستوجبٍ للقتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ للذي يلي أَمْرَه بعدَ وفاته وهو الوارِثُ. ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ تَسَلُّطاً بالمؤاخذةِ بمقتضى القتل على مَنْ عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى «مظلوماً» يدل على أن القتل عمدٌ عدوانٌ فإن الخطأَ لا يُسَمَّى ظلماً. ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي القاتل. ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بأنْ يَقْتُلَ مَنْ لا يستحقُّ قَتْلَهُ، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولي بِالْمُثْلَةِ. أو قتلِ غيرَ القاتل، ويؤيد الأولَ قراءةُ أُبَيٍّ فلا تسرفوا. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) قوله «نرزقهم وإياكم» حيث قدم ضمير الأولاد على المخاطبين ـ بخلاف قوله تعالى في سورة الأنعام الآية «١٥١»: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» حيث أخر ضمير الأولاد ـ وذلك للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل «من إملاق» وههنا الإملاق المتوقع، ولذلك قيل «خشية إملاق» فكأنه قيل: نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء وإياكم أيضاً رزقاً إلى رزقكم (س٥/ ١٦٩).

(٢) والنهي عن قربانه للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته.
وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة باعتبار أنه قتل للأولاد لأنه تضييع للأنساب (س٥/ ١٧٠).

فلا تسرفْ على خطابِ أحدِهما. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عِلَّةُ النهي على الاستئناف، والضميرُ إما للمقتول فإنه منصورٌ في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليِّه فإن الله تعالى نَصَرَهُ حيثُ أوجب القِصَاصَ له وأمر الوُلاَةَ بمعونته، وإما للذي يقتله الوليُّ إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزيرِ والوِزْرِ على المسرفِ.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرُّفِ الذي دلَّ عليه الاستثناء. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوباً يطلب من المُعَاهِد أن لا يُضَيِّعَه ويفى به، أو مسؤولاً عنه يُسألُ الناكِثَ ويعاتبُ عليه لِمَ نَكَثْتَ، أو يُسأل العهدَ تبكيتاً للناكثِ كما يقالُ للموءودةِ بأيِّ ذنبٍ قُتِلْتِ، فيكون تخييلاً. ويجوز أن يرادَ أن صاحبَ العهد كان مسؤولاً[1].

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السويِّ، وهو رومي عُرِّبَ ولا يَقْدَحُ ذلكَ في عربيَّةِ القرآن، لأن العجميَّ إذا اسْتَعْمَلَتْه العربُ وأَجْرَتْه مجرى كلامِهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها صارَ عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسرِ القاف هنا وفي الشعراءِ[2]. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبةً، تفعيل مِنْ آلَ إذا رجَعَ.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع. وقرىء ولا تَقُفْ مِنْ قَافَ أَثَرَهُ إذا قَفَاه، ومنه القافةُ. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلَّقْ به عِلْمُك تقليداً أو رَجْماً بالغيب، واحتجَّ بهِ مَنْ منعَ اتباعَ الظن، وجوابُه أن المرادَ بالعِلْم هو الاعتقاد الراجح المستفادُ مِنْ سَنَدٍ، سواءٌ كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغٌ وشائع، وقيل إنه مخصوص بالعقائد، وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَفَا مؤمناً بما ليس فيه حَبَسَهُ الله في رَدْغَةِ الخبال حتى يأتيَ بالمخرَجِ»[3]. وقول

---

(١) قوله «إن العهد» حيث أظهر العهد في مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه، أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (س٥/ ١٧١).

(٢) الشعراء: «١٨٢».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٩٩ رقم ٢٩١): لم أره بهذا اللفظ مرفوعاً، وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب ـ (٤/ ٤٠٧) ـ من قول حسان بن عطية ـ ثقة فقيه (التقريب: ١/ ١٦٢) ـ فقال: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عنه بهذا. وروى أحمد ـ في المسند (٣/ ٤٤١) والطبراني من رواية معاذ بن أنس رفعه «من قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمناً أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج».

الكميتِ[١] :

وَلاَ أَرْمِـــي البَـــرِيء بِغَيْـــرِ ذَنْـــبٍ ولاَ أَقْفُـــو الحَـــواصِـــنَ إِنْ قفينـــا

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كلُّ هذه الأعضاءِ، فأجْراها مَجْرَى العُقَلاءِ لما كانتْ مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على صاحبِها، هذا وإن أولاءِ وإن غلبَ في العقلاءِ لكنه مِنْ حيثُ إنه اسمُ جَمْعٍ لِذَا وهو يعمُّ القبيلينِ جاء لغيرهم كقوله:

وَالعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَامِ

﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ في ثَلاثَتِها ضميرُ كلُّ أيْ كان كلُّ واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فَعَلَ به صاحبُه، ويجوز أن يكون الضميرِ في عنه لمصدرٍ لا تَقْفُ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل مسؤولاً مُسْنَدٌ إلى عَنْهُ كقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٢] والمعنى يسأل صاحبَه عنه، وهو خطأ لأن الفاعلَ وما يقوم مقامَه لا يتقدم. وفيه دليل على أن العبد مُؤَاخَذٌ بِعَزْمِهِ على المعصية. وقرىء والفَوَادَ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالِهَا بالفتح.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾ أي ذا مَرَحٍ وهو الاختيال. وقُرِىءَ مَرِحاً وهو باعتبار الحكم أبلغُ

= وهو عند أبي داود ـ (٤/ ٢٣ رقم ٣٥٩٧) ـ من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج وهو يخرج مما قال».
وأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/ ٢٧) ـ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج» هـ.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.
● الردغة: ـ بفتح الراء وسكون الدال: طين ووحل كثير.
● والخبال: ـ بالموحدة الفساد: ويكون في الأفعال والأبدان والعقول.
قال ابن كثير ردغة الخبال: جاء تفسيره في الحديث.
أنها عصارة أهل النار. [النهاية مادة: خبل وردغ (٢/ ٨، ٢١٥)].

(١) هو الكميث بن زيد ـ وهو كوفي شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها ومن شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية المقارعين العالمين بالمثالب.
يقال: ـ ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميث، فمن صحَّح الكميث نسبه صحَّ، ومن طعنَ فيه وهَن.
وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وله في أهل البيت القصائد المشهورة ولد الكميث سنة (٦٠هـ) ومات سنة (١٢٦هـ) في خلافة مروان بن محمد.
[«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» لعبدالقادر بن عمر البغدادي. (١/ ١٤٤ ـ ١٤٧)].

(٢) الفاتحة: «٧».

وإن كان المصدر آكدُ مِنْ صريح النَّعْتِ. ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تَجْعَلَ فيها خَرْقاً بشدةِ وطأتِك. ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهو تهكُّمٌ بالمختال وتعليل للنهي بأن الاختيالَ حماقة مجرَّدةٌ لا تعود بِجَدْوَى ليس في التذلُّلِ.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبةُ في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني المنهي عنه، فإنَّ المذكوراتِ مأموراتٌ ومَنَاهٍ. وقرأ الحجازيانِ والبصريان[٢] سَيِّئَةً، على أنها خبرُ كان، والاسمُ ضميرُ كلّ، وذلك إشارة إلى ما نهي عنه خاصة، وعلى هذا قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدلٌ من سَيِّئُهُ أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سَيِّئاً، وقد قرىء به، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكِنِّ في كان أو في الظرف على أنه صفة سَيِّئُهُ. والمراد به المبغوض المقابل للمَرْضي، لا ما يقابل المرادَ لقيام القاطع، على أن الحوادثَ كلَّها واقعةٌ بإرادته تعالى[٣].

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيدَ مبدأُ الأمر ومنتهاه، فإنَّ مَنْ لا قَصْدَ له بَطَلَ عمله ومن قصد بفعله أو تركِه غيرَه ضاعَ سَعْيُه، وأنه رأسُ الحكمة وملاكُها، ورتَّبَ عليه أولاً ما هو عائدُه الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجته في العُقْبَىٰ فقال تعالى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك[٤]. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَداً من رحمة الله تعالى.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكةُ بناتُ الله، والهمزة للإنكار، والمعنى: أَفَخَصَّكم ربُّكم بأفضلِ الأولادِ وهم البنونَ. ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ بناتٍ لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولُكم وعادتُكم. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسِكم عليه حيثُ تجعلون له ما تَكْرَهُون، ثم بِجَعْلِ الملائكةِ الذين هم مِنْ أشرفِ خَلْقِ اللهِ أدونَهم.

---

(١) الإسراء: «٢٢».

(٢) الحجازيان: نافع وابن كثير، والبصريان أبو عمرو ويعقوب.

(٣) ووصف ذلك بمطلق الكراهة ـ مع أن البعض من الكبائر ـ للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عنه. (س٥/ ١٧٢).

(٤) وإيراد الإلقاء مبنياً للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك (س٥/ ١٧٣).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كَرَّرْنَا هذا المعنى بوجوهٍ من التقرير. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في مواضعَ منه، ويجوز أن يُرَادَ بهذا القرآن إبطالُ إضافةِ البنات إليه على تقدير: ولقد صرفنا هذا القولَ في هذا المعنى أو أوقعنا التصريفَ فيه. وقرىء صَرَفْنَا بالتخفيف. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتذكروا. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان[1] لِيَذْكُرُوا من الذِّكْرِ الذي هو بمعنى التذكُّرِ[2]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقِلَّةِ طُمَأْنينةٍ إليه.

(٤٢) ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعدَه على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأُوْلَى مما أُمر الرسول ﷺ أن يخاطب به المشركين والثانيةَ مما نَزَّهَ به نفسَه عن مَقَالَتِهم. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جوابٌ عن قولهم وجزاءٌ لِلَوْ، والمعنى: لَطَلبوا إلى مَنْ هو مالِكُ الملْكِ سبيلاً بالمعازَةِ كما يفعل الملوكُ بعضُهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لِعِلْمهم بقدرته وعجزِهم كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[3].

(٤٣) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ينزه تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعِداً غايةَ البعدِ عما يقولون، فإنه في أعلى مراتبِ الوجود وهو كونُه واجبَ الوجود والبقاء لذاته، واتخاذُ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجبِ لذاته. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾ أيها المشركون لإخلالِكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهم تَسْبِيحُهم، ويجوز أنْ يُحْمَلَ التسبيحُ على المشترك بينَ اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يُتَصَوَّرُ منه وعليهما عندَ مَنْ جَوَّزَ إطلاقَ اللفظ على معنييه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر يُسَبِّحُ بالياء. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلْكم بالعقوبة على غفلتكم وشِرْكِكُم. ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

---

(١) الفرقان: «٥٠».

(٢) والالتفات في «ليذكروا» إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكىٰ للسامعين هنّاتهم. (س٥/ ١٧٤).

(٣) الإسراء: «٥٧».

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فَهْمِ ما تقرؤه عليهم. ﴿مَّسْتُورًا﴾ ذا سِتْرٍ كقوله تعالى: ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[1] وقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ، أو مستوراً عن الحسِّ، أو بحجاب آخرَ لا يَفْهَمُونَ ولا يَفْهَمُون أنهم لا يَفْهَمُونَ[2]. نَفَىٰ عنهم أنْ يَفْهَمُوا ما أُنْزِلَ عليهم من الآيات بعدَ ما نَفَى عنهم التفقُّهَ للدلالاتِ المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرَّح به بقوله:

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تُكِنُّها وتَحُولُ دونَها عن إدراك الحق وقَبوله. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي مَنَعْنَاهُم أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن استماعه. ولمّا كان القرآن معجزاً من حيثُ اللفظُ والمعنى أثبتَ لِمُنْكِرِيْهِ ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ واحداً غيرَ مشفوعٍ به آلهتَهم، مصدرٌ وقَعَ موقِعَ الحال، وأصله تُحَدُّ وحدَه بمعنى واحداً وحدَه. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هَرَباً من استماع التوحيد ونُفْرَةً أو توليةً، ويجوز أن يكون جَمْعُ نافرٍ كقاعد وقعودٍ.

(٤٧) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بسببه ولأَجْلِهِ مِنَ الْهُزُءِ بك وبالقرآن. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لأَعْلَمُ، وكذا: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي نحن أعلم بِغَرَضِهِم من الاستماع حين هم مستمعونَ إليك مضمِرونَ له وحين هم ذَوُو نَجْوى يتناجَوْنَ به، ونَجْوَى مصدر ويحتمل أن يكون جمع نَجِيٍّ. ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مقدرٌ بِاذْكُرْ. أو بدلٌ مِنْ إذْ هُمْ نَجْوَى، على وضع الظالمون موضعَ الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم. والمسحورُ هو الذي سُحِرَ فزالَ عقلُه، وقيل الذي له سِحْرٌ وهو الرِّئَةُ أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مِثْلُكم.

(٤٨) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مَثَّلُوكَ بالشاعر والساحرِ والكاهنِ والمجنون. ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن مُوَجَّهٍ فيتهافتون ويخبُطون كالمتحيِّرِ في أَمْرِهِ لا يدري ما يَصْنَعُ، أو إلى الرشاد.

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ حُطاماً. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضةِ الحي ويبوسةِ الرميم من المباعدة والمنافاة. والعاملُ في «إذا» ما دل عليه مبعوثون، لا نفسُه لأن ما بعدَ أن لا يَعملُ فيما قبلَها. وخَلْقاً مصدر أو حال.

---

(١) مريم: «٦١».

(٢) قوله «الذين لا يؤمنون بالآخرة» حيث خص بالذكر كفرَهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها من أعظم ما أمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (س٥/ ١٧٥).

﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿ ۞ قُلْ ﴾ جواباً لهم. ﴿ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾.

(٥١) ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي مما يكبرُ عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعدَ شيء منها، فإنَّ قُدْرَتهُ تعالى لا تقصرُ عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأغراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتَةً وقد كانت غضَّةً موصوفة بالحياة قبلُ؟ والشيءُ أَقْبَلُ لما عُهِدَ فيه مما لم يُعْهَدْ. ﴿ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وكنتم تراباً وما هو أبعدُ منه مِنَ الحياة. ﴿ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ فسيحركونها نَحْوَكَ تعجُّباً واستهزاءً. ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فإن كل ما هو آتٍ قريبٌ، وانتصابُه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، وأن يكون اسم عسى أو خبره والاسم مضمَر.

(٥٢) ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي يومَ يبعثكم فتنبعثُون، استعارَ لهما الدعاءَ والاستجابةَ للتنبيه على سرعتهما وتَيَسُّرِ أمْرِهما وأن المقصودَ منهما الإحضارُ للمحاسبةِ والجزاء. ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾ حال منهم، أي حامدين اللهَ تعالى على كمالِ قدرته كما قيل إنهم ينفضُون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أو منقادين لِبَعْثِهِ انقيادَ الحامدين عليه. ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وتستقصرون مدةَ لَبْثِكُم في القبور كالذي مرَّ على قرية، أو مُدَّةَ حياتِكم لما تَرَوْنَ من الهول.

(٥٣) ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ يعني المؤمنين. ﴿ يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ الكلمة التي هيَ أحسن ولا يخاشِنُوا المشركين.. ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يُهَيِّجُ بينَهم المراءَ والشرَّ، فلعلَّ المخاشَنَةَ بهم تُفْضِي إلى العِنَاد وازدياد الفساد. ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ ظاهرَ العداوة.

(٥٤) ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراضٌ أي قولوا لهم هذه الكلمةَ ونحوَها ولا تصرِّحُوا بأنهم مِنْ أهلِ النار، فإنهُ يُهَيِّجُهم على الشرِّ معَ أن ختامَ أَمْرِهم غيبٌ لا يعلمه إلا الله. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ موكولاً إليك أَمْرُهُم تَقْسِرُهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مُبَشِّراً ونذيراً فَدَارِهِم وَمُرْ أصحابَكَ بالاحتمال منهم. ورُوِيَ أن المشركين أفرطوا في إيذائِهم فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ فنزلت[1]، وقيل شَتَمَ عمرَ رضي الله تعالى عنه رَجُلٌ منهم فَهَمَّ به فأمرهُ اللهُ بالعفو[2].

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ من قول الكلبي وبدون إسناد.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٨ ولم ينسبه لأحد.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو ردٌّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيمُ أبي طالبٍ نبياً وأن يكون العراةُ الْجُوَّعُ أصحابَه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية، لا بكثرةِ الأموال والأتباع حتى داودَ عليه الصلاة والسلام فإن شَرَفَهُ بما أُوحِيَ إليه من الكتاب لا بما أُوتِيَهِ مِنَ الْمُلْكِ. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله، وهو أنه خاتم الأنبياء وأُمَّتُهُ خيرُ الأمم المدلول عليه بما كُتِبَ في الزبور من أن الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون. وتنكيرُه ههنا وتعريفُه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾[1] لأنه في الأصل فَعُولٌ للمفعول كالْحَلُوبِ، أو المصدر كالقَبُولِ، ويؤيده قراءةُ حمزة بالضمِّ، وهو كالعبَّاس أوِ الفضلِ، أو لأن المرادَ وآتينا داودَ بعضَ الزُّبُرِ، أو بعضاً من الزَّبُورِ فيه ذِكْرُ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٥٦) ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهة. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة والمسيح وعُزَيْرٍ. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقَحْطِ. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويلَ ذلكَ منكم إلى غيرِكم.

(٥٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهةُ يبتغون إلى الله القرابةَ بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل مِنْ وَاوِ يبتغون، أي يبتغي مَنْ هو أقربُ منهم إلى الله الوسيلةَ، فكيفَ بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم الهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأنْ يحذَرَهُ كلُّ أحدٍ حتَّى الرسلُ والملائكةُ[2].

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالموت والاستئصال. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ ما صَرَفَنَا عن إرسال الآيات التي اقترحَها قريشٌ. ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إلا تكذيبَ الأولين الذين هم أمثالُهم في الطبع كَعَادٍ وثمودَ، وأنها لو أرسلت لَكَذَّبوا بها

---

(١) الأنبياء: «١٠٥».

(٢) وهو تعليل لقوله «ويخافون عذابه». وتخصيصه بالتعليل لأن المقام مقام التحذير من العذاب، وأن بينهم وبين العذاب بوناً بعيداً (س٥/ ١٧٩).

تكذيبَ أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سُنَّتُنَا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم مَنْ يؤمن أو يَلِدُ مَنْ يؤمنُ. ثم ذَكَرَ بعضَ الأمم المهلَكةِ بتكذيب الآيات المقترحة فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة ذات إبصار أو بصائر، أو جاعلتهم ذوي بصائر. وقرىء بالفتح. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عَقْرِهَا[1]. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي بالآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصِلِ فإن لم يخافوا نزلَ، أو بغير المقترَحَة كالمعجزات وآيات القرآن إلاَّ تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنَّ أَمْرَ مَنْ بُعِثْتَ إليهم مؤخَّرٌ إلى يوم القيامة. والباء مزيدةٌ أو في موقعِ الحال، والمفعول محذوف.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ فَهُمْ في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم مِنْ أَحَاطَ بهم العدوُّ، فهي بشارة بِوَقْعَةِ بدر. والتعبير بلفظ الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ ليلةَ المعراج، وتعلَّق به مَنْ قال إنه كان في المنام، ومَنْ قال إنه كان في اليقظة فسَّر الرؤيا بالرؤية. أو عامَ الحديبيةِ حين رأى أنه دخل مكةَ، وفيه أن الآية مكية إلا أنْ يُقَالَ رآها بمكةَ وحكاها حينئذ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾[2] ولما روي أنه لما ورد ماءه قال: «لكأني أنظر إلى مصارع القوم، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» فتسامعت به قريش واستسخروا منه[3]. وقيل رأَىٰ قوماً من بني أميةَ يَرْقُونَ مِنبَرَهُ وَيَنْزُونَ عليه نَزْوَ القِرَدَةِ فقال: «هذا حظُّهم من الدنيا يُعْطَوْنَهُ بإسلامهم»[4]، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطف على الرؤيا وهي

---

(١) ولعل تخصيص ثمود بالذكر لأن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم، أو لأنها من جهة أنها حيوان أُخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى: «قل كونوا حجارة أو حديداً» الآية: «٥٠» (س٥/ ١٨١).

(٢) الأنفال: «٤٣».

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٣ رقم ٧٦/ ٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك.

(٤) القول بأن المراد بالشجرة الملعونة هم بنو أمية فهو ضعيف جداً وجمهور المفسرين على خلافه، انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨).
وما ورد من أحاديث في ذلك إنما هو ضعيف جداً، حيث أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد (١٥/ ١١٢) بنحو ما أورده البيضاوي، قال ابن كثير فيه: وهذا السند ضعيف جداً، فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية (ابن كثير ٣/ ٤٨).. وأخرج الحاكم (٤/ ٤٨٠) بنحوه أيضاً وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف، وقد أعلّه ابن الجوزي في العلل (٢/ ٢١٣) وقال الجورقاني حديث باطل (الأباطيل ١/ ٢٥٣).

شجرة الزقوم، لمّا سمع المشركون ذِكْرَها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرقُ الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجرُ، ولم يعلموا أن مَنْ قدَر أن يحميَ وَبَرَ السَمَنْدَل من أن تأكلَه النار وأحشاءَ النعامةِ من أذى الجمر وقِطَعِ الحديد المحمَّاةِ الْحُمُرَ التي تبتلعها قَدَرَ أن يخلق في النار شجرةً لا تحرقُها. ولَعْنُها في القرآن لَعْنُ طَاعميها وُصِفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعدُ مكانٍ من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعامٌ ملعون لما كان ضاراً، وقد أُوِّلَتْ بالشيطان وأبي جهل والْحَكَمِ بنِ أبي العاصي. وقُرِأَتْ بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي والشجرةُ الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ إلا عُتُوّاً متجاوزَ الحدِّ.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقتَه من طين فَنُصِبَ بِنَزْعِ الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقتَه وهو طين، أو منه أي أأسجدُ له وأصلُه طينٌ. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماءٌ بعلةِ الإنكار.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صِفَتُه والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كَرَّمْتَهُ عليَّ بأمري بالسجود له لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ[1]؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، واللام مُوَطِّئَةٌ للقَسَم، وجوابُهُ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستأصلنَّهم بالإغواءِ إلا قليلاً لا أقدرُ أنْ أقاوِمَ شكيمتَهم، مِنْ احتنكَ الجرادُ الأرضَ إذا جرَّد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الْحَنَكِ. وإنما عَلم أن ذلك يَتَسَهَّلُ له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[2] مع التقرير، أو تَفَرُّساً مِنْ خَلْقِه ذا وَهْمٍ وشهوةٍ وغضب.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ امضِ لما قصدتَه، وهو طردٌ وتخلية بينَه وبين ما سَوَّلَتْ له نفسُه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلَّبَ المخاطبَ على الغائبِ، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالْتفات. ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مكملاً من قولهم: فِرْ لصاحبِك عِرْضَه، وانتصابُ جزاءً على المصدر بإضمار فعلِه أو بما في جزاؤكم من معنى تُجَازون، أو حال موطئة لقوله «موفوراً».

---

(١) توسيط «قال» بين كلامي إبليس اللعين للإيذان بعدم اتصال الثاني بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره (س٥/ ١٨٣).

(٢) البقرة: «٣٠».

(٦٤) ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ واستخففْ. ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ أن تستفِزَّه، والفزُّ الخفيف. ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بدعائِك إلى الفساد. ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ وصِحْ عليهم، مِنَ الْجَلَبَةِ وهي الصِّياحُ. ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راكب وراجلٍ، والخيل: الخيّالةُ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»[١] والرَّجْلُ اسمُ جَمْعٍ للراجل كالصَّحْبِ والرَّكْبِ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لِتَسَلُّطِهِ على مَنْ يغويه بمغوارِ صوتٍ على قوم فاستفزَّهم من أماكنهم وأَجْلَبَ عليهم بجنده حتى استأصَلَهم. وقرأ حفص وَرَجِلِكَ بالكسر، وغيرُه بالضمِّ وهما لغتان كَنَدِسٍ ونَدُسٍ[٢] ومعناه وجَمْعُكَ الرَّجُلَ، وقرىء ورِجَالِك ورُجّالِك[٣]. ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ بحملِهم على كسبها وجَمْعِها من الحرام والتصرفِ فيها على ما لا ينبغي. ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ بالحثِّ على التوصل إلى الولد بالسَّبَبِ المحرَّمِ، والإشراك فيه بتسميته عبدِالعُزَّى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحِرَفِ الذميمة والأفعال القبيحة. ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكالِ على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة. والغرورُ تزيينُ الخطأ بما يوهم أنه صواب[٤].

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ يعني المخلَصين، وتعظيمُ الإضافة والتقييدُ في قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٥] يخصِّصُهم. ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي على إغوائهم قدرةٌ. ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

(٦٦) ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى ﴾ هو الذي يُجْرِي. ﴿ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ الربح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ حيثُ هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسَهَّلَ عليكم ما تعسَّر مِنْ أسبابه.

(٦٧) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ خوفَ الغرق. ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ ذهب عن خواطركم كلُّ مَنْ تَدْعُونَهُ في حوادثكم. ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وحدَه فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواهُ فلا تدعون لكشفِه إلا إياه، أو ضلَّ كلُّ مَنْ تعبدونه عن إغاثتِكم إلا اللهُ. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ ﴾ من الغرق. ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد. وقيل

---

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٧٠) من سورة يوسف.

(٢) الندس: الفهِمُ وقد ندس كفرح.

(٣) اللفظ مكرر، ولعله ورَجّالَتك.

(٤) والالتفات إلى الغيبة بقوله «وما يعدهم...» لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الإشعار بعلّية سيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (س٥/ ١٨٤).

(٥) الحجر: «٤٠».

اتسعتم في كفران النعمة كقول ذي الرُّمَّةِ:

عَطَـاء فَتًـى تَمَكَّـنَ فِـي المَعَـالِـي فَـأَعْـرَضَ فِـي المَكَـارِمِ وَاسْتَطَـالاَ

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتعليل للإعراض.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتُم فَأَمِنتُم فحملَكُم ذلكَ على الإعراض، فإن مَنْ قَدرَ أنْ يهلِكَكُم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البرِّ بالخسف وغيرِه. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أنْ يَقْلِبَهُ الله وأنتم عليه، أو يقلبه بِسَبَبِكُم فَبِكُم حالٌ أو صلةٌ لِيَخْسِفَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعدَه. وفي ذِكْرِ الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحلَ كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهاتِ في قدرته سواءٌ لا مَعقِلَ يُؤمَنُ فيه من أسباب الهلاك. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تَحْصُبُ أي ترمي بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا رادَّ لفضله.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر[1]. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخلق دواعٍ تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوهُ. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشيء إلا قصفتْهُ أي كَسَرَتْهُ. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وعن يعقوبَ بالتاء، على إسناده إلى ضمير الريح. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراكِكُم أو كُفرانِكُم نعمةَ الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ مطالِباً يَتْبَعُنَا بانتصارٍ أو صَرْفٍ.

(٧٠) ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بحسنِ الصورة والمزاج الأعدلِ واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخطِّ والتهدِّي، أو أسبابِ المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكُّنِ من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسُّفْلِيةِ إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غيرِ ذلك مما يقفُ الْحَصْرُ دونَ إحصائه. ومن ذلك ما ذَكَرَهُ ابن عباس: وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده[2]. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابِ والسُّفُن، مَنْ حَمَلَتْهُ حملاً إذا جعلت له ما يركبه، أو حملناهم فيهما حتى لم تُخْسَفْ بهم الأرضُ ولم يُغْرِقْهُم الماءُ. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذاتِ مما يحصل بفعلهم وبغيرِ فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بِالْغَلَبَةِ والاستيلاءِ أو بالشرفِ والكرامة، والمستثنى جِنْسُ الملائكة عليهم الصلاة

---

(١) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (س٥/ ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق (فتح القدير ٣/ ٢٤٥).

والسلام أو الخواصُّ منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدمُ تفضيل بعضِ أفراده، والمسألةُ موضعُ نَظَرٍ، وقد أُوِّلَ الكثيرُ بالكلِّ وفيه تَعَسُّفٌ.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ ﴾ نُصِبَ بإضمارِ اذْكُرْ، أو ظرف لما دلَّ عليه ولا يظلمون. وقرىء يَدْعُو ويُدْعى ويُدْعَو على قَلْبِ الألفِ واواً في لغة مَنْ يقول أَفْعَو في أَفْعَى، أو على أن الواو علامةُ الجمع كما في قوله ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾[1] أو ضميره وكلٌّ بدل منه والنون محذوفة لِقِلَّةِ المبالاة بها فإنها ليست إلا علامةُ الرفع، وهو قد يُقَدَّرُ كما في يُدْعىٰ. ﴿ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ بمن ائْتَمُّوا به من نبي أو مُقَدَّمٍ في الدين أو كتابٍ أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدَّموها فيقال يا صاحبَ كتابِ كذا، أي تنقطعُ عَلَقَةُ الأنساب وتبقى نِسْبَةُ الأعمال. وقيل بالقِوَى الحاملةِ لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جَمْعُ أُمٍّ كَخُفٍّ وخِفَافٍ[2]، والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرفِ الْحَسَنِ والحسينِ رضي الله عنهما وأن لا يُفْتَضَحَ أولادُ الزنا. ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ من المدعوينَ. ﴿ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ أي كتابُ عملِه. ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ ابتهاجاً وتبجُّحاً بما يَرَوْنَ فيه. ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ولا يُنْقَصُونَ من أجورهم أدنى شيء[3]، وجَمَعَ اسمَ الإشارة والضميرَ لأن مَنْ أُوتِيَ في معنى الجمعِ، وتعليقُ القراءة بإيتاء الكتابِ باليمين يدل على أن مَنْ أُوتِيَ كتابَه بشماله إذا اطَّلع ما فيه غَشِيَهم من الخجل والْحَيْرَةِ ما يَحْبِسُ ألسنتَهُم عن القراءة، ولذلك لم يَذْكُرْهُم مع أن قوله:

(٧٢) ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أيضاً مُشْعِرٌ بذلك فإن الأعمى لا يقرأُ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلبِ لا يبصر رُشْدَهُ كان في الآخرة أعمى لا يرى طريقَ النجاة. ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدانِ الآلة والمهلةِ. وقيل لأن الاهتداءَ بعدُ لا ينفعُه. والأعمى مُسْتَعَارٌ مِنْ فاقدِ الحاسَّةِ. وقيل الثاني للتفضيل مِنْ عَمِيَ بقلبه كالأجهلِ والأَبْلَهِ ولذلك لم يُمِلْهُ أبو عمرو ويعقوب، فإن أَفْعَلَ التفضيل تمامُه بِمَنْ فكانت أَلِفُه في حكم المتوسِّطةِ كما في أعمالكم بخلاف النعت، فإن أَلِفَهُ واقعةٌ في الطَّرَفِ لفظاً وحُكْماً فكانت مُعَرَّضَة للإمالة من حيثُ إنها تصيرُ ياء في التثنية، وقد أمالهما حمزةُ والكسائي وأبو بكر، وقرأ وَرْشٌ بَيْنَ بَيْنَ فيهما.

---

(١) الأنبياء: ﴿٣﴾.

(٢) أورد هذا القول الزمخشري في الكشاف وقال إنه من بدع التفاسير (الكشاف ٢/٣٦٩) ويقصد بإظهار شرف الحسن والحسين أن نسبتهما إلى أمهما أفضل لأنها بنت رسول الله ﷺ.

(٣) الفتيل هو القشرة التي في شقّ النواة، وهو مَثَل في القلة والحقارة.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيفٍ، قالوا لا نَدْخُلُ في أَمْرِكَ حتى تُعْطِيَنَا خِصَالاً نفتخر بها على العرب: لا نُعَشَّرُ ولا نُحْشَرُ ولا نَجْبي في صلاتنا[1]، وكلُّ رِبًا لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنَّا، وأن تُمَتِّعَنَا باللاتِ سنةً وأن تُحَرِّمَ وادِيَنا كما حرَّمْتَ مكةَ، فإن قالتِ العرب لم فعلتَ ذلكَ فقلْ إن الله أمرني[2]. وقيل في قريش قالوا لا نُمَكِّنُكَ من استلامِ الحَجَرِ حتى تُلِمَّ بآلهتنا وتَمَسَّهَا بيدك[3]. وإنْ هيَ المخففةُ واللام هي الفارقةُ، والمعنى: أنَّ الشأنَ قاربُوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزالِ. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الأحكام ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ غيرَ ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ولو اتبعتَ مُرَادَهُم لاتَّخَذُوكَ بافتتانِكَ ولياً لهم بريئاً مِنْ ولايتي.

(٧٤) ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تَثْبِيتُنَا إيَّاكَ. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لقاربْتَ أن تميلَ إلى اتِّبَاعِ مُرَادِهِم، والمعنى أنك كنتَ على صَدَدِ الركونِ إليهم لقوةِ خِدَعِهِم وشِدَّةِ احتيالِهم لكِنْ أَدْرَكَتْكَ عِصْمَتُنَا فَمُنِعْتَ أن تَقْرَبَ من الركون فضلاً أن تَرْكَنَ إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما همّ بإجابتهم مع قوة الدواعي. إليها، ودليل على أن العصمةَ بتوفيق الله وحِفْظِهِ.

(٧٥) ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ أي لو قاربتَ لأَذَقْنَاكَ. ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة ضِعْفُ ما نعذِّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرَك لأنَّ خطأَ الخطيرِ أخطرُ. وكان أصلُ الكلام عذاباً ضِعْفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في المماتِ بمعنى مُضَاعَفاً، ثم حذفَ الموصوفَ وأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مقامَهُ، ثمَّ أضيفتْ كما يضاف موصوفُها. وقيلَ: الضِّعْفُ مِنْ أسماء العذاب. وقيل المراد بِضِعْفِ الحياة عذابُ الآخرة وضِعْفُ المماتِ عذابُ القبر: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذابَ عنك.

---

(١) معنى قولهم: لا نُعشّر ولا نُحشَر ولا نجبي في صلاتنا. أي لا ندفع العُشْر، ولا نحشر مع غيرنا ـ يريدون أن يكون لهم مجلساً خاصاً ـ ولا نجبي أي لا نقوم قيام الراكع ـ والله أعلم ـ.

(٢) نقل المناوي عن الولي العراقي قوله: لم أقف عليه، وذكر أن الثعلبي قد أخرجه عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٧٧٨) لكن أورد الواحدي في أسباب النزول (ص٢٩٧) من قول عطاء عن ابن عباس ولم يذكر له سنداً، وأخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) بمعناه من طريق العوفي عن ابن عباس وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن المسيب بسند ضعيف. لكنْ أورد السيوطي في لباب النقول (الإسراء: «٧٣») أنه أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: خرج أمية وأبو جهل ورجال من قريش فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، تعال تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه فرقّ لهم. فأنزل الله «وإن كادوا...» قال السيوطي: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد، وله شاهد.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُوا﴾ وإن كاد أهلُ مكةَ. ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونَكَ بِمُعَادَاتِهِم. ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكةَ. ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ ولو خرجتَ لا يَبْقُونَ بعدَ خُرُوجِكَ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً، وقد كانَ كذلك فإنهم أُهْلِكُوا بِبَدْرٍ بعدَ هجرتهِ بِسَنَةٍ. وقيل الآية: نزلتْ في اليهود حسدُوا مقامَ النبيِّ بالمدينة فقالوا: الشام مقامُ الأنبياء فإن كنت نبياً فالحقْ بها حتى نؤمنَ بك، فوقعَ ذلك في قلبه فخرج مرحلةً فنزلتْ، فرجع. ثم قُتِلَ منهم بنو قريظةَ وأُجْلِيَ بنو النضير بقليل[1]. وقرىء لا يَلبَثُوا منصوباً بإذا على أنه معطوف على جملة قوله: ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ لا على خبر كادَ فإن إذا لا تعملُ إذا كان مُعْتَمَدُ ما بعدَها على ما قَبْلَهَا. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص خلافَك وهو لغةٌ فيه قال الشاعر:

عفت الديار خلافَهُمْ فكأنَّما بسط الشَّواطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيراً

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدر أي سَنَّ الله ذلك سُنَّةً، وهو أن يهلكَ كلَّ أُمَّةٍ لله أَخْرَجُوا رسولَهم من بينِ أَظْهُرِهِم، فالسُّنَّةُ لله وإضافتُها إلى الرسل لأنها مِنْ أَجْلِهِم، ويدل عليه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً.

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها ويدلُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل لِدُلُوكِ الشمس حين زالت فصلى بي الظهرَ»[2]. وقيل لغروبها، وأصلُ التركيب للانتقال، ومنه الدَّلْكُ فإنَّ الدَّالِكَ لا تستقرُّ يدُه، وكذا كلُّ ما تركَّبَ من الدال واللام: كدَلَجَ ودَلَح ودَلَع ودَلَف ودَلَهَ. وقيل الدلوك مِنَ الدَّلْكِ لأنَّ الناظِرَ إليها يَدْلُكُ عينيه ليدفعَ شُعَاعَهَا، واللام للتأنيث مِثلُها في: لثلاثٍ خَلَوْنَ. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى ظُلْمَتِه وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وصلاة الصبح، سميت

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٥٤) من حديث عبدالرحمٰن بن غَنمْ وفي سنده أحمد بن عبدالجبار العطاردي مجمع على ضعفه. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٠). وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن عساكر.

(٢) أخرجه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٢/ ١٩٤ رقم ٢٣٤٤) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٣٧) وابن مردويه كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠١ رقم ٢٩٩) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري.
ـ قلت: رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي بكر بن حزم وأبي مسعود كما عند ابن مردويه. وأصل حديث أبي مسعود في الصحيحين وغيرهما بدون تفسير الوقت. انظر البخاري (٢/ ٣ رقم ٥٢١) ومسلم (١/ ٤٢٥ رقم ١٦٦/ ١٦٧/ ٦١٠) وورد تفسير الأوقات عند أبي داود (١/ ٢٧٨ رقم ٣٩٤) وقال أبو داود «روى هذا الحديث عن الزهري معمر ومالك وابن عيينة وشعيب وغيرهم ولم يذكروا الوقت الذي صلى فيه ولم يفسروه...» اهـ.
وأصله في الصحيحين من حديث أنس. وفي صحيح مسلم من حديث بريدة، انظر البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٦/ ٢٣٥٩).
وحديث بريدة: مسلم (١/ ٤٢٨ رقم ١٧٦/ ٦١٣).

قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً. واستُدل به على وجوب القراءة فيها، ولا دليلَ فيه لجواز أن يكون التجوُّزُ لكونها مندوبةً فيها، نَعَمْ لو فُسِّرَ بالقراءة في صلاة الفجر دلَّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار، أو شواهِدُ القُدرةِ مِنْ تَبَدُّلِ الظُّلْمَةِ بالضياء والنوم الذي هو أخو الموتِ بالانتباهِ، أو كثيرٌ من المصلِّينَ، أو مَنْ حقُّه أن يشهدَه الجمُّ الغفير. والآية جامعة للصلوات الخمس إن فُسِّرَ الدُّلوكُ بالزوال، ولصلواتِ الليل وحدَها إنْ فُسِّرَ بالغروب. وقيل المراد بالقرآن صلاةُ المغرب وقولُه «لدلوك الشمس إلى غسق الليل» بيان لمبدأ الوقتِ ومُنْتَهَاهُ، واسْتُدِلَّ به على أن الوقتَ يمتد إلى غروب الشفق[1].

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

(٧٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ وبعض الليل فاترك الهجودَ للصلاة[2]، والضميرُ للقرآن. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً يحمده القائم فيه وكل مَنْ عَرَفَهُ، وهو مُطْلَقٌ في كل مكان يتضمَّن كرامةً، والمشهور أنه مقامُ الشفاعة لما رَوَى أبو هريرةَ رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هوَ المقامُ الذي أَشْفَعُ فيه لأُمَّتِي»[3] ولإشعاره بأن الناسَ يَحْمَدُونَهُ لقيامه فيه وما ذاك إلا مقامُ الشفاعة. وانتصابُه على الظرفِ بإضمار فعله أي فيقيمُك مقاماً أو بتضمين يبعثُك معناه، أو الحال بمعنى أن يبعثَك ذا مقامٍ.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ أي في القبر. ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ادخالاً مُرْضِياً. ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ أي منه عندَ البعث. ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً مُلْقَىً بالكرامة، وقيل المرادُ إدخال المدينةِ والإخراجُ مِنْ مكةَ، وقيل إدخاله مكةَ ظاهراً عليها وإخراجُه منها آمِناً من المشركين، وقيلِ إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالماً،

---

(١) والإظهار في مقام الإضمار بقوله «إن قرآن الفجر...» لبيان مزيد الاهتمام به (س٥/١٨٩).

(٢) التهجد هو الاستيقاظ من النوم للصلاة (روح المعاني ١٥/١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٣٠٣ رقم ٣١٣٧) وأحمد في المسند (٢/٤٤١، ٥٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٤٨٤ رقم ١١٧٩٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٤٥ ـ ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٥/٤٨٤) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
ـ قلت في سنده: داود بن يزيد الأودي الكوفي: ضعيف. انظر الجرح والتعديل (٣/٤٢٧) والتقريب (١/٢٣٥).
ولكن للحديث شواهد انظر في «الدر المنثور» (٥/٣٢٤ ـ ٣٢٥) فبها حسن إن شاء الله.
● وفي الباب عن أنس عند البخاري (١٣/٤٢٢ رقم ٧٤٤٠).
● وعن ابن عمر عند البخاري (٣/٣٣٨ رقم ١٤٧٥).

وقيل إدخاله فيما حملَه مِنْ أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقَّه، وقيل إدخاله في كل ما يلابِسُه من مكان أو أَمْرٍ وإخراجُه منه. وقرىء مَدْخَلَ ومَخْرَجَ بالفتح على معنى أدخلني فأدخلَ دخولاً وأخرجني فأخرجَ خروجاً. ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حُجَّةً تنصرني على مَنْ خالفني أو مَلِكاً ينصرُ الإسلامَ على الكفر، فاستجابَ له بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1] ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وذهب وهلك الشِّركُ، مِنْ زَهَقَ روحُه إذا خرجَ. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مُضْمَحِلاً غيرَ ثابتٍ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يومَ الفتح وفيها ثلثُمائةٍ وستونَ صنماً، فجعلَ ينكتُ بِمِخْصَرَتِهِ في عينِ كلِّ واحدٍ منها فيقولُ جاء الحق وزَهَقَ الباطلُ فَيَنْكَبُّ لوجْهِه، حتى أَلْقَى جميعَها وبقي صنمُ خُزَاعةَ فوقَ الكعبة وكان مِنْ صُفْرٍ فقال: «يا عليُّ ارمِ به» فصعدَ فَرَمَى به فكسَرهُ[4].

(٨٢) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسِهم كالدواء الشافي للمرضى، ومِنْ للبيان فإنَّ كلَّه كذلك. وقيل إنه للتبعيض والمعنى أن منه ما يَشْفِي من المرض كالفاتحة وآياتِ الشفاء. وقرأ البصريان نُنْزِلُ بالتخفيف. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به[5].

(٨٣) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسَّعَةِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذِكْرِ الله. ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لَوَى عِطْفَه وبَعُدَ بِنَفْسِهِ عنه كأنه مُسْتَغْنٍ مُسْتَبِد بِأَمْرِه، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبِرِيْن. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذَكْوَانَ هنا وفي فُصِّلَتْ[6] وناءَ، على القلبِ أو على أنه بمعنى نَهَضَ. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو فَقْرٍ[7]. ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديدَ اليأس مِنْ رَوْحِ الله.

---

(١) المائدة: «٥٦».
(٢) الصف: «٩».
(٣) النور: «٥٥».
(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٤٠٠ رقم ٤٧٢٠) ومسلم (٣/ ١٤٠٨ رقم ٨٧/ ١٧٨١) والترمذي (٥/ ٣٠٣ رقم ٣١٣٨) والنسائي في التفسير (١/ ٦٦٥ رقم ٣١٧) والطبراني في الصغير (١/ ٧٧ ـ ٧٨) عنه.
● وأخرج البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٧١ ـ ٧٢) عن ابن عباس، قال «دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم قال: فأخذ قضيبه فجعل يهوي به على صنمٍ صنمٍ وهو يهوي حتى مَرَّ عليها كلها» وإسناده ضعيف.
(٥) وإسناد الزيادة للقرآن ـ مع كونهم هم المزدادون بسوء صنيعهم ـ باعتبار كون القرآن سبباً في ذلك (س٥/ ١٩١).
(٦) فصلت: «٥١».
(٧) وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل كلُّ أحد يعملُ على طريقته التي تشاكِلُ حالَه في الهُدَى والضلالة، أو جَوْهَرَ رُوحِهِ وأحوالَه التابعةَ لمزاج بَدَنِهِ. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدُّ طريقاً وأَبْيَنُ مِنْهَجاً، وقد فُسِّرَتِ الشَّاكِلَةُ بالطبيعة والعادةِ والدِّينِ.

(٨٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدنُ الإنسان ويدبِّره. ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ من الإبداعياتِ الكائنة بِكُنْ من غيرِ مادةٍ وتُولُّدٍ مِنْ أَصْلٍ كأعضاءِ جسدِهِ، أو وُجِدَ بِأَمْرِهِ وحَدَثَ بتكوينه على أن السؤالَ عن قِدَمه وحدوثه. وقيل مما استأثر اللهُ بِعِلْمِهِ، لما رُوِيَ أنَّ اليهود قالوا لقريش سَلُوهُ عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوح، فإنْ أجابَ عنها أو سكتَ فليسَ بنبيٍّ، وإنْ أجابَ عن بعضٍ وسكتَ عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فَبَيَّنَ لهمُ القِصَّتَيْنِ وأَبْهَمَ أَمْرَ الرُّوحِ وهو مُبْهَمٌ في التوراة[1]. وقيل الروحُ جبريلُ، وقيل خَلْقٌ أعظمُ مِنَ الْمَلَكِ، وقيل القرآنُ، ومِنْ أَمْرِ رَبِّي معناه مِنْ وحْيِهِ. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسُّطِ حواسِّكم، فإنَّ اكتسابَ العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل مَنْ فَقَدَ حِسّاً فَقَدْ فَقَدَ عِلْماً. ولعلَّ أَكْثَرَ الأشياءِ لا يدركه الحِسُّ ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفةُ ذاته إلا بِعَوَارِضَ تُمَيِّزُهُ عمَّا يَلْتَبِسُ به، فلذلك اقتصرَ على هذا الجوابِ كما اقتصرَ موسى في جواب «وما ربُّ العالمين؟» بِذِكْرِ بعضِ صفاته. رُوِيَ: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: أنحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: «بل نحن وأنتم»، فقالوا: ما أعجبَ شَأْنَكَ! ساعةً تقولُ «ومَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً»[2]، وساعةً تقول هذا، فنزلتْ[3]: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

= كذلك (س٥/ ١٩١).

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٠٢ رقم ٣٠٦): «لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة ـ (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٩) ـ عن زياد عن أبي إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في «الدلائل» ـ (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) ـ من طريقه: «أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن ثلاث: فإذا عرفها فهو نبي: سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا القصة بطولها» اهـ.
●وأخرج البخاري (١/ ٢٢٣ رقم ١٢٥) ومسلم (٤/ ٢١٥٢ رقم ٣٢/ ٢٧٩٤) عن ابن مسعود قال بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خِرَب المدينة ـ وهو يتوكأ على عسيب معه ـ فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سلوه عن الروح. وقال بعضُهم لا تسألوهُ لا يجيءُ فيه بشيء تكرهونَه. فقال بعضُهم لنسألَنَّهُ، فقام رجلٌ منهم فقال يا أبا القاسم، ما الروحُ؟ فسكتَ. فقلت: إنَّهُ يُوحىٰ إليه، فقمتُ فلما انجلى عنه فقال: ﴿يسألونكَ عن الروح. قُل الروحُ من أمرِ رَبِّي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].
قال الأعمشُ: هكذا في قراءتِنا.

(٢) البقرة: «٢٦٩».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٠٢ رقم ٣٠٧): (ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راوٍ.
وروى ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة. لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال: =

شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[١]. وما قالوه لِسُوءِ فَهْمِهِم، لأنَّ الحكمةُ الإنسانيةَ أنْ يعلمَ مِنَ الخيرِ والحقِّ ما تَسَعُهُ القوةُ البشرية بل ما ينتظم به معاشُه ومعادُه، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهايةَ لها قليلٌ يُنَالُ به خيرُ الدارين وهو بالإضافة إليه كثيرٌ.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم ولنذهبن جوابُه النائبُ مناب جزاء الشرط، والمعنىٰ إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور[٢] ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَنْ يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ فإنها إن نَالَتْكَ فلعلها تسترُدُّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غيرَ مذهوبٍ به، فيكون امتناناً بإبقائه بعدَ الْمِنَّةِ في تنزيله. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حِفْظِهِ.

(٨٨) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في البلاغة وحُسْنِ النَّظْمِ وكمال المعنى[٣]. ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وفيهم العربُ العَرْبَاءُ وأربابُ البيان وأهل التحقيق[٤]، وهو جواب قَسَمٍ محذوف دلَّ عليه اللامُ الموطِّئَةُ، ولولا هيَ لكانَ جوابُ الشرط بلا جَزْمٍ لكونِ الشرط ماضياً كقول زهير:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَلِيــلٌ يَــوْمَ مَسْــأَلَــةٍ ... يَقُــولُ لاَ غَــائِــبٌ مَــالــي وَلاَ حَــرَمُ

= لما نزلت هذه الآية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى: «لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر» هـ.
قلت: وأخرج أحمد في المسند (١/ ٢٥٥) والطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٥) من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.
كما أخرج الطبري في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٥٧) عن عطاء بن يسار بإسناد ضعيف. لأن شيخ ابن إسحاق لم يسم.

(١) لقمان: «٢٧».

(٢) عبر عنه بالموصول «بالذي...» تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيز الصلة ابتداء وإعلاماً بحاله من أول الأمر وأنه ليس من قبيل كلام المخلوق (س٥/ ١٩٣).

(٣) وتخصيص الثقلين من الإنس والجن بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة (س٥/ ١٩٣).

(٤) وإيثار الإظهار «بمثله» على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكورِ احترازاً عن أن يتوهم أنّ له مثلاً معيناً، وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثلٍ ما. (س٥/ ١٩٣).

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكةَ لأن إتيانَهم بمثلِهِ لا يخرجُه عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائطَ في إتيانه، ويجوز أن تكون الآيةُ تقريراً لقوله: ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا بوجوهٍ مُخْتَلِفَةٍ زيادةً في التقرير ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى كالمَثَلِ في غرابته ووقوعه مَوْقِعَها في الأنفُسِ. ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يَجُزْ: ضَرَبْتُ إلاَّ زيداً لأنه مُتَأَوَّلٌ بالنفي.

(٩٠) ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ تعنُّتاً واقتراحاً بعدَ ما لزمتْهمُ الحجَّةُ ببيانِ إعجازِ القرآن وانضمامِ غيرِه منَ المعجزات إليه. وقرأ الكوفيونَ ويعقوبُ تَفْجُرَ بالتخفيف. والأرضُ أرضُ مكةَ، والينبوعُ عَيْنٌ لا يَنْضُبُ ماؤُها، يَفْعُول مِنْ نَبَعَ الماءُ كَيَعْبُوبٍ مِنَ عبَّ الماءُ إذا زَخَرَ.

(٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أو يكونَ لك بستانٌ يشتمل على ذلك.

(٩٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يَعْنُونَ قولَه تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[1] وهو كَقِطَعٍ لفظاً ومعنى. وقد سكَّنه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في الرُّوم[2]، وابن عامر إلا في هذه السورةِ، وأبو بكر ونافع في غيرِهما وحفصٌ فيما عدا الطُّور[3]، وهو إما مُخَفَّفٌ من المفتوح كَسِدْرَةٍ وسِدَرٍ، أو فِعْل بمعنى مفعول كالطِّحْن. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ كفيلاً بما تدَّعيه أي شاهداً على صحته ضامِناً لدركه، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشِر. وهو حال من الله، وحال الملائكة محذوفةٌ لدلالتها عليها كما حذف الخبر في قوله:

فإني وقَيَّار بها لغريبُ

أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

(٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، وقد قرىء به، وأصله الزينة. ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ في

---

(١) سبأ: «٩».
(٢) الروم: «٤٨».
(٣) الطور: «٤٤».

معارجها. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وحدَه. ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ وكان فيه تصديقُك. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ تعجُّباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتيَ أو يتحكَّمَ عليه أو يشارِكَه أحدٌ في القدرة. وقرأ ابن كثير وابن عامر: قال سبحان ربي، أي قال الرسول. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس. ﴿رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومَهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حالَ قومهم، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكَّموا على الله حتى يتخيَّروها، على هذا هو الجواب المجْمَلُ وأما التفصيلُ فقد ذُكِرَ في آيات أُخَرَ كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾[1] ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾[2].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي وما منعهم الإيمانُ بعد نزول الوحي وظهور الحق. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ إلا قولَهم هذا[3]، والمعنى أنه لم يبقَ لهم شُبْهَةٌ تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآنِ إلا أنكارَهم أن يُرْسِلَ الله بشراً.

(٩٥) ﴿قُل﴾ جواباً لشبهتهم. ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم. ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لِتُمَكِّنَهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعامَّتُهم عُمَاةٌ عن إدراكِ الْمَلَكِ والتلقفِ منه، فإنَّ ذلك مشروطٌ بنوعٍ من التناسب والتجانس. ومَلَكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به، وكذلك بشراً، والأول أَوْفَقُ.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزةَ على وُفْقِ دعواي، أو على أني بلَّغتُ ما أُرْسِلْتُ به إليكم وأنكم عاندتُم[4]. وشهيداً نُصِبَ على الحال، أو التمييز. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالهم الباطنةَ منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ للكفار.

(٩٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ يهدونه[5]. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) الأنعام: «٧».

(٢) الحجر: «١٤».

(٣) وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجردُ قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق. وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر ـ مع أن لهم موانع شتىٰ ـ لأنه معظمها، أو لأنه هو المانع بحسب الحال (س٥/ ١٩٥).

(٤) قوله «بيني وبينكم» ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة وإبانة للمباينة (س٥/ ١٩٦).

(٥) قوله «فلن تجد لهم» حيث أوثر ضمير الجماعة اعتباراً لمعنى من غِبَّ ما أوثر في مقابله الإفراد نظراً إلى لفظها =

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحَبُونَ عليها أو يمشون بها. روي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أَمْشَاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيهم على وجوههم»[1] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم ولا يسمعون ما يلذُّ مسامعَهم ولا ينطقون بما يُقْبَلُ منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعِبَر وتصامُّوا عن استماع الحقِّ وأَبَوْا أن ينطقوا بالصِّدْقِ، ويجوز أن يحشروا بعدَ الحساب مِنَ الموقفِ إلى النار مَؤُوفي[2] القِوَى والحواسّ. ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سَكَنَ لهبُها بأن أَكَلَتْ جلودَهم ولحومَهم. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقُّداً بأنْ نُبَدِّلَ جلودَهم ولحومَهم فتعود ملتهبةً مستعِرةً، كأنهم لما كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء، وإليه أشار بقوله:

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدَّم من عذابهم.

(٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أولم يعلموا. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشدَّ خَلْقاً منهن ولا الإعادةُ أصعبُ عليه من الإبداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائنَ رزقه وسائرَ نعمه. وأنتم مرفوع بفعل يفسِّره ما بعدَه، كقول حاتم: لو ذاتُ سِوَارٍ لطمتْني، وفائدةُ هذا الحذف والتفسيرِ: المبالغةُ مع الإيجاز، والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ لَبَخِلْتُم مخافةَ النَّفَادِ بالإنفاق، إذ لا أحدَ إلا ويختار النفعَ لنفسه، ولو آثرَ غيرَه بشيء فإنما يؤثره لِعِوَضٍ يفوقُه، فهو إذن بخيلٌ بالإضافة إلى جُودِ الله تعالى وكَرَمِه هذا وإنَّ البخلاءَ أغلبُ فيهم. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأنَّ بناءَ أَمْرِهِ على الحاجة والضنَّةِ بما يحتاج إليه وملاحظة العِوَضِ فيما يبذُله.

= تلويحاً بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلاَّل (ص٥/ ١٩٦).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣) والترمذي (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وإسحاق والبزار ـ كما في «الكافي الشافي» (ص١٠٢ رقم ٣٠٨) ـ من حديث أبي هريرة. وفيه علي بن مرثد وهو ضعيف. قال البزار: لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلاَّ بهذا الإسناد. ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفيع عن أنس مثله.
وأصله في الصحيحين ـ البخاري (١١/ ٣٧٧ رقم ٦٥٢٣) ومسلم (٤/ ٢١٦١ رقم ٢٨٠٦/٥٤) ـ عن أنس أن رجلاً قال: «يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) قوله مؤوفي: أي أصابتهم آفة القوىٰ والحواس ففقدوها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ هي العصَا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وانفجارُ الماء مِنَ الحَجَرِ وانفلاقُ البحر ونَتْقُ الطُّور على بني إسرائيل، وقيل: الطوفانُ والسِّنُونَ ونقصُ الثمرات مكانَ الثلاثةِ الأخيرة. وعن صفوانَ[1] أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلُوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تسحَروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان ليقتلَه، ولا تقذِفُوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرُّوا منَ الزَّحْفِ، وعليكم خاصَّةَ اليهود أنْ لا تَعْدُوا في السبت» فَقَبَّلَ اليهوديُّ يدَه ورِجْلَه[2]. فعلى هذا المراد بالآيات الأحكامُ العامةُ لِلْمِلَلِ الثابتة في كلِّ الشرائع، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تدل على حال مَنْ يتعاطى مُتَعَلَّقَهَا في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصَّةَ اليهود أن لا تَعْدُوا، حُكْمٌ مُسْتَأْنَفٌ زائد على الجواب، ولذلك غيَّرَ فيه سياقَ الكلام. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فقلنا له سَلْهم مِنْ فرعونَ ليُرسلَهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءةُ رسولِ الله ﷺ فَسَأَلَ على لفظ المضي بغير همزٍ وهو لغةُ قريش وإذ متعلِّق بقلنا أو سأل على هذه القراءةِ، أو فاسألْ يا محمد بني إسرائيلَ عما جَرَى بين موسى وفرعونَ إذ جاءَهم، أو عن الآيات لِيَظْهَرَ للمشركين صدقُك أو لتتسلّى نفسُك أو لِتَعْلَم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأَصَرُّوا على العناد والمكابرة كَمَنْ قبلَهم، أو ليزداد يقينُك لأنَّ تظاهرَ الأدلة يوجِبُ قوةَ اليقين وطمأنينةَ القلب وعلى هذا كان إذْ نَصْباً بآتينا أو بإضمارٍ يخبروك على أنه جواب الأمرِ أو بإضمار اذْكُرْ على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سُحِرْتَ فتخبَّطَ عقلُك.

(١٠٢) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ. وقرأ الكسائي بالضمِّ على إخباره عن نفسه. ﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند، وانتصابه على الحال[3]. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشرِّ من قولهم: ما ثَبَرَكَ عن هذا؟ أي ما صَرَفَكَ، أو هالكاً. قَارَعَ ظنَّه بِظَنِّهِ وشتَّانَ ما بينَ الظَّنَّيْن، فإنَّ ظنَّ فرعونَ كَذِبٌ بَحْتٌ وظنَّ

---

(١) صفوان بن عسال: هو صفوان بن عسال المرادي، نزل الكوفة وروي عنه ابن مسعود مع جلالته. (١/ ٢٦٦ رقم ٢٨٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٧ رقم ٢٧٣٣) و(٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٤) والنسائي (٤/ ١٩٢ ـ تحفة الأشراف) وابن ماجة (٢/ ١٢٢١ رقم ٣٧٠٥) والحاكم (١/ ٩).
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح لا يعرف له علة. وقال الذهبي: صحيح لا نعرف له علة ومع ذلك فقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف النسائي والترمذي وابن ماجة.

(٣) والتعرض لربوبيته تعالى للسموات والأرض للإيذان بأنه لا يقدر على إيتاء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقُهما ومدبرهما (س٥/ ١٩٨). =

موسى يحومُ حولَ اليقين مِنْ تظاهُرِ أماراتهِ. وقرىء وإن أَخَالُكَ يا فرعونُ لمثبوراً على إنْ المخففة واللام هي الفارِقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ. ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أن يستخف موسى وقومَه وينفيهم[1]. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مِصْرَ أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مَكْرَهُ فاستفزَزْناه وقومَه بالإغراق.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعونَ أو إغراقه. ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الكَرَّةُ أو الحياةُ أو الساعةُ أو الدار الآخرة، يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مُخْتَلِطِينَ إياكم وإياهم ثم نَحْكُم بينَكُم ونُمَيِّزُ سُعَدَاءَكُم من أشقيائكم، واللفيفُ الجماعاتُ من قبائلَ شتَّى.

(١٠٥) ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا مُلْتَبِساً بالحق المقتضِي لإنزاله، وما نَزَل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرَّصَدِ من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفيَ اعتراءِ البُطْلانِ له أوَّلَ الأمْرِ وآخرَه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب، فلا عليك إلا التبشيرُ والإنذارُ.

(١٠٦) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقاً مُنَجَّماً. وقيلَ فرَّقْنا فيه الحقَّ من الباطل فحذف الجارَّ كما في قوله: ويوماً شهدناه. وقرىء بالتشديد لكثرة نُجومِه فإنه نزلَ في تضاعيفِ عشرينَ سنة. ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على مَهْلٍ وتُؤَدَةٍ، فإنه أَيْسَرُ للحفظ وأعونُ في الفهْم. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

(١٠٧) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيدُه كمالاً وامتناعَكم عنه لا يورِثه نَقْصاً، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَنْ هو خيرٌ منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقةَ وعرفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوة وتمكنوا من الْمَيْزِ بينَ المحقِّ والْمُبْطِلِ، أو رأوا نعتَك وصِفَةَ ما أُنْزِلَ إليكَ في تلك الكتبِ، ويجوز أن يكونَ تعليلاً لِقُلْ على سبيل التسلية كأنه قيل: تَسَلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترثْ بإيمانهم وإعراضِهم. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ

(١) أصل الاستفزاز الإزعاج، وقد كنىٰ به عن إخراجهم (روح المعاني ١٥/١٨٦).

عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لإنجازِ وَعْدِهِ في تلك الكتبِ ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزالِ القرآن عليه.

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾ عن خَلْفِ الموعِد. ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعدُه كائناً لا محالة.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كَرَّرَهُ لاختلاف الحال والسبب، فإن الأَوَّلَ للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حالَ كونهم باكينَ من خشية الله، وذَكَرَ الذَّقْنَ لأنه أَوَّلَ ما يَلْقَى الأرضَ من وجه الساجد[1]، واللام فيه لاختصاص الْخُرُوْرِ به. ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماعُ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله.

(١١٠) ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ نزلتْ حين سمعَ المشركونَ رسولَ الله يقول: يااللهُ يا رحمانُ، فقالوا إنه ينهانا أن نعبدَ إِلَهَيْنِ وهو يدعو إلهاً آخرَ[2]، أو قالت اليهود: إنك لَتُقِلُّ ذِكْرَ الرَّحمنِ وقد أكثره اللهُ في التوراة[3]. والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظينِ بأنهما يُطلقَان على ذاتٍ واحدة وإن اختلف اعتبارُ إطلاقهما، والتوحيدُ إنما هو للذات الذي هو المعبودُ المطلَقُ وعلى الثاني أنهما سِيَّانِ في حُسنِ الإطلاق والإفضاءِ إلى المقصود وهو أَجْوَدُ لقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية، وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أوّلُهما استغناء عنه، وأو للتخيير، والتنوين في أياً عوض عن المضاف إليه، وما صلةٌ لتأكيد ما في أياً من الإبهام، والضميرُ في فله للمسمىٰ لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام أيّاً ما تدعو فهو حسن، فَوُضِعَ موضعَه فله الأسماءُ الحسنى للمبالغة والدَّلالةِ على ما هو الدليل عليه وكونُها حُسْنَى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك حتى تُسْمِعَ المشركين، فإنَّ ذلك يحملُهم على السبِّ واللَّغْوِ فيها. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تُسْمِعَ مَنْ خَلْفَكَ من المؤمنين. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافَتَةِ. ﴿سَبِيلًا﴾ وَسَطاً فإن الاقتصادَ في جميع الأمور محبوب. رُوِيَ أن أبا بكر رضي الله عنه كان يُخْفِتُ ويقول: أُناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمرُ رضي الله عنه كان يَجْهَرُ ويقول أَطردُ الشيطان وأوقظُ الوَسْنانَ، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمرَ أن يخفِضَ

---

(١) أو للدلالة على إكمال التذلل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ١٨٢) عن ابن عباس بسند ضعيف.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٨) نسبته لابن مردويه.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٠٣) عن الضحاك بدون إسناد.

قليلاً[١]. وقيل معناه لا تجهر بصلاتِك كلِّها ولا تخافِتْ بها بأَسْرِها وابتغِ بينَ ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهرِ ليلاً[٢].

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ في الأُلوهيَّةِ. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ وَلِيٌّ يواليه مِنْ أجلِ مَذَلَّةٍ به ليدفعَها بموالاته. نفىٰ عنه أنْ يكونَ له ما يشاركه من جِنْسه ومن غيرِ جنسه اختياراً واضطراراً وما يعاونه ويقوِّيه، ورتَّبَ الحمدَ عليه للدلالة على أنه الذي يستحقُّ جِنْسَ الحمدِ لأنهُ الكاملُ الذاتِ المنفردُ بالإيجاد المنعِمُ على الإطلاق وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نِعْمةً أو مُنْعَمٌ عليه، ولذلك عَطَفَ عليه قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وفيه تنبيه على أن العبدَ وإن بَالَغَ في التنزيه والتمجيد واجتهدَ في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترفَ بالقصور عن حقِّه في ذلك.

رُوِيَ أنه ﷺ كان إذا أفصحَ الغلامُ من بني عبدِالمطلب علَّمه هذه الآية[٣]، وعنه عليه السلام «من قرأ سورةَ بني إسرائيلَ فَرَقَّ قلبُه عند ذكرِ الوالدين، كان له قِنْطَارٌ في الجنة»[٤] والقنطار ألفُ أُوقِيَّةٍ ومائتا أوقية. والله أعلم بالصواب وإليه المرجِعُ والمآبُ.

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/١٨٦) عن محمد بن سيرين بسند صحيح.
وأصله عند أبي داود (٢/ ٨١ ـ ٨٢ رقم ١٣٢٩) والترمذي (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٠ رقم ٤٤٧) والحاكم (١/ ٣١٠) عن أبي قتادة.
قال الترمذي: هذا حديث غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.
وصححه الألباني والله أعلم.

(٢) قوله «وابتغِ بين ذلك سبيلاً» أي وسطاً، وعبر عنه بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب (س٥/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٤٢٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٥٦ رقم ١٠٣٢٨) عن عمرو بن شعيب.
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ٣٣٤ رقم ٧٩٧٦) عن عبدالكريم أبي أمية.
قلت: في الطرق الثلاثة (عبدالكريم أبي أمية) وهو ضعيف.

(٤) حديث موضوع، رواه ابن مردويه والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٧٩١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

سورة الكهفِ مكيةٌ[1]

وقيلَ إلا قولَه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية[2]، وهي مائةٌ وإحدى عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآنَ، رتب استحقاقَ الحمد على إنزاله تنبيهاً على

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٠٢): «روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية وكذلك قال الحسن، ومجاهد، وقتادة. وهذا إجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه. إلاّ أنه قد رويَ عن ابن عباس، وقتادة أن منها آية مدنية، وهي قوله «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]».
ـ وقال مقاتل: من أولها إلى قوله تعالى: «صعيداً جرزاً» [الكهف: ٨]، مدني. وقوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] الآيتان مدنية وباقيها مكي» هـ.
ـ وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٤): «أخرج النحاس في ناسخه، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة.
ـ وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: نزلت سورة الكهف بمكة» هـ.
ـ وقال ابن حبيب الماوردي في «النُكت والعيون» (٣/ ٢٨٣) «سورة الكهف مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلاّ آية منها وهي قوله تعالى «واصبر نفسك» [الكهف: ٢٨]» هـ.
وصحح ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٣٦١) بأن سورة الكهف مكية.

(٢) الكهف: «٢٨».

أنه أعظمُ نعْمائِه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمالُ العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاحُ المعاش والمعاد[١] . ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً﴾ شيئاً من العِوَجِ باختلالٍ في اللفظ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ من الدعوة إلى جنَاب الحق. وهو في المعاني كالعَوَج في الأعيان.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراطَ فيه ولا تفريطَ، أو قيِّما بمصالح العباد فيكونُ وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها. وانتصابُه بمضمَرٍ تقديره جعلَه قيماً، أو على الحال من الضميرِ في له، أو من الكتاب على أن الواوَ في «ولم يجعل» للحال دون العطفِ، إذ لو كان للعطف لكان المعطوفُ فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديمٌ وتأخيرٌ. وقرىء قِيَماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر الذينَ كفروا عذاباً شديداً، فحُذف المفعولُ الأول اكتفاءً بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المَسوقِ إليه. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده. وقرأ أبو بكر بإسكان الدال ـ كإسكان الباء من سبْع مع الإشمام ليدل على أصله ـ وكسر النونِ لالتقاء الساكنين وكسرِ الهاء للإتباع[٢] . ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة[٣] .

(٣) ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاع.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذارَ متعلِّقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذَرَ به استغناءً بتقدُّم ذكره[٤] .

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مُفْرِط وتوهم كاذب أو تقليدٍ لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأبَ والابن بمعنى المؤثِر والأثَر. أو بالله، إذ لو علموه لما جوَّزوا نسبةَ الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين تقوَّلُوه بمعنى التبني. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمَت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريكِ وإيهامِ احتياجه تعالى إلى ولد يُعينه ويخلُفه إلى غير ذلك من الزيغ، وكلمةً نصبٌ على التمييز. وقرىء بالرفع على الفاعلية، والأولُ أبلغُ وأدلُّ على المقصود. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفةٌ لها، تفيد استعظامَ اجترائهم على إخراجها من أفواهم، والخارج بالذات هو الهواء الحاملُ لها. وقيل صفةُ محذوفٍ هو المخصوصُ بالذم لأن كِبَرَها هنا بمعنى بئس. وقرىء كبُرت بالسكون مع الإشمام. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

---

(١) قوله «الحمد لله الذي..» في وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما في حيّز الصلة لاستحقاق الحمد وإيذان بعظم شأن التنزيل.
وقوله «عبده» في التعبير عنه بالعبد مضافاً إلىٰ ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه إلى أعلى معارج العبادة، وتشريف له، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمُرْسِل لا كما زعمت النصارىٰ في حق عيسىٰ عليه السلام.
وتأخير المفعول الصريح «الكتابَ» عن الجار والمجرور ـ مع أن حقه التقديم ـ وذلك ليتصل به قوله تعالى «ولم يجعل له عوجاً» (س٥/ ٢٠٢).

(٢) قراءة أبي بكر «لَدْنِه».

(٣) وإجراء الموصول «الذين» على موصوفه المذكور «يعملون الصالحات» لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.
وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية (س٥/ ٢٠٣).

(٤) وإيثار صيغة الماضي في «قالوا» للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم (س٥/ ٢٠٣).

فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلُها. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ إذا ولَّوا عن الإيمان، شبَّهَهُ لما يداخله من الوجْد على تولِّيهم بمن فارقَتْهُ أعِزَّتُه فهو يتحسرُ على آثارهم ويبخعُ نفسَه وجْداً عليهم. وقُرِئَ باخعُ نفسِك، على الإضافة. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآنِ. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسِفاً عليهم، والأَسَفُ فَرْطُ الحزنِ والغضب. وقرىء أنْ بالفتحِ على لأَن، فلا يجوز إعمال باخعٌ إلا إذا جُعِلَ حكايةَ حالٍ ماضية.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو مَنْ زهِد فيه ولم يغترَّ به وقنِعَ منه بما يزجي به أيامَه وصَرَفَهُ على ما ينبغي. وفيه تسكينٌ لرسول الله ﷺ[1].

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تزهيدٌ فيه، والجرُز الأرضُ التي قطع نباتُها. مأخوذ من الْجَرَزِ وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعله كصعيدٍ أملسَ لا نباتَ فيه.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدةً مديدة. ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ وقصتَهم ـ بالإضافةِ إلى خلقِ ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفائتة للحصر على طبائعَ متباعدةٍ وهيئاتٍ متخالفةٍ تُعجِبُ الناظرين من مادة واحدة ثم ردِّها إليها ـ ليس بعجيب، مع أنه من آيات الله كالنزْرِ الحقير. والكهفُ: الغار الواسع في الجبل. والرقيمُ: اسم الجبلِ أو الوادي الذي فيه كهفُهم، أو اسمُ قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصَّلْتِ[2].

وَلَيْسَ بِهَا إِلاَّ الرَّقِيمُ مُجَاوِراً وَصَيْدُهُمُو وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُجَّدُ[3]

---

(١) وإيراد صيغة التفضيل «أحسنُ» ـ مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن ـ للإشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين (س٥/ ٢٠٥).

(٢) واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عون الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.
وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء ـ ٣٢٩ ـ وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرُج قد أظلّ زمانه وكان يؤمِّل أن يكون ذلك النبيّ، فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.
لم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً، في التاسعة، وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون.
[«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣)].

(٣) من الطويل.

أو لوحٌ رصاصيٌّ أو حجري رُقِمتْ فيه أسماؤُهم وجعل على باب الكهف. وقيل أصحاب الرقيم قومٌ آخرونَ كانوا ثلاثةً خرجوا يرتادون لأهلهم، فأخذتْهم السماء فأوَوْا إلى الكهف فانحطت صخرة وسدت بابَهُ. فقال أحدهم اذكروا أيُّكم عمل حسنةً لعل اللهَ يرحمنا ببركته. فقال أحدهم: استعملتُ أُجَرَاءَ ذات يوم فجاء رجل وسطَ النهار وعمل في بقيته مثلَ عملهم فأعطيتُه مثلَ أجرِهم، فغضب أحدهم وترك أجرَهُ فوضعْتُه في جانبِ البيت، ثم مرّ بي بقر فاشتريت به فصيلةً فبلغتْ ما شاء الله، فرجع إليَّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إنه لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتُها إليه جميعاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك لوجهك فافرُجْ عنا، فانصدعَ الجبلُ حتى رأوا الضوءَ. وقال آخر: كان فيَّ فضل وأصابت الناسَ شدَّةٌ، فجاءتْني امرأةٌ فطلبت مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسِك، فأبتْ وعادت ثم رجعت ثلاثاً، ثم ذكرتْ لزوجها فقال أجيبي له وأغيثي عيالَكِ، فأتتْ وسلَّمتْ إليَّ نفسَها، فلما تكشفتُها وهممتُ بها ارْتَعَدَتْ، فقلت: مالكِ؟! قالت أخاف الله، فقلت لها: خِفْتِهِ في الشدة ولم أخفْهُ في الرخاء فتركتها وأعطيتها مُلْتَمَسَها، اللهم إن كنتُ فعلتُه لوجهك فافرج عنا، فانصدع حتى تعارفوا. وقال الثالث كان لي أبوانِ هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي، فحبسني ذاتَ يوم غيثٌ فلم أبْرَحْ حتى أمسيت، فأتيت أهلي وأخذت مَحْلَبي فحلبتُ فيه ومضيت إليهما، فوجدتُهما نائمينِ فشقَّ علي أن أوقظَهُما، فتوقعت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظَهُما الصبحُ فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلتُه لوجهك فافرُج عنا. ففرَّج الله عنهم فخرجوا. وقد رفع ذلك نعمانُ بنُ بشير[1].

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ يعني فتيةً من أشراف الروم أرادهم دَقيانوسُ على الشرك فأبَوا وهربوا إلى الكهف، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ توجِبُ لنا المغفرةَ والرزقَ والأمن من العدو. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار. ﴿رَشَدًا﴾ نصيرُ بسببه راشدينَ مهتدينَ، أو اجْعَلْ أمرَنا كلَّه رَشَداً كقولك: رأيت منك أَسَداً. وأصلُ التهيئة إحداثُ هيئةِ الشيء[2].

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماعَ، بمعنى أَنَمْنَاهُم إنامةً لا تُنَبِّهُهُم فيها الأصواتُ، فحذف المفعول كما حذف في قولهم: بَنىٰ على امرأته[3]. ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) والقصة في الصحيحين من حديث ابن عمر:
البخاري (٤/ ٤٠٨ رقم ٢٢١٥) ومسلم (٤/ ٢٠٩٩ ـ ٢١٠١ رقم ٢٧٤٣).

(٢) وتقديم المجرورين «لنا، من أمرنا» على المفعول الصريح «رشداً» لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله...
وتقديم «لنا» على «من أمرنا» للإيذان من أول الأمر بكون المسؤول مرغوباً فيه لديهم (س٥/ ٢٠٦).

(٣) وتخصيص الآذان بالذكر ـ مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم ـ لما أنها المحتاج إلى

ظرفانِ لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذواتِ عَدَدٍ، ووصْفُ السنينَ به يحتمل التكثيرَ والتقليلَ، فإن مدة لُبْثِهم كبعض يوم عنده.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمُنا تعلُّقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لُبثهم. ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ ضَبَطَ أمدَ الزمانِ لُبْثَهم. وما في أيُّ من معنى الاستفهام عَلَّقَ عنه لنعلم، فهو مبتدأ وأحصى خبرُه. وهو فعل ماض وأمداً مفعول له ولما لبثوا حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدةٌ وما موصولة وأمداً تمييز، وقيل أحصى اسم تفضيلٍ من الإحصاء بحذف الزوائدِ كقولهم: هو أحصَىٰ للمال وأفلسُ من ابنِ المُذَلَّقِ، وأمداً نصب بفعل دل عليه أحصى كقوله:

وَأَضْرَبُ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبَّان، جمع فَتيّ كصبيٌّ وصِبْيَةٍ. ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بالتثبيت[1].

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجراءةِ على إظهار الحق والرد على دَقيانوسَ الجبارِ. ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بُعْدٍ عن الحق مُفْرِطٍ في الظلم[2].

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيان. ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنى إنكار. ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم. ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدينَ لا يُؤْخَذُ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليلَ عليه من الديانات مردودٌ وأن التقليد فيه غيرُ

= الحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالباً لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق (س٥/ ٢٠٦).

(١) والالتفات إلى الغيبة «إنهم فتية...» للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم، ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكىٰ عنهم (س٥/ ٢١٠).

(٢) قالوا «لن ندعو من دونه إلهاً» ولم يقولوا رباً، وذلك للتنصيص على رد المخالفين حيثُ كانوا يسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية، وللإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية (س٥/ ٢١٠).

جائز. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريكِ إليه.

(١٦) ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطابٌ بعضِهم لبعض. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القومَ ومعبوديهم إلا اللهَ، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنامَ كسائر المشركينَ. ويجوز أن تكون ما مصدريةً على تقدير وإذ اعتزلتموهم وعبادتَهم إلا عبادةَ الله، وأن تكونَ نافيةً على أنه إخبار من الله تعالى عن الفِتْيةِ بالتوحيد معترِضٌ بين إذ وجوابِه لتحقيق اعتزالهم. ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يبسُطِ الرزق لكم ويوسِّعْ عليكم. ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزْمُهم بذلك لنُصوعِ يقينِهم وقوةِ وثوقهم بفضل الله تعالى. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ مَرْفِقاً بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدرٌ جاء شاذا كالمرجِع والمحيض فإن قياسه الفتحُ[1].

(١٧) ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ لو رأيتهم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعُها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهفَ كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زَوَرَها عنهم. وأصله تتزاورُ فأُدغِمَتِ التاءُ في الزاي، وقرأ الكوفيونَ بحذفها[2]، وابن عامر ويعقوبُ تَزْوَرُّ كتَحْمَرُّ، وقرىء تَزْوارُّ كتحمارُّ وكلها من الزَّوَرِ بمعنى الميلِ. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتُها: الجهةُ ذاتُ اسم اليمين. ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم وتصرِمُ عنهم. ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني يمينَ الكهف وشمالَه لقوله: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي وهم في مُتَّسَعٍ من الكهف، يعني في وسطِه بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء ولا يؤذيهم كربُ الغار ولا حرُّ الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلةِ بناتِ نعشٍ، وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرقُ رأسِ السرطان ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارها مدارَهُ تطلُع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأبيضِ وهو الذي يلي المغربَ، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسرِ فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلِّلُ عفونتَهُ ويعدِّلُ هواءَهُ ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويُبْلِي ثيابَهُم. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي شأنُهم وإيواؤهم إلى كهفٍ شأنُه كذلك، أو إخبارُك قصتَهم، أو ازورارُ الشمس عنهم وقرضُها طالعةً وغاربةً من آيات الله. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بالتوفيق. ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الثناءُ عليهم أو التنبيهُ على أن أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ ولكن المنتفعَ بها مَنْ وفقه الله للتأمل فيها والاستبصارِ بها. ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يخذلْه. ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ من يليه ويرشِدُه.

(١٨) ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلُّبِهم. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كيلا تأكلَ الأرضُ ما يليها من أبدانهم على طول الزمان. وقرىء ويُقَلِّبهم بالياء والضميرُ لله تعالى، وتَقَلُّبَهُم على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبُهم أي وترى تقلُّبَهم. ﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مرُّوا به فتبعَهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أُحب أحباءَ الله فناموا وأنا .....

---

(١) لأن المصادر من فَعَل يَفْعِل تكون بفتح العين، فمصدر رجع مرجَع لكنه شذ عن القياس.

(٢) قراءة الكوفيين «تَزَاوَرُ» خفيفة الزاي.

أحرسُكم[١]. أو كلبُ راعٍ مرُّوا به فتبعهم وتبعه الكلب[٢]، ويؤيده قراءةُ مَنْ قرأ: وكالبُهم أي وصاحبُ كلبِهم. ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ولذلك أعمل اسمَ الفاعل. ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ بفِنَاء الكهف، وقيل الوصيد الباب، وقيل العتَبَةُ. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم، وقرىء لوُ اطلعت بضم الواو. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لهربْتَ منهم، وفراراً يحتمل المصدرَ لأنه نوعٌ من التولية والعِلَّةِ والحال. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفاً يملأ صدرَك بما ألبسهم الله من الهيبةِ، أو لِعِظَم أجرامِهم وانفتاح عيونهم، وقيل لوحشةِ مكانهم[٣]. وعن معاويةَ رضيَ الله عنه أنه غزا الرومَ فمرَّ بالكهف فقال: لو كَشفتَ لنا عن هؤلاءِ فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه مَنْ هو خير منك فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فلم يسمع وبعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريحٌ فأحرقتهم[٤]. وقرأ الحجازيانِ لَمُلِئْتَ بالتشديد للمبالغة، وابن عامر والكسائيُّ ويعقوب رُعْباً بالتثقيل.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وكما أنمناهم آيةً بعثناهم آيةً على كمال قدرتنا. ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضُهم بعضاً فيتعرّفُوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمرَ البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم[٥]. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على غالب ظنِّهم لأن النائم لا يحصي مدةَ نومه، ولذلك أحالوا العلمَ إلى الله تعالى. ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قولَ بعضِهم وهذا إنكار الآخَرِينَ عليهم. وقيل إنهم دخلوا الكهفَ غدوةً وانتبهوا ظهيرةً وظنوا أنهم في يومِهم أو اليوم الذي بعدَه قالوا ذلكَ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا، ثُمَّ لما علموا أن الأمر مُلْتَبِسٌ لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والوَرِقُ الفضةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبة. وقرأ أبو بكر وأبو عمرٍو وحمزةُ وروحٌ عن يعقوبَ

---

(١) وهذا قول كعب الأحبار (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٢) روي ذلك عن ابن عباس (روح المعاني ١٥/ ٢٢٥).

(٣) لعل تأخير ذكر الرعب عن ذكر التولية للإيذان باستقلال كل منهما في الترتب على الاطلاع إذ لو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد (س٥/ ٢١٣).

(٤) قال ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبي شيبة من رواية يعلىٰ بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإسناده صحيح (الكافي الشافِ ص١٠٣ رقم ٣١٣).

(٥) وجَعْل التساؤل غاية للبعث المعلَّل ـ فيما سبق ـ بالاختبار لأنه من أحكامه المترتبة عليه. والاقتصارُ على ذكر التساؤل لاستتباعه لسائر آثاره (س٥/ ٢١٣).

بالتخفيف[١]، وقرىء بالتثقيلِ وإدغام القاف في الكاف[٢]، وبالتخفيف مكسورَ الواو مدغماً وغيرَ مدغَم، ورُدَّ المدغم لالتقاء الساكنين على غير حدِّه[٣]. وحملُهم له دليلٌ على أن التزوُّدَ رأيُ المتوكلينَ، والمدينةُ طَرَسوسُ. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيُّ أهلِها. ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلُّ وأطيبُ أو أكثر وأرخصُ. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلفِ اللُّطفَ في المعاملة حتى لا يُغْبَنَ، أو في التخفي حتى لا يُعْرَفَ. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلنَّ ما يؤدي إلى الشعور.

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطَّلِعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدَّر في أيِّها. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيِّروكم إليها كَرْهاً من العوْدِ بمعنى الصيرورةِ. وقيل كانوا أولاً على دينهم فآمنوا[٤]. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ إن دخلتم في مِلَّتِهم.

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أَنَمْنَاهُم وبعثناهم لتزداد بصيرتُهم أَطْلَعْنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوٓا﴾ ليعلمَ الذينَ أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعثُ. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباهَهُمْ كحال مَنْ يموتُ ثم يُبْعَثُ. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وأن القيامة لا ريبَ في إمكانها، فإنَّ مَنْ توفَّى نفوسَهم وأمسكها ثلاثمائةٍ سنينَ حافظاً أبدانَها عن التحللِ والتفتتِ ثم أرسلَها إليها قَدِر أن يتوفَّى نفوسَ جميعِ الناس ممسكاً إياها إلى أن يَحشُرَ أبدانهم فيردَّها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لأعثرْنا، أي أعثرنا عليهم حينَ يتنازعون[٥]. ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمرَ دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواحُ مجردةً وبعضهم يقول يبعثانِ معاً ليرتفعَ الخلافُ ويتبينَ أنهما يبعثانِ معاً، أو أمرَ الفتيةِ حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم ماتوا وقال آخرونَ ناموا نومَهم أولَ مرة، أو قالتْ طائفة نبني عليهم بنياناً يسكنه الناسُ ويتخذونه قُربةً، وقال آخرون لنتخذنَّ عليهم مسجداً يُصَلَّى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقوله «ربهم أعلم بهم» اعتراضٌ إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين، أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازِعين للردِّ إلى الله بعد

---

(١) أي بإسكان الراء «بِوَرْقِكُم».

(٢) أي «بِوَرِقِكُم».

(٣) أجيب على الرد بأنه واقع في كلام العرب، لكن على شذوذ (روح المعاني ١٥/ ٢٣٠).

(٤) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شيء عندهم كراهة.
وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إلى الرجم (س٥/ ٢١٤).

(٥) وقدم عليه الغاية «ليعلموا..» إظهار لكمال العناية بذكرها (س٥/ ٢١٥).

ما تذكروا أمرَهم وتناقلُوا الكلامَ في أنسابِهم وأحوالهم فلم يتحققْ لهم ذلك. حُكِيَ أن المبعوثَ لما دخل السوقَ وأخرجَ الدراهمَ وكان عليها اسمُ دَقيانوسَ اتهموه بأنه وجدَ كنزاً فذهبوا به إلى الملِكِ ـ وكان نصرانياً موحِّداً ـ فقصَّ عليه القصصَ، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فرُّوا بدينهم من دقيانوس فلعلَّهم هؤلاءِ، فانطلق الملك وأهلُ المدينة من مؤمنٍ وكافر وأبصروهم وكلَّموهم، ثم قالتِ الفتيةُ للملِك نستودعك اللهَ ونعيذك به من شرِّ الجن والإنس، ثم رَجَعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخلَ أولاً لئلا يفزَعوا، فدخل فعَمِي عليهم المدخلُ فبنَوا ثَمَّ مسجداً.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يَرْبَعُهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود، وقيل هو قول السيِّد من نصارى نجرانَ وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العاقبُ منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ يرمون رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مُطَّلَعَ لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رَجَمَ بالظنِّ إذا ظنَّ، وإنما لم يُذْكَر بالسين اكتفاءً بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريلَ عليهما الصلاة والسلام، وإيماءِ الله تعالى إليه: بأنْ أتبعه قولَه ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأتْبَع الأوّلَيْن قولَه رجماً بالغيب، وبأنْ أثْبَتَ العلمَ بهم لطائفةٍ بعد ما حصرَ أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابعٍ في نحو هذا المحلِّ دليلُ العدم مع أن الأصل يَنفيه، ثم ردّ الأولَيْن بأن أتبعهما قولَه «رجماً بالغيب» ليتعينَ الثالثُ، وبأنْ أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفةً للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة لتأكيد لُصُوقِ الصفة بالموصوف والدَّلالةِ على أن اتصافَه بها أمرٌ ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعةٌ وثامنهم كلبُهم[(١)]، وأسماؤهم: يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوشُ أصحابُ يساره وكان يستشيرُهم، والسابعُ الراعي الذي وافقهم، واسمُ كلبهم قطميرُ واسم مدينتهم أفسوسُ[(٢)]. وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٣): «... وفي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم، فإن غالب ذلك ملتقى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى «فلا تمارِ فيهم إلاّ مراءً ظاهراً» أي سهلاً هيناً فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة» هـ.

ـ وقال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٥٠٥): «... وفي النطق بها ـ أي بأسمائهم ـ اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء» هـ.

(٢) قال ابن حجر في هذه الأسماء: في النطق بها اختلاف كثير، ولا يقع الوثوق من ضبطها بشيء (فتح الباري ٦/ ٥٠٥).

والقليلُ منهم. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ فلا تجادلْ في شأن الفتية إلاَّ جدالاً ظاهراً غيرَ متعمَّق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والردِّ عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسألْ أحداً منهم عن قِصَّتِهم سؤالَ مسترشِدٍ فإنَّ فيما أوحي إليك لمندوحةً من غيره مع أنه لا علم لهم بها، ولا سؤالَ متعنِّتٍ تريد تفضيحَ المسؤول وتزييفَ ما عنده فإنه مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

(٢٤) ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نهيُ تأديبٍ من الله تعالى لنبيه حين قالتِ اليهود لقريش: سَلُوه عن الروحِ وأصحابِ الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غداً أخبرْكم» ولم يستثنِ[1] فأبطأ عليه الوحيُ بضعةَ عشرَ يوماً حتى شَقَّ عليه وكذبه قريش[2]. والاستثناءُ من النهي أي ولا تقولنَّ لأجلِ شيء تعزم عليه إني فاعلُه فيما يُستقبَلُ إلا بأن يشاء الله، أي إلا ملتبِساً بمشيئتِه قائلاً إن شاء الله أو إلا وقتَ أن يشاءَ الله أن تقولَه بمعنى أن يأذنَ لك فيه، ولا يجوز تعليقُه بفاعل لأن استثناءَ اقترانِ المشيئة بالفعل غيرُ سديد واستثناءَ اعتراضِها دونَه لا يناسب النهيَ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ مشيئةَ ربِّك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله[3]. ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نِسْيَانٌ لذلك ثم تذكرتَهُ. وعن ابن عباس: ولو بعدَ سَنَةٍ ما لم يَحْنَثْ[4]، ولذلكَ جوَّز تأخيرَ الاستثناء عنه. وعامة

---

(١) أي لم يقل: إن شاء الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن مجاهد كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٦) وأخرج ابن جرير (١٥/ ١٩١) نحوه عن ابن عباس، وفي سنده رجل من أهل مصر، أي لم يُسمَّ، وأورده الواحدي بقوله: قال المفسرون (أسباب النزول ص٣٠٠).
وقد سبق بيان سبب نزول الآية «٨٥» الإسراء. «ويسألونك عن الروح» وفيها أن قريشاً طلبت من اليهود إعطاءهم شيئاً يسألون محمداً ـ عليه السلام ـ عنه فقالوا: سلوه عن الروح وهو صحيح، لكن سؤاله جملةً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين لعله لم يثبت والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه بنحوه عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٥/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٦٨ ح١١٠٦٩) والحاكم (٤/ ٣٠٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٧/ ٥٣).
ومعنى قول ابن عباس: أن للحالف أن يستثني ولو بعد سنة، أي إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه إن شاء الله وذكر ذلك ـ ولو بعد سنة ـ فالسنّةُ له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنة الاستثناء حتىٰ ولو كان بعد الحنث (تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨) وقال القرطبي: هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر للحكم فلا يكون إلا متصلاً.

الفقهاء على خلافِه[1] لأنه لو صحَّ ذلك لم يتقرر إقرارٌ ولا طلاق ولا عَتاقٌ ولم يُعْلَمْ صدقٌ ولا كذبٌ، وليس في الآية والخبرِ أن الاستثناءَ المتدارَكَ به من القول السابق بل هو من مقدَّر مدلولٍ به عليه، ويجوز أن يكونَ المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناءَ مبالغةً في الحثِّ عليه، أو اذكر ربك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أُمِرْتَ به ليبعثك على التدارك، أو اذكُرهُ إذا اعتراكَ النِّسيانُ ليذكِّرك المَنسيَّ. ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ يدلني. ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رَشَداً وأظهرَ دلالةً على أني نبيٌّ من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظمَ من ذلك كقصصِ الأنبياء المتباعدةِ عنه أيامُهم، والإخبارِ بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبَلةِ إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسيِّ.

(٢٥) ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ يعني لُبْثَهم فيه أحياءً مضروباً على آذانهم، وهو بيانٌ لما أُجملَ قبلُ. وقيلَ إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لُبْثِهم كما اختلفوا في عِدَّتهم، فقال بعضهم ثلاثمائة، وقال بعضهم ثلثمائة وتسعُ سنينَ. وقرأ حمزةُ والكسائي ثلاثمائةٍ سنينَ بالإضافة على وضع الجمع موضِعَ الواحد، ويحسّنه ههنا أن علامة الجمع فيه جَبْرٌ لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع، ومن لم يُضِفْ أبدلَ السنين من ثلثمائة.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلهما، فلا خَلْقَ يخفى عليه علماً. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ذُكِر بصيغةِ التعجب للدلالةِ على أن أمره في الإدراك خارجٌ عما عليه إدراكُ السامعين والمبصِرينَ، إذ لا يحجُبه شيءٌ ولا يتفاوت دونه لطيفٌ وكثيف وصغير وكبير وخفيٌّ وجليٌّ، والهاء تعود إلى الله. ومحله الرفعُ على الفاعلية والباءُ مزيدة عند سيبويه، وكان أصله أبصرَ أي صار ذا بصر ثم نُقِلَ إلى صيغة الأمر بمعنَى الإنشاء فبرز الضمير لعدم لَياقِ الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾[2]. والنصبُ على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعْدِية ومتعديةٌ إن كانت للصيرورة. ﴿مَا لَهُم﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ مَنْ يتولّى أمورَهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزمِ على نهي كل أحد عن الإشراك. ثم لما دل اشتمالُ القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيثُ إنها من المغيَّباتِ بالإضافة إلى رسول الله على أنه وحي معجِزٌ أَمَرَه أن يداومَ درسَه ويلازم أصحابَه فقال:

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ من القرآن، ولا تَسمعْ لقولهم «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيرُه. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُلْتَجَأً تعدل عليه إن هممتَ به.

---

(١) وهو الراجح والصواب انظر «الروضة الندية» بتحقيق محمد صبحي حسن حلاق (٢/٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) الفرقان: «٥٨».

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبسها وثبّتها. ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في مجامعِ أوقاتِهم، أو في طرفي النهارِ. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَةِ، وفيه أن غدوةً عَلَمٌ في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا يجاوزهم نظرُكَ إلى غيرِهم، وتعديتُه بعن لتضمينه معنى نَبَا. وقرىء ولا تُعْدِ عَيْنَيْكَ ولا تُعَدِّ من أعْداهُ وعَدّاهُ. والمرادُ نهيُ الرسول ﷺ أن يزدريَ بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثاثةِ زِيِّهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورةِ ومن المستكِنِّ في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ من جعلنا قَلْبَهُ غافلاً. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأميةَ بنِ خلف في دعائك إلى طردِ الفقراء عن مجلسِك لصناديدِ قريش. وفيه تنبيهٌ على أن الداعيَ له إلى هذا الاستدعاءِ غفلةُ قلبِه عن المعقولات وانهماكُه في المحسوسات، حتى خفيَ عليه أن الشرفَ بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثلَه في الغباوة. والمعتزلةُ لما غاظَهم إسنادُ الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مِثْل أَجْبنتُهُ إذا وجدتَه كذلك أو نسبتَهُ إليه، أو مِنْ أغفل إبلَه إذا تركَها بغيرِ سِمَةٍ أي لم نَسِمْه بذكرنا كقلوبِ الذين كتبنا في قلوبهم الإيمانَ، واحتجُّوا على أن المرادَ ليس ظاهرَ ما ذُكِرَ أولاً بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وجوابُه ما مر غيرَ مرةٍ. وقرىء أغفلَنا بإسناد الفعل إلى القلبِ على معنى حَسِبَنا قلبُه غافلينَ عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرسٌ فُرُط أي متقدِّمٌ للخيل، ومنه الفَرَطُ.

(٢٩) ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الحقُ ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبرَ مبتدأ محذوفٍ ومن ربكم حالاً. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لا أبالي بإيمان مَنْ آمن ولا كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وهو لا يقتضي استقلالَ العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئتِه فمشيئتُهُ ليست بمشيئته. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فسُطاطُها شبَّهَ به ما يحيط بهم من النار، وقيل السُّرادقُ الحجرةُ التي تكون حول الفسُطاط، وقيل سرادقها دخانُها، وقيل حائطٌ من نار[1] ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من العطش. ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كَدُرْدِيِّ الزيت وهو على طريقة قوله: فأُعتِبُوا بالصيلمِ. ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ لِيُشْرَبَ من فَرْطِ حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهْل أو الضميرِ في الكاف. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المهلُ. ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ. ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأً، وأصل الارتفاقِ نَصْب المِرْفَقِ تحت الخدِّ، وهو لمقابلة قوله ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2] وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

---

(١) والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (س٥/ ٢٢٠).

(٢) الكهف: ٣١.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبرُ إنّ الأولى هي الثانية بما في حيِّزها، والراجع محذوف تقديره مَنْ أحسنَ عملاً منهم أو مُسْتَغْنًى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنًى عنه في قولك: نعم الرجل زيدٌ، أو واقع موقعَه الظاهرَ فإن من أحسن عملاً لا يحسُن إطلاقُه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات[1].

(٣١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، وعلى الأول استئنافٌ لبيان الأجر أو خبر ثانٍ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مِنْ الأولى للابتداء والثانية للبيان صفةٌ لأساور، وتنكيرُه لتعظيم حُسْنِها من الإحاطة به، وهو جمع أَسْوِرَةٍ أو إسوار في جمع سِوارٍ. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخضرة أحسنُ الألوان وأكثرُها طراوةً. ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ نمارق من الديباج وما غلُظ منه جَمَعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذ الأعينُ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السُّرُر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

(٣٢) ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ حالَ رجلين مقدَّرين. أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيلَ كافرٍ اسمُه قطروسُ ومؤمنٍ اسمُه يهوذا، وَرِثَا من أبيهما ثمانيةَ آلافِ دينار فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضِياعاً وعَقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآلَ أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل الْمُمَثَّلُ بهما أخوانِ من بني مخزوم كافرٌ وهو الأسودُ بنُ عبدالأشد ومؤمن وهو أبو سلمةَ عبدُالله زوجُ أمِّ سلمةَ قبل رسول الله ﷺ. ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين. ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كروم، والجمْلَةُ بتمامِها بيانٌ للتمثيل أو صفةٌ للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخلَ محيطةً بهما مؤزِّراً بها كرومُهما، يقال حفَّه القوم إذا أطافوا به وحَفَفْتُه بهم إذا جعلْتُهم حافِّينَ حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشّيتُه به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطَهما. ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصلَ العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

(٣٣) ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها، وإفرادُ الضمير لإفراد كلتا. وقرئَ كلُّ الجنتين آتىٰ أُكُلَه. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ ولم تنقُص من أُكُلها. ﴿شَيْـًٔا﴾ يُعهَد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤُهما. وعن يعقوبَ وفَجَرْنَا بالتخفيف[2].

---

(١) ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافي مآليْ الفريقين (س٥/ ٢٢٠).

(٢) لعل تأخير ذكْر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأُكُل ـ مع أن الترتيب الخارجي على العكس ـ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأُكُل وتفجير النهرَ في تكميل محاسن الجنتين، ولو عكس لفُهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها =

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين، من ثَمَرَ مالُه إذا كثَّره. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضمهما، وكذلك في قوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[1] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يراجعه في الكلام، مِنْ حار إذا رجعَ. ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حَشَماً وأعواناً. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفِرون معه.

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها. وإفرادُ الجنة لأن المراد هو جنته وما مُتِّع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنةَ له غيرَها ولا حظّ له في الجنة التي وُعِدَ المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارٌّ لها بِعُجْبِه وكُفْرِه ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أن تفنَى. ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنةُ. ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

(٣٦) ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنةً. ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ بالبعث كما زعمتَ. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من جنته. وقرأ الحجازيان والشاميُّ[2]: منهما أي من الجنتين. ﴿مُنقَلَبًا﴾ مرجِعاً وعاقبةً لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أَقْسَم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

(٣٧) ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ لأنه أصلُ مادتك أو مادةُ أصلِك. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ثم عَدَلَك وكمَّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغَ الرجال. جعل كُفْرَهُ بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأه الشكُّ في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكارَ على خَلْقِه إياه من التراب فإن من قدر على بَدْءِ خلقه منه قدرَ أن يعيده منه.

(٣٨) ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أصله لكنْ أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة إلى النون فتلاقتِ النونانِ فكان الإدغامُ. وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة، أو لإجراءِ الوصل مُجرى الوقف، وقد قرىء لكنْ أنا على الأصل. وهو ضمير الشأن، وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبرُ أنا أو ضمير الله، واللهُ بدلُه، وربي خبرُه، والجملة خبرُ أنا، والاستدراك

= مترتب على بعض، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة. وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي (س٥/ ٢٢١).

(١) الكهف: «٤٢».

(٢) الشامي هو ابن عامر.

من أكفرتَ كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به. وقد قرىء لكنَّ هو الله ربي، ولكنْ أنا لا إلهَ إلا هو ربي.

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ وهلاَّ قلتَ عند دخولها[1]. ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن، على أن ما موصولةٌ. أو أيَّ شيء شاء الله كان، على أنها شرطيةٌ، والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبَادَها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقلتَ لا قوةَ إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وأن ما تيسر لك من عِمارتها وتدبير أمرها بمعونته وإقداره. وعن النبي ﷺ: «من رأى شيئاً فأعجبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، لم يضُرَّه»[2]. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأولى. وقرىء أقلُّ بالرفع على أنه خبرُ أنا، والجملةُ مفعولٌ ثانٍ لِتَرَني، وفي قوله ﴿وَوَلَدًا﴾ دليلٌ لمن فسَّر النفرَ بالأولاد.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني، وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنَّتِكَ لكفرك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مراميَ جمع حُسْبَانةٍ وهي الصواعقُ، وقيل هو مصدر بمعنى الحساب، والمراد به التقديرُ بتخريبها أو عذابُ حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساءَ يُزْلَقُ عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، مصدرٌ وُصِف به كالزَّلَقِ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ للماء الغائر تردداً في ردِّه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وأُهلك أموالُه حسبما توقعه صاحبُه وأنذرَه منه، وهو مأخوذٌ من أحاطَ به العدوُّ فإنه إذا أحاط به غَلَبَهُ وإذا غلبه أهلكه، ونظيرُه أتىٰ عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلياً عليهم. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لِبَطْنٍ تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها. وهو متعلِّق بيقلِّبُ لأن تقليبَ الكفين كنايةٌ عن الندم فكأنه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً

---

(١) وتقديم الظرف «إذ» على المخصَّص عليه «دخَلْتَ...» للإيذان بتحتم القول في وقت الدخول من غير تريّث (س٥/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/ ٩٠ رقم ٤٣٧٠) تعليقاً عن أبي بكر الهذلي، عن ثمامة بن أنس عن أنس.
ـ وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٢٠٧) متصلاً.
وأبو بكر الهذلي متروك، وحجاج بن نصير ضعيف.
وقد ضعف الألباني الحديث في «ضعيف الجامع» (٥/ ١٩٨) وتخريج «العلم» (رقم: ٢٤٤).

على ما أنفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشُها على الأرض وسقطت الكرومُ فوقَها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على يقلِّبُ أو حالٌ من ضميره. ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظةَ أخيه وعلم أنه أُتِيَ من قِبَلِ شِرْكِه فتمنَّى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتملَ أن يكون توبةً من الشرك وندماً على ما سبق منه.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يَقْدِرُونَ على نصره بدفع الإهلاك أو رَدِّ الْمُهْلَكِ أو الإتيانِ بمثلِه. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحدَه. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلكَ الحالِ. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ النصرةُ له وحدَه لا يقدر عليها غيرُه تقديراً لقوله ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أو يَنْصُر فيها أولياءَه المؤمنين على الكَفَرَةِ كما نصر ـ فيما فعل بالكافر ـ أخاه المؤمن، ويعضُدُه قولُه: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه. وقرأ حمزةُ والكسائي بالكسر[1] ومعناه السلطانُ والملْكُ أي هنالك السلطانُ له لا يُغْلَبُ ولا يُمْنَعُ منه، أو لا يُعْبَدُ غيرُه كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ﴾ كان عن اضطرارٍ وجَزَعٍ مما دهاهُ. وقيل هنالك إشارةٌ إلى الآخرة. وقرأ أبو عمرو والكسائي الحقُّ بالرفع صفة للولاية، وقرىء بالنصب على المصدر المؤكِّد، وقرأ عاصم وحمزةُ عُقْباً بالسكون، وقرىء عُقْبىٰ وكلها بمعنى العاقبة.

(٤٥) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياةَ الدنيا في زهرتها وسرعةِ زوالها أو صفتها الغريبة. ﴿كَمَآءٍ﴾ هي كماء، ويجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً لاضربْ على أنه بمعنَى صيّرْ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وخالط بعضُه بعضاً من كثرته وتكاثُفِه، أو نجعَ في النبات حتى روِيَ ورفَّ. وعلى هذا كان حقُّه فاختلط بنباتِ الأرض، لكنه لما كان كل من المختلطَيْنِ موصوفاً بصفةِ صاحبِه عُكِسَ للمبالغة في كثرتِه. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرِّقه. وقرىءَ تُذْرِيه مِنْ أَذْرَى. والمشبَّه به ليس الماءُ ولا حالُه بلِ الكيفيةُ المنتزَعَةُ من الجملة، وهي حال النباتِ المنبَتِ بالماء يكون أخضرَ وارفاً ثم هشيماً تطيِّره الرياحُ فيصيرُ كأنْ لم يكنْ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ. ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً.

---

(١) أي بكسر الواو من الولاية.

(٢) العنكبوت: «٦٥».

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسانُ في دنياه وتفنَى عنه عما قريبٍ[١]. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وأعمالُ الخيرات التي تبقى له ثمرتُها أبدَ الآبادِ. ويندرجُ فيها ما فُسرت به من الصلوات الخمس وأعمالُ الحج وصيام رمضان، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والكلامُ الطيب. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمّل بها في الدنيا[٢].

(٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ واذكر يومَ نقلعها ونسيِّرُها في الجو، أو نذهبُ بها فنجعلُها هباءً منبثاً. ويجوز عطفه على عند ربك، أي الباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند الله ويوم القيامة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو وابن عامر تُسَيَّر بالتاء والبناء للمفعول، وقرىء تَسِيرُ من سارتْ. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ باديةً برزت من تحتِ الجبال ليس عليها ما يسترُها. وقرىءَ وتُرَىٰ على بناء المفعول. ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ وجمعناهم إلى الموقف، ومجيئُه ماضياً بعد نسيِّر وترى لِتحقُّقِ الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وُعِدَ لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ فلم نترك. ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال غادره وأغدَرَه إذا تركه، ومنه الغدرُ لتركِ الوفاء، والغديرُ لما غادرَه السيل. وقرىء بالياء.

(٤٨) ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شبَّه حالَهم بحالِ الجندِ المعروضينَ على السلطانِ لا ليعرفَهم بل ليأمرَ فيهم. ﴿صَفًّا﴾ مُصْطَفِّينَ لا يحجبُ أحدٌ أحداً. ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجهٍ يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسيِّر. ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ عُراةً لا شيءَ معكم من المال والولدِ كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾[٣] أو أحياءً كخِلْقَتِكُم الأولى لقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجازِ الوعد بالبعثِ والنشور وأن الأنبياءَ كذَبُوكم به، وبل للخروجِ من قصةٍ إلى أخرى.

(٤٩) ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ صحائفُ الأعمالِ في الأيمانِ والشمائلِ أو في الميزان، وقيل هو كنايةٌ عن

---

(١) تقديم المال على البنين ـ مع كونهم أعزَّ منه ـ لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممدّ لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه أمسّ من الحاجة إليهم، ولأنه أقدم منهم في الوجود، ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال فهو في ضيق حال ونكال.
وإفراد الزينة ـ مع أنها مسندة إلى الاثنين ـ لأنها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة (س٥/ ٢٢٥).

(٢) وتكرير كلمة «خير» للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيها (س٥/ ٢٢٦).

(٣) الأنعام: «٩٤».

وضع الحساب[1]. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ. ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ينادون هَلْكَتَهم التي هلكُوها من بين الهَلَكَاتِ. ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعجباً من شأنه. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هَنَةً صغيرة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إلا عدَّدَها وأحاط بها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصُّحُفِ. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيَكتُبُ عليه ما لم يفعلْ أو يزيدُ في عقابِهِ الملائمِ لعمله.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ كرره في مواضعَ لكونه مقدمةً للأمور المقصود بيانُها في تلك المحالِّ، وههنا لما شنَّع على المفتخرين واستقبحَ صنيعَهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليسَ، أو لمّا بيَّن حالَ المغرور بالدنيا والمعرِضِ عنها ـ وكان سببُ الاغترار بها حبَّ الشهوات وتسويلَ الشيطان ـ زهَّدَهُم أولاً في زخارفِ الدنيا بأنها عُرْضَةُ الزوال والأعمالُ الصالحةُ خيرٌ وأبقى من أنفَسِها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطانِ بتذكير ما بينَهم من العداوة القديمة. وهكذا مذهبُ كلِّ تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حالٌ بإضمار قد، أو استئنافٌ للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجدْ؟! فقيل كان من الجنِّ. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرج عن أمره بتركِ السجود، والفاءُ للسببِ، وفيه دليل على أن الملَكَ لا يعصي البتةَ وإنما عَصَى إبليسُ لأنه كان جنياً في أصله، والكلام المستقصَى فيه في سورة البقرة[2]. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أعَقيبَ ما وُجِدَ منه تتخذونه، والهمزة للإنكارِ والتعجبِ. ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أولادَه أو أتباعه، وسمَّاهم ذريةً مجازاً. ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونَهم بدلَ طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى، إبليسُ وذريته.

(٥١) ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ نفيُ إحضارَ إبليسَ وذريته خلقَ السموات والأرض وإحضارَ بعضهم خلقَ بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك، كما صرّح به بقوله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياءَ من دون الله شركاءَ له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقيةِ والاشتراكَ فيه يستلزم الاشتراكَ فيها، فوضَعَ المضلِّينَ موضِعَ الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضادِ بهم. وقيل الضميرُ للمشركينَ، والمعنَى: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما خَصَصْتُهم بعلومٍ لا يعرفُها غيرُهم حتى لو آمنوا اتبَّعَهم الناس كما يزعمونَ، فلا تلتفتْ إلى قولهم طَمَعاً في نُصْرَتِهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضدَ بالمضلِّينَ لديني، ويعضُده قراءةُ مَنْ قرأ وما كنتَ على خطابِ الرسول ﷺ. وقرىء متخذاً المضلينَ على الأصل، وعَضْداً بالتخفيفِ، وعُضُداً بالإتباعِ، وعَضَداً كَخَدَمٍ جَمْعُ عاضدٍ من عضَّده إذا قوَّاه.

---

(١) وإيثار الإفراد في «الكتاب» للاكتفاء بالجنس (س٥/ ٢٢٧).

(٢) البقرة: «٣٤».

والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله (س٥/ ٢٢٧).

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين. وقرأ حمزةُ بالنون. ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنَّهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافةُ الشركاء على زعمهم للتوبيخ، والمرادُ ما عُبدَ من دونه، وقيل إبليسُ وذريَّتُه. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادَوْهُم للإغاثة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثُوهم[1]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الكفار وآلهتهم. ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركونَ فيه وهو النار، أو عداوةً هي في شدَّتِها هلاكٌ كقولِ عمرَ رضي الله عنه: لا يكنْ حبُّك كَلَفاً ولا بغضُك تَلَفاً[2]، اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ من وَبِقَ يَوْبَقُ وبَقاً إذا هلكَ. وقيل البَيْنُ الوصلُ أي وجعلنا تواصُلَهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطُوها واقعونَ فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافاً أو مكاناً ينصرِفون إليه.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ﴾ يتأتىٰ منه الجدلُ. ﴿جَدَلًا﴾ خصومةً بالباطل. وانتصابُه على التمييز.

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلبُ أو انتظارُ أو تقديرُ أن تأتيهم سنةُ الأولينَ، وهيَ الاستئصالُ فَحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مَقَامَهُ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عذابُ الآخرة. ﴿قُبُلًا﴾ عياناً. وقرأ الكوفيونَ قُبُلاً بضمتين وهو لغةٌ فيه أو جمعُ قبيلٍ بمعنى أنواع، وقرىء بفتحتين وهو أيضاً لغةٌ يقال لقيتُه مقابَلةً وقُبُلاً وقِبَلاً وقَبَلاً وقبلياً، وانتصابُه على الحال من الضمير أو العذاب.

(٥٦) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عن مقره ويُبطِلوه، من إدحاضِ القَدَم وهو إزلاقُها وذلك قولهم للرسل: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[4] ونحو ذلك. ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ يعني

---

(١) وفي إيراد عدم استجابة الشركاء مع علمهم بأنهم لم يستجيبوا لهم تهكم بهم، وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح (س٥/ ٢٢٩).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٩٤) بدون عزوه إلى عمر ولم أجد له مخرجاً فيما أعلم.
وذكره الميداني في «الأمثال» (٣/ ١٦٣ رقم ٣٥٢٨) ولم يعزه إلى عمر.

(٣) يسٓ: «١٥».

(٤) المؤمنون: «٢٤».

القرآن. ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ وإنذارَهم أو والذي أُنْذِرُوا به من العقاب. ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً. وقرىء هُزْأً بالسكون وهو ما يُسْتَهْزَأُ به على التقديرين[1].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرْها ولم يتذكرْ بها. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكرْ في عاقبتهما. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليلٌ لإعراضهم ونسيانِهم بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه، وتذكيرُ الضمير وإفرادُه للمعنى. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعُهم أن يستمعوهُ حقَّ استماعِه. ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهونَ ولا يسمعونَ وإذاً ـ كما عرفتَ جزاءٌ وجوابٌ للرسول ﷺ على تقدير قولِه مالي لا أدعُوهم، فإنَّ حرصَه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ الموصوفُ بالرحمة[2]. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريشٍ مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يومُ بَدْرٍ أو يومُ القيامة. ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ منجىً ولا ملْجأً، يقال وَأَلَ إذا نجا وَوَأَلَ إليه إذا لجأ إليه.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني قرى عادٍ وثمودَ وأضرابِهم، وتلك مبتدأٌ خبرُه: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ أو مفعولٌ مضمَرٌ مفسَّرٌ به، والقرى صفته، ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجعَ الضمائر. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ كقريشٍ بالتكذيب والمِراءِ وأنواعِ المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرونَ عنه ساعةً ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم. وقرأ أبو بكر لَمَهْلَكِهم بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادرِ يَفْعِلُ كالمرجِعِ والمحيضِ.

---

(١) قراءة (هزأ) بالسكون والهمز هي قراءة حمزة وهو من القراء السبعة، فالإشارة إليها بلفظ قرىء المنبىء بالضعف غير سليم، ومن عادة البيضاوي الإشارة للقراءات الشاذة بلفظ قرىء.

(٢) وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب، وأما الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى. وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية، أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها (س٥/ ٢٣١).

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مقدَّرٌ باذكرْ. ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشعَ بنِ نونِ بنِ أفرائيمَ بنِ يوسفَ عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمُه ويتبعُه ولذلك سماه فتاهُ، وقيلَ لعبدِه. ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسيرُ فحذفَ الخبرَ لدلالةِ حاله ـ وهو السفرُ ـ وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ من حيثُ إنَّها تستدعي ذا غايةٍ عليه. ويجوز أن يكونَ أصلُه لا يبرحُ مسيري حتى أبلغَ، على أنَّ حتى أبلغَ هوَ الخبرُ، فحذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ[1] إليه مُقَامَهُ، فانقلبَ الضميرُ والفعل، وأن يكون لا أبرحُ هو بمعنى لا أزولُ عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبرَ. ومجمعُ البحرينِ مُلْتَقَى بحريْ فارسَ والرومِ مما يلي المشرقَ وُعِدَ لقاءَ الخَضِر فيه، وقيل البحرانِ موسى وخضِرٌ عليهما الصلاة والسلام فإنَّ موسى كان بحرَ علمِ الظاهرِ والخضِرُ كان بحرَ علم الباطن. وقرىء مَجْمِعَ بكسر الميم على الشذوذ من يفعَلُ كالمشرِقِ والمطلِع[2]. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسيرُ زماناً طويلاً. والمعنى حتى يقعَ إما بلوغُ المجْمَعِ أو مضيُّ الحُقُبِ، أو حتى أبلغَ إلا أن أمضِيَ زماناً أتيقنُ معه فواتَ المجمع. والحُقُبُ الدهرُ وقيل ثمانونَ سنةً وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطبَ الناسَ بعد هلاكِ القِبْطِ ودخولِه مِصْرَ خُطْبَةً بليغة فأُعجِبَ بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلمَ منك؟ فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلمُ منك عبدُنا الخضرُ وهو بمجمعِ البحرين[3]، وكان الخضرُ في أيام أفريدونَ وكان على مقدمةِ ذي القرنين الأكبرِ وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأيُّ عبادك أقضَى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبعُ الهوى، قال فأيُّ عبادك أعلَمُ؟ قال الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيبَ كلمة تدلُّه على هدى أو ترُدُّه عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلمُ مني فادلُلْني عليه، قال أعلمُ منكَ الخضِرُ، قال: أين أطلبه؟ قال على الساحل عندَ الصخرةِ، قال كيفَ لي به؟ قال تأخذُ حوتاً في مِكْتَلٍ فحيث فقَدْته فهو هناك، فقال لفتاهُ إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرْني، فذهبا يمشيانِ[4].

---

(١) فالمسير مضاف والياء مضاف إليه، وهي ياء المتكلم التي قام قوله «لا أبرح» مقامها لأنه بصيغة المتكلم، فقد حذف المضاف إذاً (مسير) وبقي ما قام المضاف إليه.

(٢) والمغرِب، والقياس الفتح مفعَل.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٥، ٧٤٧٨) وليس فيه بعد هلاك القبط ودخول مصر خطبة بليغة...

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٧٧) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤١٩). وفي إسناده محمد بن حميد وهو ضعيف.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي مجمعَ البحرينِ، وبينَهما ظرفٌ أُضِيفَ إليه على الاتساعِ أو بمعنى الوصْلِ. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرفَ حالَه، ويوشعُ أن يذكرَ له ما رأى من حياته ووقوعِه في البحر. روي: أن موسى عليه السلام رقد فاضطربَ الحوتُ المشويُّ ووثبَ في البحر، معجزةٌ لموسى أو الخضِرِ، وقيل توضأ يوشعُ من عين الحياة فانتضحَ الماء عليه فعاشَ ووثبَ في الماء، وقيل نسياً تَفَقُّدَ أمرِهِ وما يكون منه أمارةً على الظَّفرِ بالمطلوب ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فاتخذ الحوتُ طريقه في البحر مسلكاً، من قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقيل أمسك الله جريةَ الماء على الحوتِ فصار كالطاقِ عليه. ونصبُه على المفعولِ الثاني، وفي البحر حالٌ منه أو من السبيلِ، ويجوز تعلُّقه باتّخذَ.

(٦٢) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمعَ البحرينِ. ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ ما نتغذّى به. ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قيل لم ينصَبْ حتى جاوزَ الموعدَ، فلما جاوزَه وسارَ الليلةَ والغدَ إلى الظهرِ أُلقِيَ عليهِ الجوعُ والنَّصَبُ. وقيل لم يَعْيَ موسى في سفر غيرِه، ويؤيده التقييدُ باسم الإشارة.

(٦٣) ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ أرأيتَ ما دهاني إذ أوينا. ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرةَ التي رقد عندَها موسى، وقيل هي الصخرةُ التي دونَ نهرِ الزيت[2]. ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فقدتُه أو نسيت ذِكْرَه بما رأيتُ منه. ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي وما أنساني ذكرَه إلا الشيطانُ، فإنَّ أنْ أذكُرَه بدلٌ من الضمير. وقرىء أن أذكِّرَكه، وهو اعتذار عن نِسيانه بِشُغْلِ الشيطان له بوساوسِه، والحالُ وإن كانت عجيبةً لا يُنْسَى مثلُها لكنه لما ضريَ بمشاهدة أمثالِهَا عند موسى وأَلِفَها قلَّ اهتمامُه بها، ولعله نسيَ ذلك لاستغراقِه في الاستبصار وانجذابِ شراشِره إلى جنابِ القُدُسِ بما عراهُ من مشاهدةِ الآياتِ الباهرة، وإنما نسبَه إلى الشيطان هضْماً لنفسه أو لأن عدمَ احتمال القوة للجانبينِ واشتغالَها بأحدِهما عن الآخر يُعَدُّ من نقصان[3]. ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسَّرَبِ أو اتخاذاً عجباً، والمفعول الثاني هو الظرفُ، وقيل هو مصدرُ فِعْلِه المضمر أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجُّباً من تلك الحالِ. وقيل الفعلُ لموسى أي اتخذَ موسى سبيلَ الحوت في البحر عجباً.

(٦٤) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أيْ أمرُ الحوت. ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلبُ لأنه أمارةُ المطلوب. ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه. ﴿قَصَصًا﴾ يقصَّانِ قَصَصاً أي يتبعان آثارَهما اتباعاً، أو مقتصِّينْ حتى أتيا الصخرةَ.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الجمهور على أنه الخضرُ عليه السلام واسمُه بليا بنُ ملْكان[4]، وقيل اليسعُ، وقيل إلياسُ[5]. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوةُ. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مما يختص بنا ولا يُعْلَمُ إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

---

(١) الرعد: «١٠».

(٢) وذكر الإواء إليها ـ مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين ـ لزيادة تعيين محل الحادثة (س٥/ ٢٣٣).

(٣) وإيثار «أن أذكره» على المصدر للمبالغة، فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه (س٥/ ٢٣٣).

(٤) انظر المعارف لابن قتيبة [ص٤٢ وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)].

(٥) التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف (س٥/ ٢٣٤).

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ على شرط أن تعلّمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ علماً ذا رَشَدٍ وهو إصابةُ الخير. وقرأ البصريانِ بفتحتينِ وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل، وهو مفعول تعلّمني ومفعول عُلِّمْتَ العائدُ المحذوفُ، وكلاهما منقولان من علمَ الذي له مفعولٌ واحد، ويجوز أن يكون رشداً علةً لأتَّبِعُكَ أو مصدراً بإضمار فعلِه. ولا ينافي نُبُوَّتَه وكونَه صاحبَ شريعةٍ أن يتعلَّم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإنَّ الرسولَ ينبغي أن يكون أعلمَ ممن أُرْسِلَ إليه فيما بُعِثَ به من أصول الدين وفروعِه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غايةَ التواضع والأدب، فاستجهلَ نفسه واستأذن أن يكون تابِعاً له، وسأل منه أن يرشدَه وينعِمَ عليه بتعليمِ بعض ما أنعمَ الله عليه.

(٦٧) ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعةَ الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم، وعلَّلَ ذلك واعتذرَ عنه بقوله:

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبيٌّ على ما أتولى من أمورٍ ظواهرُها مناكيرُ وبواطنُها لم يُحِطْ بها خبرُك، وخبراً تمييز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تُخْبَرْهُ.

(٦٩) ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معكَ غيرَ منكِرٍ عليه. ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على صابراً أي ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، أو على ستجدني. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمُّن، وخُلْفُه ناسياً لا يقدح في عصمته، أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خُلْفَ، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعةٌ بمشيئة الله تعالى.

(٧٠) ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ فلا تخالفْني بالسؤالِ عن شيء أنكرتَه منِّي ولم تعلمْ وجْهَ صِحَّته. ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبتدئَك ببيانِه، وقرأ نافعٌ وابن عامر فلا تَسْأَلَنِّي بالنون الثقيلة.

(٧١) ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينةَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضرُ فأساً فخرَقَ السفينةَ بأن قلعَ لوحين من ألواحِها. ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإن خَرْقَها سببٌ لدخولِ الماء فيها المفضِي إلى غَرَقِ أهلها. وقرىء لتغرِّقَ بالتشديد للتكثير، وقرأ حمزةُ والكسائي ليغرَقَ أهلُها على إسناده إلى الأهلِ. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أتيت أمراً عظيماً، مِنْ أَمِرَ الأمْرُ إذا عظُم.

(٧٢) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لما ذكره قبل.

(٧٣) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيتُه، يعني وصيتَه بأن لا يعترضَ عليه أو

بنسياني إياها، وهو اعتذارٌ بالنسيان أخرجه في معرِضِ النهي عن المؤاخذةِ مع قيامِ المانع لها. وقيل أراد بالنسيان التركَ أي لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أولَ مرةٍ. وقيل إنه من معاريضِ الكلام والمرادُ شيءٌ آخرُ نَسِيَهُ. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تُغْشِني عُسْراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي، فإن ذلك يُعْسِرُ علي متابعتَك، وعسراً مفعول ثان لترهقْ فإنه يقال: رَهَقَه إذا غشِيه وأرهقه إياه. وقرىء عُسُراً بضمتين.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

(٧٤) ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل فَتَلَ عُنُقَهُ، وقيل ضربَ برأسه الحائطَ، وقيل أضجعه فذبحَه. والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتلَه من غير تروٍّ واستكشافِ حال، ولذلك: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرةً من الذنوب. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويسٌ عن يعقوبَ زاكيةً، والأول أبلغُ، وقال أبو عمرو الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ والزكيةُ التي أذنبتْ ثم غفرتْ، ولعلَّه اختار الأولَ، لذلك فإنها كانت صغيرةً ولم تبلغِ الحُلُمَ أو أنه لم يَرَهَا قد أذنبتْ ذنباً يقتضي قتلَها أو قتلت نفساً فَتُقَادَ بها، نبَّه به على أن القتلَ إنما يباحُ حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتفٍ. ولعل تغييرَ النَّظْم ـ بأن جعلَ خَرْقَهَا جزاءً واعتراضَ موسى عليه الصلاة والسلام مُسْتَأْنَفاً في الأولى، وفي الثانية قَتْلَهُ من جملة الشرطِ واعتراضَه جزاءً ـ لأن القتل أقبحُ والاعتراضَ عليه أدخلُ فكانَ جديراً بأنْ يُجْعَلَ عمدةَ الكلام، ولذلك فصّلَه بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي منكراً. وقرأ نافعٌ في رواية قالونَ وَوَرْشٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكر نُكُراً بضمتين.

(٧٥) ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه «لك» مكافحةً بالعتاب على رفضِ الوصية، ووسْماً بقلّةِ الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزازُ والاستنكارُ، ولم يرْعَوِ بالتذكيرِ أولَ مرة حتى زاد في الاستنكار ثانيَ مرةٍ.

(٧٦) ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ وإن سألتُ صُحْبَتَكَ. وعن يعقوبَ فلا تَصْحَبْني، أي فلا تجعلْني صاحِبَك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدتَ عذراً من قبلي لما خالفْتُك ثلاثَ مراتٍ[1]. وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبثَ مع صاحبه لأبصرَ أعجبَ الأعاجيبِ»[2]. وقرأ نافع من لَدُنِي بتحريك النون والاكتفاءِ بها عن نون الدِّعامةِ كقوله: قَدْنِيْ مِنْ نَصْرِ

---

(١) الظاهر أن المخالفة بعد قتل الغلام تعدّ مرتين، أما الثالثة فبعد إقامة الجدار، وكأنه سهو من قلم القاضي رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٦ رقم ٣٩٨٤) والترمذي (٥/ ٤٦٣ رقم ٣٣٨٥) كلاهما من طريق عبدالله بن عباس، عن أبي بن كعب. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. قلت: إسناد صحيح.
وقد أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٥/ ٢٨٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) والحاكم (٢/ ٥٧٤) كلهم من حديث حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ١٨٥١ رقم ١٧٢) في سياق حديث طويل.

الخُبيبَيْنِ قُدى. وأبو بكر لدْنِي بتحريك النون وإسكانِ الدال إسكانَ الضاد من عضد.

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أنطاكيةَ، وقيل أبلةَ البصرةِ، وقيل باجروانَ أرمينيةَ. ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرىء يُضِيفُوهُما من أضافه يقال ضافَه إذا نزلَ به ضيفاً وأضافَه وضيَّفه أنزلَه، وأصلُ التركيبِ للميل يقال ضاف السهمَ عن الغرض إذا مال[1]. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يداني أن يسقطَ، فاستُعِيرَتِ الإرادةُ للمشارفة كما استعيرَ لها الهمُّ والعزْمُ قال:

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ ... وَيَعْـدِلُ عَـنْ دِمَـاءِ بَنِـي عَقِيـلِ

وقال:

إِنَّ دَهْـراً يَلُـمُّ شَمْلِـي بِجَمْـلٍ ... لَـزَمَـانٌ يَهُـمُّ بِـالإِحْسَـانِ

وانقضّ انفعلَ من قضضتُه إذا كسرته، ومنه انقضاضُ الطير والكواكبِ لِهُوِيِّه، أو افْعَلَّ من النقضِ. وقرىء أن يُنْقَضَ، وأن يَنْقاص بالصاد المهملة من انقاصَتِ السنُّ إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بعِمارته أو بعَمود عَمَدَه به، وقيل مسحه بيده فقام، وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ ٱلْجُعْلِ لينتعشا به، أو تعريضاً بأنه فُضول لِما في لو من النفي، كأنه لَما رأى الحرمانَ ومِساسَ الحاجة واشتغالَه بما لا يعنيه لم يتمالكْ نفسَه. واتّخذ افتعل من تَخِذَ كاتّبع من تَبع وليس من الأخذ عند البصريين. وقرأ ابن كثير والبصريان لَتَخِذْتَ أي لأخذت، وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمه الباقون.

(٧٨) ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ الإشارةُ إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ أو إلى الاعتراض الثالث أو الوقت، أي هذا الاعتراض سببُ فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافةُ الفراق إلى البين إضافةُ المصدر إلى الظرف على الاتّساع. وقد قرىء على الأصل[2]. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

(٧٩) ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لمحاويجَ، وهو دليل على أن المسكين يُطلَق على من يملك شيئاً إذا لم يكْفِه. وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع المِلك، أو لِزَمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسةٌ زَمنىٰ وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ قُدَّامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جَلَندىٰ بنُ كَركَر وقيل مِنوارُ بنُ

---

(١) ولعل العدول إلى النظم الكريم عن أن يقول فاستطعماهم لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع (س٥/ ٢٣٧).

(٢) أي قرىء بالتنوين من غير إضافة «هذا فراقٌ بيني...».

جلندى الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حقُ النظم أن يتأخر قولَه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيّب مسبَّبة عن خوف الغصْب، وإنما قُدِّم للعناية أو لأن السبب لَما كان مجموعَ الأمرين: خوفِ الغصْب ومسكنةِ المُلاّك رتَّبه على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقّبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم. وقرىء كلَّ سفينة صالحة، والمعنى عليها.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

(٨٠) ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يُغشِيَهما. ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه فيُلحقَهما شراً، أو يَقرُنَ بإيمانهما طغيانَه وكفره فيجتمعَ في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، أو يُعْدِيَهما بعلّته فيرتدا بإضلاله أو بممالأته على طغيانه وكفره. وإنما خشِي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نجْدة الحَروريَّ كتب إليه كيف قتله وقد نهىٰ النبي ﷺ عن قتل الولدان؟ فكتب إليه إن كنتَ علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل[1]. وقرىء فخاف ربُّك، أي فكره كراهة مِنْ خاف سوءَ عاقبته، ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ حكاية قول الله عز وجل.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أن يرزقهما بَدَلَه ولداً خيراً منه. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً على والديه. قيل وُلِدَت لهما جارية، فتزوجها نبي فوَلَدَت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبَدِّلَهما بالتشديد، وابنُ عامر ويعقوب وعاصم رُحْماً بالتخفيف[2]. وانتصابُه على التمييز والعاملُ اسم التفضيل، وكذلك زكاةً.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمُهما أصرمُ وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً[3]، والذمُّ على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[4] لمن لا يؤدي زكاتهما وما تعلقَ بهما من الحقوق. وقيل من كُتب .....

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٤/ ٤٢٣، ٥/ ٤٢) وأصله عند مسلم (٣/ ١٤٤٥ ج١٣٨).

(٢) القراءة في «رحماً» فقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء، وقرأ الباقون بإسكان الحاء. انظر الكشف عن وجوه القراءات (٢/ ٧٢) والمبسوط لابن مهران ص٢٣٨...

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣١٣ رقم ٣١٥٢) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٩) من حديث أبي الدرداء وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله «بل يزيد بن يوسف متروك وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز» هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٤) التوبة: «٣٤».

العلم[١]. وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفُل، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يَعرِف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله[٢]. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أن سعيَه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء وكان سيّاحاً واسمه كاشح. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحُلُم وكمالَ الرأي[٣]. ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مرحومَين من ربك، ويجوز أن يكون علّةً أو مصدراً لأراد فإن إرادةَ الخير رحمة، وقيل متعلق بمحذوف تقديرُه فعلتُ ما فعلتُ رحمةً من ربك. ولعل إسنادَ الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشِرُ للتعييب، وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بَدَلَه، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مَدْخَلَ له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالثَ خير والثانيَ ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالْتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وما فعلتُ ما رأيتَه. ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ عن رأيي وإنما فعلتُه بأمر الله عز وجل، ومبنىٰ ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمّلُ أهونهما لدفع أعظمهما، وهو أصل مُمَهَّد غير أن الشرائعَ في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع، فَحَذَفَ التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يُعْجَب المرء بعلمه ولا يبادرَ إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفُه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلِّم ويراعيَ الأدب في المقابل، وأن ينبه المجرمَ على جرمه ويعفوَ عنه حتى يتحقق إصرارُه ثم يهاجرَ عنه.

(٨٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندرَ الروميَّ مَلِك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقِها وغربها، وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنَه لُقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانَه. واختُلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه. والسائلون هم اليهودُ سألوه امتحاناً، أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين. والهاء لذي القرنين، وقيل لله.

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أَمْرَه من التصرف فيها كيف شاء، فحُذِفَ المفعول. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه. ﴿سَبَبًا﴾ وُصْلَةً توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

(٨٥) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي فأراد بلوغَ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بقطع الألفِ مُخَفَّفَةً .....

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٩) عن ابن عباس وصححه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) أخرجه البزار عن أبي ذر مرفوعاً (كشف الأستار ٣/ ٥٧) وذكر الهيثمي أن فيه من لا يعرفه (المجمع ٧/ ٥٣). وأخرجه ابن عدي في ترجمة أبين بن سفيان (١/ ٣٨٤) من طريقه عن أبي حازم عن ابن عباس موقوفاً. وقال: وما يرويه عمن رواه منكر كله.

(٣) في إضافة الرب إلى ضمير موسىٰ عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة. (س٥/ ٢٣٩).

التاء[١].

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ﴾ ذات حمأ، مِنْ حَمِئَتِ البئر إذا صارت ذاتَ حمأةٍ[٢]. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر حامِيَةٍ أي حارة، ولا تنافيَ بينهما لجواز أن تكون العينُ جامعةً للوصفين، أو حميَة على أن ياءَها مقلوبةٌ عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مَطمح بصره غيرُ الماء، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ﴾ ولم يقل كانت تغرُب. وقيل إن ابن عباس سمع معاويةَ يقرأ «حاميةٍ»، فقال: حمِئَة، فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة[٣] ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوۡمٗاۗ﴾ قيل كان لباسُهم جلودَ الوحش وطعامُهم ما لَفَظَهُ البحر، وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوَهم إلى الإيمان كما حكى بقوله: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل، ويؤيده الأول قوله:

(٨٧) ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي فاختار الدعوةَ وقال: أما من دعوتُه فظلم نفسَه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنَا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكراً لم يُعهد مثلُه.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وهو ما يقتضيه الإيمانُ. ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين. ﴿جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ فَعْلتِه الحسنى. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ وحفصٌ جزاءً منوناً، منصوباً على الحال، أي فله المثوبة الحسنى مجزياً بها أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يُجزىٰ بها جزاء، أو التمييز، وقرىء منصوباً غيرَ مُنوَّن على أن تنوينَه حُذِف لالتقاء الساكنين، ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ والحسنى بدلُه. ويجوز أن يكون أمّا وإمّا للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنُك معهم إما التعذيبَ وإما الإحسانَ، فالأولُ لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه. ونداءُ الله إياه إن كان نبياً فبوَحْي وإن كان غيرَه

---

(١) وقرأ الباقون «فاتَّبع» بهمزة الوصل وتشديد التاء، هنا والآية «٩٢»: «ثم اتَّبع سبباً».

(٢) وهي الطين الأسود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩/ج١٦/ ١١) وفي إسناده: سعيد بن مسلمة الأموي، وهو ضعيف.

- وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس أن القصة كانت مع عمرو بن العاص وفي إسناده سند وهو ضعيف.
- كما أخرج عن ابن عباس أيضاً أنه كان يقرأ (حامية) مثل معاوية، وفي إسناده: عبدالله أبو صالح كاتب الليث، وهو ضعيف.
- قلت: وانظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢).

فبإلهام أو على لسان نبي. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ بما نأمر به. ﴿يُسْرًا﴾ سهلاً ميسراً غيرَ شاق، وتقديره ذا يُسر. وقرىء بضمتين.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم أتبع طريقاً يوصِلُه إلى المشرق.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضعَ الذي تَطلُع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض. وقرىء بفتح اللام على إضمار مضافٍ، أي مكانَ مطلَعِ الشمس فإنه مصدر. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تُمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسرابَ بدل الأبنية.

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رِفْعَة المكان وبَسْطَة الملك، أو أَمْرُهُ فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوف لوجد أو نجعل، أو صفةَ قوم أي على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعُدَد والأسباب. ﴿خُبْرًا﴾ علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علمُ اللطيف الخبير.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترِضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلا أرْمينيةَ وأَذْرَبيجانَ، وقيل جبلان مُنيفانِ في أواخر الشمال في منقطع أرض التُرك من ورائهما يأجوجُ ومأجوجُ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر ويعقوبُ بين السُّدَّيْن بالضم، وهما لغتان، وقيل المضموم لِمَا خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناسُ لأنه في الأصل مصدر سُمِّي به حَدَثٌ يُحْدِثُه الناس، وقيل بالعكس. وبين ـ هنا ـ مفعول به، وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلةِ فِطْنتهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لا يُفْقِهُون أي لا يُفهِمُون السامع كلامَهم ولا يبينونه لتلعثُمهم فيه.

(٩٤) ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال مترجمُهُم، وفي مصحف ابن مسعود قال الذين من دونهم. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافثَ بنِ نوحٍ، وقيل يأجوجُ من الترك ومأجوج من الجبل. وهما اسمان أعجميان بدليل منعِ الصرف، وقيل عربيان مِنْ أجَّ الظليمُ إذا أسرع، وأصلُهما الهمز كما قرأ عاصم، ومنعُ صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يَخْرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون

الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نُخرِجه من أموالنا. وقرأ حمزةُ والكسائي خَرَاجاً، وكلاهما واحد كالنَّوْل والنَّوال. وقيل الخراج على الأرض والذمّةِ، والخرْج المصدر. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يَحْجُز دون خروجهم علينا. وقد ضمّه من ضم السُّدّين غيرَ حمزةَ والكسائيِّ.

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مَكيناً من المال والمُلْك خيرٌ مما تَبْذُلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير مكّنني على الأصل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فَعَلَةٍ، أو بما أتقوى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السد مِنْ قولهم ثوب مُرَدَّم إذا كان رِقاعاً فوق رقاع[1].

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قِطَعَه، والزُّبْرَة القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي ردّ الخَراج والاقتصارَ على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءةُ أبي بكر ردماً ائتوني بكسر التنوين موصولةَ الهمزة على معنى جيئوني بزُبُر الحديد. والباءُ محذوفةٌ حذْفَها في أمرتُك الخيرَ، ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل[2]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضمتين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرىء بفتح الصاد وضم الدال، وكلها لغات من الصَّدْف وهو الميلُ لأن كلاً منهما منعزل عن الآخر، ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي قال للعَمَلَة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ﴾ جعل المنفوخ فيه[3]. ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء. ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قِطْراً أي نحاساً مذاباً أُفرغ عليه قطراً، فحَذَفَ الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملَيْن المتوجهَين نحوَ معمول واحد أولى، إذ لو كان قِطراً مفعول آتوني لأُضْمِر مفعول أُفرِغْ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر قال أُتوني موصولة الألف.

(٩٧) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حدّه. وقرىء بقلب السين صاداً ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يَعْلُوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لثِخَنه وصلابته. وقيل حَفَرَ للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذابِ والبنيانَ من زبر الحديد بينهما الحطبُ والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار، فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق بعضُه ببعض وصار

---

(١) وتقديم «بينكم» على «بينهم» لإظهار كمال العناية بمصالحهم (س٥/ ٢٤٥).

(٢) ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء لزبر الحديد دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لأن الحاجة إليها أمسّ إذ هي الركن في بناء السد، ووجودها أعز. (س٥/ ٢٤٥).

(٣) وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين لأنه العمدة في ذلك (س٥/ ٢٤٦).

جبلاً صلداً. وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليبَ من حديد ونُحاس مذابٍ في تجاويفها.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾

(٩٨) ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ هذا السدُّ أو الإقدارُ على تسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ على عباده. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوجَ ومأجوجَ، أو بقيام الساعة بأن شارف يومَ القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مدكوكاً مبسوطاً مسوّى بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جَمَلٌ أَدَكُّ لمنبَسِطِ السَّنام. وقرأ الكوفيون دَكّاءَ بالمدّ، اي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة. وهذا آخرُ حكاية قول ذي القرنين.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوجَ ومأجوج حين يَخرجُون مما وراء السد يَمُوجون في بعضٍ مزدحمين في البلاد، أو يموج بعضُ الخلق في بعض فيصطربون ويختلطون، إنسُهم وجِنّهم حيارىٰ، ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء[1].

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم[2].

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي يُنْظَر إليها فأُذْكَرُ بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكري وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصمَّ قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أُصمّت مسامِعُهم بالكلية.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظنوا، والاستفهامُ للإنكار. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخاذَهم الملائكةَ والمسيح ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعَهم أو لا أعذبهم به. فحُذف المفعول الثاني كما يُحذف الخبرُ للقرينة، أوسدّ «أن يتخذوا» مسدّ مفعوليه. وقرىء ﴿أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أفكافيهم في النجاة؟ وأنْ بما في حيزها مرتفعٌ بأنه فاعلُ حَسْبُ، فإن النعت إذا اعتَمَدَ على الهمزة ساوى الفعلَ في العمل، أو خبرٌ له. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ما يقام للنزيل، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تُستَحقر دونه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز. وجُمِعَ لأنه من أسماء الفاعلين، أو لتنوع أعمالهم.

---

(١) لم يتعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار، ولئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى والآخرة (س٥/٢٤٧).

(٢) وتخصيص العرض بهم ـ مع أنها بمرأىٰ من أهل الجمع قاطبة ـ لأن ذلك لأجلهم خاصة (س٥/٢٤٧).

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٤) ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضاع وبَطَل لكفرهم وعُجْبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم. ومحله الرفعُ على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال، أو الجرُّ على البدل، أو النصبُ على الذم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعُجْبِهم واعتقادِهم أنهم على الحق.

(١٠٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن، أو بدلائله المنصوبةِ على التوحيد والنبوة[1]. ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاءِ عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يُثابون عليها. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالُهم لانحباطها.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمْرُ ذلك، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيِّنة له، ويجوز أن يكونَ ذلك مبتدأً والجملةُ خبره والعائدُ محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بَدَلُه وجهنمُ خبره، أو جزاؤهم خبرُه، وجهنم عطفُ بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي بسبب ذلك.

(١٠٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعدِه. والفردوسُ أعلى درجات الجنة، وأصلُه البستانُ الذي يَجْمَع الكرم والنخل.

(١٠٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيبَ منها حتى تنازِعَهم إليه أنفسُهم، ويجوز أن يراد به تأكيدُ الخلود.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ ما يُكْتَب به، وهو اسمُ ما يُمدّ به الشيءُ كالحِبْر للدواة والسّليط للسِّراج. ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ لنفد جنسُ البحر بأمره، لأن كل جسم متناهٍ. ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ فإنها غيرُ متناهية لا تنفَدُ كعلمه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادةً ومعونة، لأن مجموعَ المتناهين متناهٍ بل مجموعُ ما يَدخُل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد، والمتناهي ينفد قبل أن ينفد غيرُ المتناهي لا محالة. وقرىء ينفد بالياء، ومِدَاداً بكسر الميم جمع مُدّة وهي ما يَستمدُّه الكاتب، ومِدَاداً. وسبب نزولها[2] أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3] وتقرؤون ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور (س٥/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه الواحدي بنحوه عن ابن عباس ولم يذكر سنده (أسباب النزول ص٣٠٧).

(٣) البقرة: «٢٦٩».

(٤) الإسراء: «٨٥».

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنما تميزتُ عنكم بذلك. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يؤمل حسنَ لقائه أو يخاف سوءَ لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ بأن يُرائِيَه أو يطلب منه أجراً. روي أن جُندُبَ بنَ زهير قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العمل لله فإذا اطُّلِعُ عليه سرّني، فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له[١] وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[٢]. والآية جامعة لخُلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ: «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يُصَلّون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور، حشوُ ذلك النور ملائكةٌ يصلون عليه حتى يستيقظ»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ سورةَ الكهف من آخرها كانت له نوراً من قَرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٤].

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٩٩) عن ابن عباس بغير سند.
وأخرجه ابن منده وأبو نعيم في «الصحابة» وابن عساكر ـ كما في «فتح القدير» (٣/٣١٨) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس، فلا يريد به الله، فنزلت الآية. وهذا إسناد مظلم كله كذابون، فالحديث باطل.

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بهذا، ومن هذا الوجه. أخرجه الثعلبي، وأبو قاسم الطلحي ـ وهو الأصبهاني: التذكرة (٤/١٢٧٧) ـ في الترغيب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥ رقم ٣٣٣).
ثم قال: وفي الباب عن محمود بن لبيد. ورفعه «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء» أخرجه أحمد ـ في المسند (٥/٤٢٨) والدارقطني في غرائب مالك، والبيهقي في «الشعب» ـ (٥/٣٣٣ رقم ٦٨٣١) ـ من رواية عمرو بن أبي عمرو بن قتادة عنه. وعن شداد بن أوس قال «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» أخرجه الطبراني ـ في الكبير (٧/٢٨٩ رقم ٧١٦٠) وابن مردويه. وفي إسناده ابن لهيعة ـ كما في «الكافي الشافِ» رقم (٣٣٣).
وقد تعاقبه يحيى بن أيوب المقابري عند الحاكم (٤/٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: يحيى صدوق فيه مقال. لكن الحديث يرتقي إلى الحسن والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٠٥).
قلت: هو الإسناد الذي تقدم في رقم (٣٣٤) والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩) بلفظ «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها....».
وابن السني في «اليوم والليلة» رقم (٦٧٧) من حديث معاذ بن أنس الجهني، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٠٥ رقم ٣٣٤) وفي إسناده ابن لهيعة ـ ضعيف من قبل حفظه ـ وأخرجه الطبراني ـ في «الكبير» (٢٠/١٩٧ رقم ٤٤٣) ـ من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زبان بن قائدوهم ضعفاء. والخلاصة أن الحديث ضعيف. =

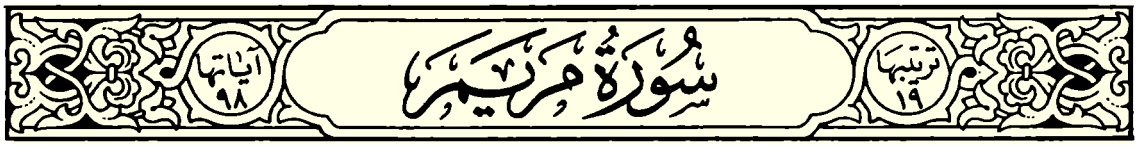

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

سورة مريم مكيةٌ، إلا آيةَ السجدة[1]، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعون آية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أمال أبو عمرٍو الهاءَ لأن أَلِفَاتِ أسماء التهجّي ياءات، وابنُ عامر وحمزةُ الياءَ، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافعُ بَيْن بَيْن، ونافع وابنُ كثير وعاصمٌ يُظهرون دالَ الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ ما قبلَه إن أُوِّلَ بالسورة أو بالقرآن فإنه مشتمل عليه، أو خبرُ محذوفٍ أي هذا المتْلوُّ ذكرُ رحمة ربك، أو مبتدأٌ حُذِف خبرُه أي فيما يتلىٰ عليك ذكْرُها. وقرىء ذَكَرَ رحمةَ على الماضي، وذَكِّرْ على الأمر. ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولُ الرحمة أو الذكْر، على أن الرحمة فاعلُه على

---

(١) الآية: «٥٨».

(٢) سورة مريم مكية بالإجماع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة مريم بمكة.
[انظر «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٧٢ ـ ٧٣)].

الاتّساع كقولك: ذَكّرني جودُ زيد. ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلٌ منه، أو عطف بيانٍ له.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيّان والإخفاءُ أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً، أو لئلا يُلام على طلب الولد في إبّان الكِبَر، أو لئلا يَطّلعَ عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضَعْف الهرم أخفىٰ صوتَه. واختُلف في سِنّه حينئذ، فقيل ستون، وقيل سبعون، وقيل خمس وسبعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل تسع وتسعون.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ تفسيرٌ للنداء، والوَهَن الضعف. وتخصيصُ العَظْم لأنه دَعامة البدن وأصلُ بنائه ولأنه أصلبُ ما فيه، فإذا وهَن كان ما وراءه أوهنَ، وتوحيده لأن المراد به الجنسُ. وقرىء وَهُنَ ووَهِنَ بالضم والكسر، ونظيره كَمُل بالحركات الثلاث. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شَبَّه الشيبَ في بياضه وإنارته بشُواظ النار وانتشارِه، وفشُوَّه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مُخرجَ الاستعارة، وأسند الاشتعالَ إلى الرأس الذي هو مكانُ الشيب مبالغة، وجَعَلَه مميِّزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفىٰ باللام على الإضافة للدِلالة على أن علمَ المخاطَب بتعين المراد يُغني عن التقييد. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتُك استجبتَ لي، وهو توسلٌ بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيهٌ على أن المدعوَّ له وإن لم يكن معتاداً فإجابتُه معتادة، وأنه تعالى عوَّدَه بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يُخيِّب من أطمعه[1].

(٥) ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ يعني بني عمِّه وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخاف أن لا يُحسِنوا خلافته على أُمته ويُبَدِّلوا عليهم دينهم. ﴿مِن وَرَآءِى﴾ بعد موتي. وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء. وهو يتعلق بمحذوف، أو بمعنى الموالي أي خفت فِعْل الموالي من ورائي، أو الذين يلُون الأمر من ورائي. وقرىء خَفَّتْ الموالي من ورائي، أي قَلُّوا وعجَزُوا عن إقامة الدين بعدي، أو خَفُّوا ودرجوا قُدّامي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بخفتُ. ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ فإن مثله لا يُرجىٰ إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامرأتي لا نَصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صُلبي[2].

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صفتان له، وجَزَمَهُما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمرادُ وراثةُ الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال. وقيل يرثني الحُبُورَةَ فإنه كان حَبْراً، ويرثُ من آل يعقوب المُلْك، وهو يعقوبُ بنُ إسحاقَ عليهما الصلاة والسلام. وقيل يعقوب كان أخا زكريا، أو عمرانُ بنُ ماثانَ من نسل سليمانَ عليه السلام. وقرىء يرثني وَأرِثُ آلَ يعقوب على الحال من أحد الضميرين، وأوَ يُرِثُ بالتصغير لصغره، ووَارِثٌ مِنْ آل يعقوب على أنه فاعل يرثني وهذا

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية مع إضافته لضميره عليه السلام لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع (س٥/ ٢٥٤).

(٢) قدم قوله «وكانت امرأتي عاقراً» على قوله «فهب لي..» لكون مدلوله أهم عنده.
وتأخير «ولياً» عن الجارّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٥/ ٢٥٤).

يسمى التجريد في علم البيان لأنه جُرِّد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه قولاً وعملاً[١].

يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

(٧) ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ جواب لندائه ووعدٌ بإجابة دعائه. وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسمَّ أحدٌ بيحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغريبة تنويه للمسمىٰ. وقيل سَمِياً شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[٢] لأن المتماثلين يتشاركان في الاسم، والأظهرُ أنه أعجميٌّ وإن كان عربياً فمنقول عن فِعْلٍ كيعيش ويعمل. وقيل سُمّي به لأنه حَيِيَ به رحِمُ أمه، أو لأن دينُ الله حَيِيَ بدعوته.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جَسَاوةً وقُحولاً في المفاصل[٣]، وأصله عُتُوٌّ كقعود فاستثقلوا تواليَ الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواوُ الأولى ياء، ثم قُلبت الثانية وأدغمت. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عِتِياً بالكسر، وإنما استَعْجَبَ الولدَ من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ اعترافاً بأن المؤثرَ فيه كمالُ قدرته وأن الوسائطَ عند التحقيق ملغاة[٤]، ولذلك:

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو المَلَك المبلِّغُ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بقال في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارةٌ إلى مبهم يفسره: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هيّن» أي الأمر كما قلتُ أو كما وَعَدتُ وهو على ذلك يهون عليّ، أو كما وعدت وهو عليّ هيِّنٌ لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب. ومفعولُ قال الثاني محذوفٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ معدوماً صرْفاً، وفيه دليلٌ على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزةُ والكسائي وقد خلقناك.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ علامةً أعلم بها وقوع ما بشّرتني به. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

---

(١) وتوسيط «رب» بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه (س٥/ ٢٥٥).

(٢) مريم: «٦٥».

(٣) يقال: جسا الشيء يجسو إذا يبس وصلُب. وكذا قَحِل، يقال: قحِل الشيء قَحَلاً إذا يبس جلده على عظمه (المصباح المنير مادة جَسَوَ وقحل).

(٤) لعله عليه السلام ابتدأ ههنا بذكر حال امرأته، بينما في سورة آل عمران قدم ذكر نفسه «قال رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبَر وامرأتي عاقر..» ـ الآية «٤٠» ـ لأنه هنا قد ذَكَر حاله في تضاعيف دعائه. أما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته، لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب (س٥/ ٢٥٦).

﴿ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خرس ولا بَكَم، وإنما ذكر الليالِيَ هنا والأيامَ في آل عمران[1] للدلالة على أنه استمر عليه المنعُ من كلام الناس والتجردُ للذكر والشكر ثلاثةَ أيام ولياليَهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ من المصلىٰ أو من الغرفة. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ إليهم لقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾[2]. وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ صلّوا أونزهوا ربكم. ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبّح ويأمرَ قومه بأن يوافقوه. وأنْ تَحْتَمِل أن تكون مصدرية، وأن تكون مفسِّرة.

(١٢) ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمةَ وفهمَ التوراة، وقيل النبوةَ أحكم الله عقله في صباه واستنبأه.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ورحمةً منّا عليه، أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما. عطْفٌ على الحكم. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ وطهارة من الذنوب، أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه. أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

(١٤) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وبارّاً بهما. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ من الله. ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

(١٦) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في القرآن. ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ اعتزلتْ، بَدَلٌ من مريم بدلَ الاشتمال لأن الأحيان مشتمِلةٌ على ما فيها، أو بدلُ الكل لأن المراد بمريم قصتُها وبالظرف الأمرُ الواقعُ فيه وهما واحد، أو ظرفٌ لمضاف مقدر. وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شرقيَّ بيتِ المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قِبلة. ومكاناً ظرفٌ أو مفعول، لأن انتبذت متضمن معنى أتت.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ ستراً. ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل قعدت في مُشْرَفة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها ـ وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا

---

(١) آل عمران «٤١»: «قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً».

(٢) آل عمران: «٤١».

حاضت وتعود إليه إذا طهُرت ـ فبينما هي في مغتسَلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمردَ سويِّ الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهييج شهوتها به فتنحدر نطفتها إلى رحمها[١].

قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة. وجوابُ الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي فإني عائذة منك، أو فتتعظ بتعويذي، أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك؟

(١٩) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به[٢]. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرع[٣]، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرٍو والأكثرِ عن نافع ويعقوبَ بالياء[٤]. ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

(٢٠) ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ ولم يباشِرْني رجلٌ بالحلال، فإن هذه الكناياتِ إنما تُطلقُ فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه خَبُثَ بها وفَجَرَ ونحو ذلك، ويعضُده عطْفُ قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فعول من البغي قُلِبت واوُه ياءً وأُدغمت ثم كُسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فعيل بمعنى فاعل ولم تلحقْه التاءُ لأنه للمبالغة، أو للنَّسَب كطالِق.

---

(١) وهذا القول الأخير لا يوافقه مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، وكذا ما بعده حينما استعاذت بالرحمٰن.. ولا يوجد ما يدل على أنه عليه السلام جاءها وهي تغتسل فاتخاذها للحجاب لا يعني للغسل فإنه كان من عادتها الخلوة للعبادة، يدل عليه قوله تعالى «كلما دخل عليها زكريا المحراب..».

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها، والإشعارِ بعلة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها (س٥/ ٢٦٠).

(٣) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٤١): «أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» [التحريم: ١٢] وقال «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا» [الأنبياء: ٩١]. والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً» ولا ينافي ذلك إسنادُ الله جلّ وعلا النفخَ المذكور لنفسه في قوله «فنفخنا» لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه بمشيئته جلّ وعلا ـ أسنده إلى نفسه ـ والله تعالى أعلم.
ـ وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط. بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل» هـ.

(٤) أي «لِيَهَبَ».

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ أي ونفعلُ ذلك لنجعلَه آيةً، أو لنبيّن به قدرتَنا ولنجعله، وقيل عَطْفٌ على ليهَبَ على طريقة الالْتفات. ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاءُ الله في الأزل، أو قَدَّر وسطر في اللوح، أو كان أمراً حقيقاً بأن يُقضىٰ ويُفعل لكونه آية ورحمة.

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأنْ نَفَخَ في دِرعها فدخلت النفخةُ في جوفها وكان مدةُ حملها سبعةَ أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعِش مولودٌ وضع لثمانية غيرُه، وقيل ساعةً كما حملته نبذتْه. وسِنُّها ثلاثَ عشرة سنة، وقيل عشر سنين[1]، وقد حاضت حيضتين. ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله: تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَرِيبَا. والجارّ والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار.

(٢٣) ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فألجأها المخاض، وهو في الأصل منقول من جاء، لكنه خُصّ به في الاستعمال كآتىٰ في أعطىٰ. وقرىء المِخَاضُ بالكسر، وهما مصدر مَخَضَت المرأةُ إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمدَ عليه عند الولادة، وهو ما بين العِرْق والغُصن، وكانت نخلةً يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء. والتعريفُ إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثَمَّ غيرُها، وكانت كالمتعالَم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريَها من آياته ما يُسْكِن روعتها ويُطعمها الرطَب الذي هو خُرْسَةُ[2] النَفَساء الموافقةُ لها. ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ استحياءً من الناس ومخافةَ لومهم. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر مُتُّ من مات يموت. ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما من شأنه أن يُنسىٰ ولا يُطلب، ونظيرُه الذِّبْحُ لما يُذبح. وقرأ حمزةُ وحفصٌ بالفتح[3]، وهو لغةٌ فيه أو مصدرٌ سمي به، وقرىء به وبالهمز[4] وهو الحليب المخلوط بالماء يَنْسؤُه أهلُه لقلته. ﴿مَّنسِيًّا﴾ مَنسِيَّ الذكر بحيث لا يَخطر ببالهم. وقرىء بكسر الميم على الإتْباع.

---

(١) قال سيد قطب رحمهُ الله في «الظلال» (٤/ ٢٣٠٦ ـ ٢٣٠٧): «إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تُكسىٰ العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية... كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكوّن الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة... ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها...» هـ.

(٢) خُرسة النفساء أي طعامُها (المصباح المنير مادة خرس).

(٣) أي بفتح النون «نَسْيًا» بينما قرأ الباقون بكسر النون.

(٤) القراءة بالهمز أي (نِسْئًا ونَسْأً) بفتح النون وكسرها.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يَقْبَلُ الولد، وقيل تحتها أسفلَ من مكانها. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي وحفصٌ وروحٌ مِنْ تحتِها بالكسر والجر على أن في نادى ضميرَ أحدهما، وقيل الضمير في تحتها النخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جَدْولاً، هكذا روي مرفوعاً[١]. وقيل سرياً من السَّرْوَ[٢] وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٥) ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وأميليه إليك والباءُ مزيدة للتأكيد، أو افعلي الهز والإمالة به، أو هُزي الثمرة بهزّه. والهزّ تحريك بجذب ودفع. ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ تتساقط فأدغمت التاءُ الثانية في السين، وحَذَفَها حمزةُ[٣]، وقرأ يعقوب بالياء[٤]، وحفص تُساقِطْ من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرىء تَتَساقطْ وتُسْقِطْ ويُسْقِطْ فالتاء للنخلة والياء للجذع. ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تمييز أو مفعول. روي أنها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ثمرَ وكان الوقت شتاءً، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخُوصاً ورُطباً. وتسليتُها بذلك لما فيه من المعجزات الدالةِ على براءة ساحتها، فإن مثلَها لا يُتصور أن يرتكب الفواحش، والمنبهةِ لمن رآها على أن من قدَر أن يُثمر النخلة اليابسةَ في الشتاء قدَر أن يُحْبِلها من غير فحل، وأنه ليس ببِدْعٍ من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام، ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

(٢٦) ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ أي من الرطب وماء السّريّ، أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ وطيّبي نفسك وارفُضي عنها ما أحزنك، وقرىء وقِرّي بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقُه من القَرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القَرّ فإنّ دمعةَ السرور باردةٌ ودمعةَ الحزن حارةٌ ولذلك يقال قُرّةُ العين للمحبوب، وسُخنتُها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإنْ تريْ آدمياً. وقرىء تَرَئِنّ على لغة من يقول لَبَّأْتُ[٥] بالحج لتآخٍ بين الهمزة وحرف اللّين. ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ صمتاً، وقد قرىء به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتُكم بنَذْري، وإنما أكلم الملائكةَ وأُناجي ربي. وقيل أخبرتْهم بنذرها بالإشارة، وأَمَرَها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطعٌ في قَطْع الطاعن.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/٦٩) والحاكم (٢/٣٧٣) وعبدالرزاق وابن مردويه في تفسيرهما (الفتح السماوي ص٨١١) كلهم موقوفاً على البراء بن عازب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
وأخرج نحوه مرفوعاً الطبراني في الكبير (١٢/٣٤٦ ح١٣٣٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٤٦) في ترجمة عكرمة. وفي سنده أيوب بن نهيك وهو ضعيف.

(٢) والسَّرْو سخاءٌ في مروءة (مختار الصحاح مادة سرا).

(٣) قراءة حمزة «تَسَاقَطْ» بالتاء خفيفة السين.

(٤) قراءة يعقوب «يَسَّاقَطْ» بالياء مشددة السين.

(٥) لَبَّأْتُ بالحج أي لَبَّيتُ مِنَ التلبية.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعةً إليهم بعد ما طهُرت من النفاس. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حاملةً إياه. ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكراً، من فَرَىٰ الجلدَ[1].

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت من أعقاب مَنْ كان معه في طبقة الإخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألفُ سنة، وقيل هو رجل طالح أو صالح كان في زمانهم شبّهوها به تهكماً، أو لِما رأوا قبلُ من صلاحها، أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأن ما جاءت به فَرِيّ، وتنبيه على أن الفواحشَ من أولاد الصالحين أفحشُ.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، أي كَلِّمُوه ليجيبَكم. ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نعهد صبياً في المهد كلمه عاقلٌ. وكان زائدةٌ، والظرفُ صلةُ مَنْ، وصبياً حالٌ من المستكنّ فيه، أو تامةٌ أو دائمة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2] أو بمعنى صار.

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أولُ المقامات، وللرد على من يزعُم ربوبيتَه. ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً معلّماً للخير، والتعبيرُ بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقَّق وقوعُه كالواقع. وقيل أكمل الله عقلَه واستنبأه طفلاً. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ حيث كنت. ﴿وَأَوْصَىٰنِى﴾ وأمرني. ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاةِ المال إن ملكتُه، أو تطهيرِ النفس عن الرذائل. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ وبارّاً بها، عطفٌ على مباركاً. وقرىء بالكسر، على أنه مصدرٌ وُصِف به، أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني بِراً، ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على الصلاة. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عند الله من فَرْط تكبره.

(٣٣) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو علىٰ يحيىٰ. والتعريفُ للعهد والأظهرُ أنه للجنس. والتعريضُ باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنسَ السلام على نفسه عرَّضَ بأنّ ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[3] فإنه تعريضٌ بأن العذاب على من كذّب وتولىٰ.

---

(١) وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب (س٥/ ٢٦٣).

(٢) النساء: ﴿١٧﴾.

(٣) طه: ﴿٤٧﴾.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي الذي تقدم نعتُه هو عيسى بنُ مريم لا ما يَصِفه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونه على الوجه الأبلغ والطريقِ البرهانيِّ حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خبر محذوف أي هو قولُ الحق الذي لا ريب فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفةُ عيسى أو بدلٌ أو خبر ثانٍ ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصمٌ وابن عامر ويعقوبُ قولَ بالنصب على أنه مصدر مؤكد، وقرىء قالَ الحقَّ وهو بمعنى القول. ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهودُ ساحر وقالت النصارى ابنُ الله. وقرىء بالتاء على الخطاب.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيبٌ للنصارى وتنزيهٌ لله تعالى عما بَهَتُوه. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ لهم، فإن مَنْ إذا أراد شيئاً أوجده بِكُنْ كان منزَّهاً عن شَبَه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث. وقرأ ابن عامر فيكونَ بالنصب على الجواب.

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. وقرأ الحجازيانِ والبصْريان وأنّ بالفتح على: ولأنّ، وقيل إنه معطوف على الصلاة.

(٣٧) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ اليهود والنصارى. أو فِرقُ النصارى، نسطورية قالوا إنه ابن الله، ويعقوبيةٌ قالوا هو اللهُ هبط إلى الأرض ثم صَعِد إلى السماء، ومَلْكانية قالوا هو عبدالله ونبيه. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هَوْلُه وحسابُه وجزاؤه وهو يوم القيامة، أو من وقت الشهود، أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أنْ تشهد عليهم الملائكةُ والأنبياء وألسنتُهم وآرابُهم[2] وأرجلُهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمِّه.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجبٌ معناه أنّ أسمَاعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة جديرٌ بأن يُتعجَّب منهما بعدَما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديدُ بما سيسمعون ويبصرون يومئذ، وقيل أَمْرٌ بأن يُسْمِعَهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يَحيق بهم فيه. والجارُّ والمجرور على الأول في موضع الرفع، وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَوْقَعَ الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بَيّن.

---

(١) آل عمران: «٥١».

(٢) آرابهم أي أعضاؤهم، فإن الإرْبَ يستعمل في الحاجة وفي العضو (المصباح المنير مادة أرب).

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس، المسيءُ على إساءته والمحسنُ على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فُرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدلٌ من اليوم أو ظرفٌ للحسرة. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ متعلقة بقوله «في ضلال مبين» وما بينهما اعتراضٌ. أو بأنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم مُلْكٌ ولا مَلِك، أو نتوفَّى الأرضَ ومَنْ عليها بالإفناء والإهلاك تَوفِّيَ الوارثِ لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُردون للجزاء.

(٤١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صَدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسلِه. ﴿نَبِيًّا﴾ استنبأه الله.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من إبراهيم، وما بينهما اعتراضٌ، أو متعلق بكان أو بصديقاً نبياً. ﴿لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ التاءُ معوَّضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتي ويقال يا أبتا، وإنما تُذكَر للاستعطاف ولذلك كرّرها. ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيَعْرِفَ حالَك ويسمعَ ذِكْرك ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ في جلب نفعٍ أو دفع ضُر. دعاه إلى الهدى وبيّن ضلاله واحتج عليه أبلغَ احتجاج وأرشقَه برفق وحُسن أدب، حيث لم يصرِّح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يَستخِف به العقلُ الصريح ويأبى الركونَ إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غايةُ التعظيم، ولا تَحِقُّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعامُ العام، وهو الخالق الرازقُ المحيي المميتُ المعاقبُ المُثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يَفعلُ لغرض صحيح، والشيءُ لو كان حياً مميِّزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر ـ ولكن كان مُمْكِناً ـ لاستنكف العقلُ القويم عن عبادته وإن كان أشرفَ الخلق كالملائكة والنبيين، لِما يراه مِثْلَه في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟! ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهدِيَه إلى الحق القويم والصراطِ المستقيم لمَا لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي، فقال:

(٤٣) ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ولم يُسَمِّ أباه بالجهل المُفْرِط ولا نفسَه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرفَ بالطريق، ثم ثبّطه عما كان عليه بأنه ـ مع خُلوّه عن النفع ـ مستلزمٌ للضر، فإنه في الحقيقة عبادةُ الشيطان من حيث إنه الآمرُ به، فقال:

(٤٤) ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ولما استهجن ذلك بيّن وجهَ الضر فيه بأن الشيطان مستعصٍ على ربك المولي للنعم كلِّها بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوِع للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاصٍ حقيقٌ بأن تُستَردَّ منه النعم ويُنتقَمَ منه[1]، ولذلك عقبه بتخويفه سوءَ عاقبته وما يجرّ إليه فقال:

---

(١) قوله «إن الشيطان» حيث أظهر «الشيطان» في موضع الإضمار لزيادة التقرير. =

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ قريناً في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبرُ من العذاب كما أن رِضوان الله أكبرُ من الثواب. وذِكْرُ الخوف والمسّ وتنكيرُ العذاب إما للمجاملة، أو لخفاء العاقبة. ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جناياته لارتقاء همته في الربانية، أو لأنه مَلاكُها، أو لأنه من حيث إنه نتيجةُ معاداته لآدمَ وذريته مُنَبَّهٌ عليها[1].

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ قابَلَ استعطافه ولطفَه في الإرشاد بالفظاظة وغِلْظة العِناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبتي بيا بُنَيّ، وأخّره وقدّم الخبرَ على المبتدأ وصدّره بالهمزة لإنكار نفسِ الرغبة على ضربٍ من التعجب كأنها مما لا يَرْغَب عنها عاقل، ثم هدّده فقال: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبةِ عنها. ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ بلساني يعني الشتمَ والذم، أو بالحجارة حتى تموت أو تبعُد مني. ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾ عطفٌ على ما دل عليه لأرجمنك أي فاحذرني واهجرني. ﴿مَلِيّٗا﴾ زماناً طويلاً مِنَ المَلاوة، أو مليّاً بالذهاب عني.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ ومقابَلةٌ للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بَعْدُ ما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقةَ الاستغفار للكافر استدعاءُ التوفيق لما يوجب مغفرته. وقد مر تقريره في سورة التوبة[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ بليغاً في البِرّ والإلطاف.

(٤٨) ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني. ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ خائباً ضائعَ السعي مثلَكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى التواضعُ وهضمُ النفس، والتنبيهُ على أن الإجابة والإثابةَ تفضّلٌ غيرُ واجبتين، وأن مَلاك الأمرِ خاتمتُه وهو غيْبٌ.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ بدلَ مَنْ فارقهم مِنَ الكفرة. قيل إنه لما قصد الشامَ أتى أولاً حَرّان وتزوج بسارةَ، وولدت له إسحاقَ وولد منه يعقوبُ. ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء، أو لأنه أراد أن يَذْكُر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ وكلاً منهما أو منهم.

= والتعرض لوصف الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه (س٥/ ٢٦٧).

(١) إظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب (س٥/ ٢٦٧).

(٢) التوبة: ١١٤.

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوةَ والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناسُ ويُثنون عليهم، استجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1]. والمرادُ باللسان ما يوجَدُ به، ولسانُ العرب لغتُهم. وإضافتُه إلى الصدق وتوصيفُهُ بالعلو للدلالة على أنهم أحِقاءُ بما يُثنون عليهم، وأن محامدهم لا تَخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدّل الملل.

(٥١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحِّداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه. وقرأ الكوفيون بالفتح[2] على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدِّم رسولاً مع أنه أخلصُ وأعلى.

(٥٢) ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنىٰ من اليمين وهي التي تلي يمين موسى، أو من جانبه الميمون من اليمين بأن تمثل له الكلامُ من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريبَ تشريف، شبّهه بمن قرّبه الملِكُ لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً، حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النَّجْوة وهو الارتفاع، لِما روي أنه رُفِع فوق السموات حتى سمع صريرَ القلم.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا، أو بعضِ رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضَدةَ أخيه ومؤازرته إجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[3] فإنه كان أسنَّ من موسى، وهو مفعول أو بدلٌ على تقدير أن تكون مِنْ للتبعيض ﴿هَارُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

(٥٤) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذَكَره بذلك لأنه المشهورُ به والموصوفُ بأشياءَ في هذا الباب لم تُعهد من غيره، وناهيك أنه وَعَدَ الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[4] فوفّى[5] ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيمَ كانوا على شريعته.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يُقْبِلَ الرجلُ على نفسه ومَنْ هو أقربُ الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[6]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ

---

(١) الشعراء: «٨٤».
(٢) أي بفتح اللام «مُخْلَصاً».
(٣) طه: «٢٩».
(٤) الصافات: «١٠٢».
(٥) فَصَل ذِكْرَه عن ذِكْر أبيه وأخيه فأورده منفرداً لإبراز كمال الاعتناء بأمره (س٥/ ٢٧٠).
(٦) الشعراء: «٢١٤».

بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[١] . ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[٢] . وقيل أَهْلُه أمتُه، فإن الأنبياء آباءُ الأمم. ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامة أقواله وأفعالِه.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ وهو سِبْطُ شيثٍ وجدّ أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أَخنوخُ، واشتقاقُ إدريسَ من الدرس يرده منعُ صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دَرْسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أولُ من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ .

(٥٧) ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا﴾ يعني شرفَ النبوة والزلفىٰ عند الله، وقيل الجنةُ، وقيل السماءُ السادسة أو الرابعة.

(٥٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام. ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ بأنواع النعم الدينيةِ والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول. ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون مِنْ فيه للتبعيض لأن المنعَم عليهم أعمُّ من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ أي ومن ذرية مَنْ حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريسَ فإن إبراهيم كان من ذرية سامِ بنِ نوح. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم أي ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا﴾ ومِن جملة مَنْ هديناهم إلى الحق. ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ خبر لأولئك إن جعلتَ الموصولَ صفتَه، واستئنافٌ إن جعلته خبرَه لبيان خشيتهم من الله وإخباتِهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمالِ النفس والزلفىٰ من الله تعالى. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «اُتلوا القرآن وابكُوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[٣] . والبُكِيُّ جمع باكٍ كالسجود في جمع ساجد. وقرىء يُتلىٰ بالياء لأن التأنيث غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي بِكِيّاً بكسر الباء.

(٥٩) ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ فَعقبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوْء، يقال خَلَفٌ صدقٌ ـ بالفتح ـ

---

(١) طه: «١٣٢».

(٢) التحريم: «٦».

(٣) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٢٤ رقم ١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣١) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٤٩ ـ ٥٠ رقم ٦٨٩/١) من حديث سعد بن أبي وقاص.
قال البوصيري في (مصباح الزجاجة) (١/ ٢٤٠ رقم ٤٧٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع ضعيف متروك...» هـ.
فالحديث ضعيف، وكذلك ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة.

وخلْفٌ سوءٌ ـ بالسكون ـ. ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مَنْ بنىٰ الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ شراً كقوله:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوِ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الغَيِّ لاَئِماً

أو جزاءَ غيٍّ كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[1] أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو وادٍ في جهنم يستعيذ منه أوديتُها[2].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يدل على أن الآي في الكفرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرٍو وأبو بكر ويعقوبُ على البناء للمفعول من أَدْخِلَ. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا يُنقَصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن ينتصب شيئاً على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابقَ لا يضرهم ولا يُنقص أجورَهم.

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الجنةَ بدلَ البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف. وعَدْن[3] عَلَمٌ لأنه المضاف إليه في العَلَم، أو عَلَمٌ للعَدْن بمعنى

---

(١) الفرقان: «٦٨».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٤) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٠ و٤٧١) وهنّاد في «الزهد» رقم (٢٧٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم (٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج٦/ ١٠٠) والطبراني في الكبير (٩/ ٢٥٩ رقم ٩١٠٦ ـ ٩١١٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٦) كلهم عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه. وليس عند أيهم قوله «تستعيذ منه أوديتها». وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. ومع ذلك قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

● وله شاهد من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «غي وأثام نهران في أسفل جهنم يسبل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكر الله في كتابه «فسوف يلقون غياً» «ومن يَفعل ذلك يلقَ أثاماً».

ـ أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (رقم: ٣٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٠٠) والدولابي في «الكنى» (١/ ١٣) والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٠٦ رقم ٧٧٣١) والبيهقي في «البعث» رقم (٤٧٤).

ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٩) وقال: «رواه الطبراني وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون» هـ.

والخلاصة أن حديث أبي أمامة ضعيف.

● ولأثر ابن مسعود شاهد من قول عائشة أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ٢٦٢) والبراء بن عازب عند البيهقي في «البعث» وشفي بن ماتع عند المروزي في الصلاة (رقم: ٣٨).

والخلاصة أن تفسير الغي بواد في جهنم ثابت مرفوعاً وموقوفاً، نظراً إلى الشواهد.

(٣) ظاهر السياق أن عدن ـ على تلك القراءة ممنوعة من الصرف لنقلها من المصدر إلى العلمية، كسحَر لو قصد بها =

الإقامة كَبَرَةَ، ولذلك صح وصْفُ ما أضيف إليه بقوله: ﴿أَلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل هو مِنْ أتىٰ إليه إحساناً أي مفعولاً مُنْجَزاً.

لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

(٦٢) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلام. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يَسْلَمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليمَ الملائكة عليهم، أو تسليمَ بعضهم على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

أو على أن معناه الدعاءُ بالسلامة وأهلُها أغنياءُ عنه، فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدتُه الإكرامُ. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغابة، وقيل المراد دوامُ الرزق ودُرورُه.

(٦٣) ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ نُبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مالُ مورّثه، والوراثةُ أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تُعْقَبُ بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل بردّ ولا إسقاط. وقيل يُورّثُ المتقون من الجنة المساكنَ التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادةً في كرامتهم. وعن يعقوب نُوَرِّثُ بالتشديد.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قول جبريلَ عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدرِ ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون وَدّعه ربُّه وقَلاه، ثم نزل ببيان ذلك[2]. والتنزُّل النزولُ على مَهْل لأنه مُطاوع نزّل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما ننزل وقتاً غِبَّ وقتٍ إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته. وقرىء وما يَتَنَزَّلُ بالياء، والضميرُ للوحي. ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايينِ لا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

= سحرٌ بعينه معروف مُنِع، ومنه القراءة «إلاّ آل لوط نجيناهم بسحَر». هذا ما بدا لي، والله به أعلم.

(١) البيت من الطويل.

وهو توجيه لطيف جداً للآية المجيدة، وهذا من قبيل ما يعرف ـ في البلاغة ـ بالمدح بما يشبه الذم، كبيت النابغة الشهير، فإن فلول السيوف ليس عيباً لأنه دليل الشجاعة وخوض المعارك.

ـ والمعنى نفسه في قوله ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش... وقريش مشهورة بفصاحتها ورقة لغتها.

(٢) سبق تخريجه عند الآية «٢٤» من سورة الكهف و«٨٥» من سورة الإسراء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

نَسِيًّا﴾ تاركاً لك، أي ما كان عدمُ النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكَفَرةُ وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقيل أولُ الآية حكايةُ قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما نَنْزِلُ الجنة إلا بأمر الله ولطفه، وهو مالكُ الأمور كلِّها السالفةِ والمترقَّبةِ والحاضرة فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله. وقولُه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير من الله لقولهم، أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها. وقولُه:

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه، وهو خبر محذوف أو بدلٌ من ربك ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب عليه، أي لمّا عرفت ربك لأنه لا ينبغي له أن ينساك، أو أعمال العمال فأقْبِل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهُزء الكفر. وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورِد عليه من الشدائد والمشاق، كقولك للمحارب: اصطبر لقَرْنك. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مَثَلاً يستحق أن يُسمىٰ إلهاً، أو أحداً سُمِّي الله فإن المشركين وإن سمَّوا الصنمَ إلهاً لم يسمُّوه اللهَ قطُّ، وذلك لظهور أَحَديَّته تعالى، وتعالى ذاتِه عن المماثلة بحيث لم يقبل اللَّبْس والمكابرة، وهو تقرير للأمر أي إذا صح أنْ لا أحدَ مِثْلُه ولا يستحق العبادة غيرُه لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغالِ بعبادته والاصطبار على مشاقها.

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المرادُ به الجنسُ بأسره فإن المقولَ مقولٌ فيما بينهم وإن لم يقله كلُّهم، كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتلُ واحد منهم. أو بعضُهم المعهود وهم الكفرة أو أبيُّ بنُ خلف[1] فإنه أخذ عظاماً بالية ففتّها وقال: يزعمُ محمد أننا نُبعث بعدما نموت. ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض أو من حال الموت. وتقديمُ الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لأن المنكَر كونُ ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دل عليه أُخْرَج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، وهي ههنا مُخْلَصةٌ للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلَصت الهمزةُ واللام في يا ألله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وروي عن ابن ذَكْوانَ إذا ما مِتُّ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على يقول. وتوسيطُ همزة الإنكار بينه وبين العاطف ـ مع أن الأصل أن يتقدمهما ـ للدلالة على أن المنكَر بالذات هو المعطوف، وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه، فإنه لو تذكر وتأمل ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كان عَدَماً صِرفاً لم يقل ذلك، فإنّه أعجبُ من جمع

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٠١) عن الكلبي.
وانظر «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١٣١).

المواد بعد التفريق وإيجادِ مِثْلِ ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وعاصم وقالونُ عن يعقوب يَذْكُرُ من الذِّكْر الذي يراد به التفكر، وقرىء يَتذكَّر على الأصل.

(٦٨) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ عطف أو مفعول معه، لما روي أن الكفرةَ يُحشرون مع قُرَنائهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلٌّ مع شيطانه في سِلْسلة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرةُ مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ ليَرىٰ السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادّخروا لِمَعادهم عِدّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿ جِثِيًّا ﴾ على ركبهم لما يدهَمهم من هول المَطْلع، أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهلُ الموقف جاثون لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[1] على المعتاد في مواقف التقاول. وإن كان المرادُ بالإنسان الكفرةَ فلعلهم يُساقون جُثاةً من الموقف إلى شاطىء جهنمَ إهانةً بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص جِثِياً بكسر الجيم.

(٦٩) ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ مَن كان أعصى وأعتى منهم فنطرحُهم فيها، وفي ذكر الأشدِّ تنبيهٌ على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميّز طوائفَهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يُدخِل كلاً طبقتَها التي تليق به. وأيُّهم مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يُبنىٰ كسائر الموصولات، لكنه أُعْرِب حملاً على كلّ وبعض للزوم الإضافة، وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوبَ المحل بننزعنّ، ولذلك قرىء منصوباً. ومرفوعٌ عند غيره إما بالابتداء على أنه استفهامي وخبرُه أشدّ والجملةُ محكية وتقديرُ الكلام: لننزعن من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد؛ أو معلَّقٌ عنها لننزعن لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعلم؛ أو مستأنَفةٌ والفعل واقعٌ على «مِنْ كل شيعة» على زيادة مِنْ؛ أو على معنى لننزعن بعضَ كل شيعة، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيّع، وعلىٰ للبيان أو متعلق بأَفْعَل، وكذا الباء في قوله:

(٧٠) ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ أي لنحن أعلمُ بالذين هم أولى بالصَّلْي، أو صِليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون، ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساءُ الشيَع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالِهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ صِلِيّاً بكسر الصاد.

(٧١) ﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ وما منكم، الْتفات إلى الإنسان، ويؤيده أنه قرىء وإنْ منهم. ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ إلا واصلُها وحاضرٌ دونها يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ قال بعضهم لبعض: أليس قد وَعَدَنا ربُّنا أن نَرِد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة»[2] وأما قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا

---

(١) الجاثية: «٢٨».

(٢) لم يثبت رفعه ولكنه مروي من قول خالد بن معدان وهو تابعي كبير، وقد رواه عنه عبدالله بن المبارك في الزهد

مُبْعَدُونَ﴾[1] فالمراد عن عذابها. وقيل ورودُها الجوازُ على الصراط فإنه ممدود عليها. ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به، بأن وعَدَ به وعداً لا يمكن خُلْفه. وقيل أقسم عليه.

ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فيساقون إلى الجنة. وقرأ الكسائي ويعقوب نُنْجي بالتخفيف، وقرىء ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجُثُوُّ حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفَجَرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرةُ فيها منهاراً بهم على هيئاتهم.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ مرتّلاتِ الألفاظ مبيناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ وواضحاتِ الإعجاز. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأجلهم أو معهم. ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين. ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ موضعَ قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزِل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً. والمعنى أنهم لما سمعوا الآياتِ الواضحات وعجَزوا عن معارضتها والدخل عليها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلالِ بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمِهم بظاهر من الحياة الدنيا، فردّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ وكم مفعول أهلكنا، ومِنْ قرن بيانُه، وإنما سُمي أهلُ كل عصر قرناً ـ أي مقدّماً ـ مِنْ قَرْنِ الدابة وهو مقدمُها لأنه يتقدم مَنْ بعده، وهم أحسنُ صفةٌ لِكَمْ، وأثاثاً تمييز عن النسبة. وهو متاع البيت، وقيل هو لما جَدّ منه والخَرْثيُّ ما رَثَّ والرئيُّ المَنْظَر فِعْلٌ مِنَ الرؤية لما يُرىٰ كالطَّحن والخَبْز. وقرأ نافع وابن عامر رِيّاً على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الرِّيّ الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر ريئاً على القلب، وقرىء رِيَاً بحذف الهمزة، وزِيّاً من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة. ثم بيّن أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام، وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

(٧٥) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فيَمُدّه ويُمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أَخْرَجَه

= (ص١٢٢ رقم ٤٠٧) وأبو عبيدالقاسم بن سلام في الغريب (٤/ ٣٤٧ مادة أهل) وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٥٦١) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٢) في ترجمة خالد بن معدان.
وهذا الأثر صحيح السند (تخريج الكافي الشافِ ص٨١٨) ص٥٩٨ (١).

(١) الأنبياء: ﴿١٠١﴾.

على لفظ الأمر إيذاناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره[١] كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[٢] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المدّ. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا، أيْ قالوا أيُّ الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود، فإنه إما العذابُ في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبُهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدّروه وعاد ما مُتِّعوا به خُذْلاناً ووبالاً عليهم، وهو جواب الشرط، والجملة محكية بعد حتى. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئةً وأنصاراً، قابل به أحسن نديّاً من حيث إن حُسْن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانِهم وظهورِ شوكتهم واستظهارِهم.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ عطفٌ على الشرطية المحكية بعد القول، كأنه لما بيّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعَوّضه منه. وقيل عطفٌ على فليمدد، لأنه في معنى الخبر كأنه قيل مَنْ كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابِلَ له هداية. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقىٰ عائدتُها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدةً مما مُتِّع به الكفرة من النعم المخدَجَة[٤] الفانية التي يفتخرون بها، سيَّما ومآلُها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرةُ والعذابُ الدائم كما أشار إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ والخير ههنا إما لمجرد الزيادة، أو على طريقة قولهم الصيفُ أحرّ من الشتاء أي أبلغُ في حرّه منه في بَرده[٥].

(٧٧) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل، كان لخبّاب عليه مالٌ فتقاضاه فقال له: لا حتى تكفر بمحمد، فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثَمَّ مال وولد فأعطيك[٦]. ولما كانت الرؤيةُ أقوى سَنَدِ الإخبار

---

(١) وصفهم بالتمكّن «كان في...» لذمهم والإشعار بعلة الحكم (س٥/ ٢٧٧).
(٢) آل عمران: «١٧٨».
(٣) فاطر: «٣٧».
(٤) المخدَجة أي الناقصة.
(٥) وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها (س٥/ ٢٧٨).
(٦) أخرجه البخاري (٤/ ٣١٧ رقم ٢٠٩١) و(٤/ ٤٥٢ رقم ٢٢٧٥).

استُعمل أرأيتَ بمعنى الإخبار، والفاءُ أصلُها في التعقيب والمعنى: أَخْبِرْ بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك. وقرأ حمزة والكسائي وُلْدَاً وهو جمع وَلَد كأسد في أُسْد، أو لغةٌ فيه كالعَرَب والعُرْب.

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أَقَدْ بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عِلْم الغيب الذي توحَّدُ به الواحد القهار، حتى ادعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألّىٰ عليه. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدَا﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يُتَوصّلُ إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين. وقيل العهْد كلمة الشهادة والعمل الصالح، فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه[١].

(٧٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وتنبيه على أنه مخطىء فيما تصوره لنفسه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنُظهر له أنا كتبنا قوله، على طريقة قولِه * إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ * أي تبيّن أني لم تلدني لئيمة. أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢]. ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ ونُطوِّل له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعفُه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلت عظمته، ولذلك أكده بالمصدر دلالةً على فرط غضبه عليه.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة. ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثَمَّ زائداً. وقيل فرداً رافضاً لهذا القول منفرداً عنه.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وُصلة إلى الله وشفعاءَ عنده.

(٨٢) ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[٣]. أو سينكر الكفرةُ لسوء العاقبة أنهم عبدوها، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٤] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يؤيد الأول إذا فُسِّر الضد بضد العزّ أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها. وتوحيدُه لوحدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «وهم يَدٌ على من سواهم»[٥]. وقرىء كَلاً بالتنوين على قلب الألف نوناً في الوقف قَلْبَ

= و(٥/ ٧٧ رقم ٢٤٢٥) و(٨/ ٤٢٩ رقم ٤٧٣٢) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٣) و(٨/ ٤٣٠ رقم ٤٧٣٤) و(٨/ ٤٣١ رقم ٤٧٣٥).

ومسلم (٤/ ٢١٥٣ رقم ٣٥، ٣٦/ ٢٧٩٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٣٤٢) والترمذي (٥/ ٣١٨ رقم ٣١٦٢) عن حديث خباب بن الأرت.

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيثار ما يدعيه (س٥/ ٢٧٩).

(٢) قَ: «١٨».

(٣) البقرة: «١٦٦».

(٤) الأنعام: «٢٣».

(٥) وهو جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧٠ رقم ٤٥٣١) وابن ماجة (٢/ ٨٩٥ رقم ٢٦٨٥) وأحمد (٢/ ١٨٠،

ألف الإطلاق في قوله:

أَقِلِي اللَّوْمَ عَاذِلُ وَالعِتَابَنْ

أو على معنى كلَّ هذا الرأيُ كلاً، وكُلاً على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بأَنْ سلَّطناهُم عليهم أو قيضنا لهم قُرَناء. ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تهزهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمِهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيام آجالهم. ﴿عَدًّا﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ محصورة وأنفاس معدودة.

(٨٥) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نجمعهم. ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَفِد الوُفّاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عِطاشاً فإن مَنْ يَرد الماء لا يرده إلا لعطش، أو كالدواب التي ترد الماء.

(٨٧) ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾ الضميرُ فيها للعباد المدلولُ عليها بذكر القِسْمَين، وهو الناصب لليوم. ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ إلا من تحلىٰ بما يُسْتَعَدُّ به ويَستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾[1] من قولهم: عَهِد الأمير إلى فلان بكذا إذا أَمَرَهُ به. ومحله الرفعُ على البدل من الضمير، أو النصبُ على تقدير مضاف أي إلا شفاعةَ من اتخذ، أو على الاستثناء. وقيل الضمير

= ٢١١، ٢١٥) كلهم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

● وأخرجه أبو داود (٤/٦٦٦ ـ ٦٦٩ رقم ٤٥٣٠) والنسائي (٨/١٩ ـ ٢٠ رقم ٤٧٣٤) وأحمد (١/١٢٢) وأبو يعلى (١/٢٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٩) كلهم من حديث علي رضي الله عنه.

● وحديث علي له طريق آخر أخرجه أحمد (١/١١٩) وابنه في زوائده (١/١٢٢) والنسائي (٨/٢٤ رقم ٤٧٤٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح. وانظر الإرواء (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ رقم ١٠٥٨).

(١) طه: «١٠٩».

للمجرمين، والمعنى: لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ الضميرُ يَحتمل الوجهين، لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن يُنسب إليهم.

(٨٩) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ على الالْتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى. والإدُّ ـ بالفتح والكسر ـ العظيمُ المنكَرُ، والإدّةُ الشدّة، وأَدّني الأمرُ وآدني أثقلني وعظمُ عليَّ.

(٩٠) ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب يَنْفَطِرْن، والأول أبلغ لأن التفعُّل مُطاوِعُ فَعَّلَ والانفعَالُ مطاوِعُ فَعَلَ ولأن أصل التفعّل التكلف. ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ تَهُدّ هداً أو مهدودة أو لأنها تَهِدُّ أي تكْسِر، وهو تقرير لكونه إدّاً، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تُصُوِّرت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتتت من شدتها، أو أن فظاعتها مُجْلِبة لغضب الله بحيث لولا حِلمه لخَرِب العالم وبدد قوائمه غضباً علىٰ مَنْ تفوه بها.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يَحتمل النصب على العلة لِتكادُ أو لهدّاً على حذف اللام وإفضاء الفعل إليه، والجرَّ بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه، والرفعَ على أنه خبرُ محذوف تقديره الموجِبُ لذلك أن دعوْا، أو فاعلَ هدّاً أي هدها دعاء الولد للرحمن، وهو مِنْ دعا بمعنى سمّىٰ المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دَعَىٰ له ولداً، أو مِنْ دعا بمعنى نَسَبَ الذي مطاوِعُه ادّعىٰ إلىٰ فلان إذا انتسب إليه.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً له مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمةٌ ومُنْعَم عليه فلا يجانِسُ مَنْ هو مَبْدَأُ النعم كلها ومُولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذه ولداً؟! ثمّ صرح به في قوله:

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرىء آتِ الرحمنَ على الأصل.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصَهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الأَتْباع والأنصار فلا يجانسُه شيء من ذلك ليتخذه ولداً ولا يناسبه ليشرك به.

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبُّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»[(١)]. والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دَجَا الإسلامُ، أو لأن الموعود في القيامة حين تُعْرَض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل[(٢)].

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن يسَّرْناه معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أشداءَ الخصومة آخذين في كل لَدِيد، أي شقٍّ من المراء لِفَرط لَجَاجِهم فبشر به وأنذر.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويفٌ للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل تَشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقرىء تُسْمَعُ من أسمعتَ. والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء، ومنه ركز الرمحَ إذا غيَّب طرفَه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة مريم أُعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله»[(٣)].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٣ رقم ٣٢٠٩) و(١٣/ ٤٦١ رقم ٧٤٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧/١٥٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها (س٥/ ٢٨٣).

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشاف» (رقم: ٣٦٠) ـ وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٣٩، ٢٤٠) وتقدم الكلام عليه في آخر آل عمران.

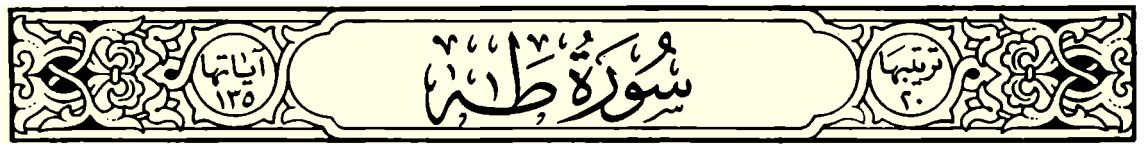

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

سورة طه مكية[1]، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طه﴾ فَخَّمها قالون[2] وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخّم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه، وأمالهما الباقون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجلُ على لغة عكٍّ[3]، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، والاستشهادُ بقوله:

---

(١) مكية كلها في قول الجميع.
فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت طه بمكة، وأخرجه أيضاً ابن مردويه عن ابن الزبير.
[انظر «الدر المنثور» (٥/ ٥٤٨) و«زاد المسير» (٥/ ٢٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ١٦٣)].

(٢) هو عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد، و(قالون) لقب له. لقَّبه به (نافع) لجودة قراءته، كان قارىء المدينة المنورة. قال أبو محمد البغدادي: كان (قالون) أصم شديد الصمم، لا يسمع البوق، فإذا قرىء عليه القرآن سمعه. توفي بالمدينة المنورة سنة عشرين ومائتين في عهد الخليفة المأمون.

(٣) قال ابن جرير (٩/ج١٦/ ١٣٦ ـ ١٣٧): «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال: معناه يا رجل. لأنها كلمة معرفة في عكٍّ فيما بلغني وأن معناها فيهم: يا رجل، أنشدت لمتمم بن نويرة:

هتفت بطَةَ في القتالِ فلم يُجِبْ فخِفْتُ عليه أن يكونَ موائِلا

إنَّ السفـاهَـةَ طَـاهَـا فـي خَـلائِقِكُـمْ لاَ قَـدَّسَ الله أَخْـلاقَ المَـلاَعِيـن

ضعيفٌ لجواز أن يكون قَسَماً كقوله حم لا ينصرون. وقرىء طَهْ على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه[1]، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، وأن أصله طَأْ فقلبت همزته هاء أوقت في يطأ ألِفاً كقوله * لا هُناك المرتع * ثم بنىٰ عليه الأمرَ وضم إليه هاء السكت، وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طَأْها، والألفُ مبدلةٌ من الهمزة، والهاء كناية الأرض. لكن يَرُدُّ ذلك كتابتُهما على صورة الحرف، وكذا التفسير بِيَا رجلُ، أو اكتفىٰ بشطري الكلمتين وعَبّر عنهما باسمهما.

(٢) ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ خبر طه إن جعلته مبتدأ على أنه مؤوّل بالسورة أو القرآنِ، والقرآنُ فيه واقع موقع العائد وجوابِه إن جعلتَه مُقْسَماً به ومنادى له إن جعلتَه نداءً، واستئنافٌ إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرْط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقىٰ من رائضِ المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أُنزِل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أُنزل عليك لتشقى به[2].

(٣) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ لكن تذكيراً، وانتصابُها على الاستثناء المنقطع. ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل لتشقى لاختلاف الجنسين، ولا مفعولاً له لأنزلنا فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإنذار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

(٤) ﴿تَنزِيلًا﴾ نصْبٌ بإضمار فعله أو ببخشى، أو على المدح، أو البدل من تذكرة إن جعل حالاً. وإن جُعِل مفعولاً له لفظاً أو معنًى فلا، لأن الشيء لا يُعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ مع ما بعده إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3] تفخيم لشأن المنزَّل بفرط تعظيم المنزِّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهرُ عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام

---

(١) ورد ذلك عن علي وابن عباس، وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب (فتح القدير ٣/ ٣٦٠) والبزار (كشف الأستار ٣/ ٥٨) والقاضي عياض في الشفاء (١/ ٤١).
وهو ضعيف بجميع طرقه كما في تخريج الفتح السماوي (ص٨٢٣).
وعليه فالأولى أن يكون «طه» مثل بقية الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٢) ما ورد أن الكفرة قالوا بأن القرآن أُنزل عليك لتشقىٰ به.. أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٢) بسنده عن الضحاك، وكذا أخرجه ابن جرير والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣١٢ ج٩٨٩) وفي سنده موسىٰ بن عبيدة وهو ضعيف (التقريب ٢/ ٢٨٦) وضعفه الهيثمي أيضاً (المجمع ٤/ ١٢٦).

(٣) طه: «٨».

والتقادير وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

(٥) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[١].

(٦) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولمّا كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقّب ذلك بإحاطة علمه تعالى بِجَلِيات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

(٧) ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلمْ أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شَرْعَ الذِّكْر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكْر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بيّن أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

(٨) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ومَنْ في مِمّن خلق الأرض صلةٌ لتنزيلاً أو صفة له. والانتقالُ من التكلم إلى الغيبه للتفنن في الكلام، وتفخيمُ المنزَّل من وجهين: إسنادُ إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبتُه إلى المختص بصفات الجلال والإكرام، والتنبيهِ على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام مَنْ هذا شأنه. ويجوز أن يكون أنزلناه حكايةَ كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرىء الرحمنِ على الجر صفة لمَنْ خلق، فيكونُ «على العرش استوى» خبرُ محذوفٍ، وكذا إن رُفِعَ الرحمن على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً. والثرىٰ الطبقةُ الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها[٢]. والحسنى تأنيث الأحسن، وفَضْلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

(٩) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قفّىٰ تمهيدَ نبوته ﷺ بقصة موسى ليَأتمّ به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظرفٌ للحديث لأنه حَدَثٌ، أو مفعول لاذكُر. قيل إنه استأذن شعيباً[٣] عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فلما وافىٰ وادي طوًى وفيه الطور وُلِد له ابن في

---

(١) وصفه تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى (س٦/ ٥).

(٢) الثرى هو التراب، وذكره ـ مع دخوله تحت ما في الأرض ـ لزيادة التقرير (س٦/ ٥).

(٣) قال سيد قطب في الظلال (٥/ ٢٦٨٧ رقم التعليقة: ١) «سبق أن قلت مرة في الظلال: إنَّ هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون.. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبقَ معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب ـ النبي ـ بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل.
يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره.. ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات» هـ.

ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيتُه إذ رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة «لأَهْلِهُ امْكُثوا» ههنا وفي القصص[1] بضم الهاء في الوصل، والباقون بكسرها. ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصارُ ما يؤنَس به. ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بشُعلة من النار، وقيل جمرة. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعنّ لهم. ولما كان حصولهما مترقَّباً بنىٰ الأمر فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس فإنه كان مُحققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه. ومعنى الاستعلاء في «على النار» أنّ أهلها مشرِفون عليها، أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مررت بزيد إنه لَصُوق بمكان يقرب منه.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء. ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فَتَحَه ابنُ كثير وأبو عمرو أيْ بأَنّي، وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكريرُ الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: مَنْ المتكلم؟ قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضْو وجهة. ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أَمَرَه بذلك لأن الحِفْوَة تواضع وأدب، ولذلك طاف السلف حافين، وقيل لنجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ[2]، وقيل معناه فَرِّغْ قلبك من الأهل والمال. ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة، والمقدّس يحتمل المعنيين. ﴿طُوًى﴾ عطفُ بيانٍ للوادي، ونَوّنه ابنُ عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كَثِنًى مِنَ الطيّ مصدرٌ لنودي أو المقدس، أي نودي نداءين أو قُدِّس مرتين.

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة وأَنَا اخترناك. ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي. واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

(١٤) ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ بدلٌ ممّا يوحىٰ، دالّ على أنه مقصور علىٰ تقرير التوحيد

---

(١) القصص: «٢٩».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٠ ـ مع التحفة) وقال «هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد الأعرج هو ابن علي الأعرج، منكر الحديث».
ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٩) وصححه على شرط البخاري فتعقبه الذهبي بقوله: «بل ليس على شرط البخاري، وإنما غرّه أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي، أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكي الصادق» هـ.

الذي هو منتهى العلم والأمرِ بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتَها، وهو تذكر المعبود وشَغْل القلب واللسانِ بذكره. وقيل لذكري لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأنْ أَذْكُرَكَ بالثناء، أو لذكري خاصة لا تُرائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقاتِ ذكْري وهي مواقيت الصلاة، أو لذكر صلاتي، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول «أقم الصلاة لذكري»»[1].

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة[2]. ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أُريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أَخْبرتُ به، أو أكاد أظهرها مِنْ أخفاه إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح مِنْ خفاه إذا أظهره. ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفيها على المعنى الأخير.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ههنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خُليت بحالها لاختارها ولم يُعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ميلَ نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدَجة فقَصُر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك بالانصداد بصده.

(١٧) ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يُريه فيها من العجائب. ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلةُ تلك. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

(١٨) ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ وقرىء عَصِيّ على لغة هذيل[3]. ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ اعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي. وقرىء أَهِشُّ وكلاهما مِنْ هشّ الخبزُ يَهِش إذا انكسر لهشاشته[4]، وقرىء بالسين من الهَسّ وهو زجر الغنم. أي

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٧٠ رقم ٥٩٧) ومسلم (١/ ٤٧٧ رقم ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٦٨٤).
والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٢٤١) من حديث أنس.
وكذلك أخرجه مسلم (١/ ٤٧١ رقم ٣٠٩/ ٦٨٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (س٦/ ٨).

(٣) نسب العصا إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه الصلاة والسلام (س٦/ ١٠).

(٤) وتعدية الفعل أهش بـ «على» لتضمين معنى الانحاء والإقبال (س٦/ ١٠).

أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات أخر، مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعَرَضَ الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستَظَلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[1] وَصَلَه بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها. وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يَذْكُر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة ـ مثل أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع وتصيران دلواً عند الاستقاء وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فرَكَزَها ـ علم أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[2].

(٢٠) ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حيةً صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جانّاً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجانّ ولذلك قال «كأنها جان».

(٢١) ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها[3]. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فِعْلَة من السير تَجَوَّزَ بها للطريقة والهيئة. وانتصابها على نزع الخافض أو على أنّ أعاد منقول من عادهُ بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقتها، أو على تقدير فِعْلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

(٢٢) ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضُد، يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحيْ العسكر، استعارة من جناحي الطائر سُميا بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كنّى به عن البرص كما كنّىٰ بالسوأة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ معجزة ثانية. وهي حال من ضمير تخرج كبيضاء، أو من ضميرها، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك.

---

(١) الرشاء هو الحبل (مختار الصحاح مادة رشا).

(٢) تكرير النداء لتأكيد التنبيه (س٦/ ١٠).

(٣) وفي عطف النهي «لا تخف» على الأمر «خذها» إشعارٌ بأن عدم النهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط (س٦/ ١١).

لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمر أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها أو فعلنا ذلك لنريك، والكبرى صفة آياتنا أو مفعول نريك، ومن آياتنا حال منها.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين واذعُه إلى العبادة. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ عصىٰ وتكبر.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ لمّا أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويُفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع. وفائدة «لي» إبهامُ المشروح والميسر أولاً، ثم رفْعُه بذكْر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة.

(٢٧) ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾.

(٢٨) ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ فإنما يَحْسُن التبليغ من البليغ، وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاهُ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونتفها، فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه[1]، ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني؟ قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجَزتَ عنه. واختلف في زوال العقدة بكمالها فمَنْ قال به تمسك بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2] ومن لم يقل احتج بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى

---

(١) وهو جزء من حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفاً عليه.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وأبو يعلى في المسند (٥/ ١٠ ـ ٢٩ رقم ٢٦١٨).
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٦ ـ ٦٦) وقال: رجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.
ـ وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦١): «رواه النسائي في السنن الكبرىٰ ـ التفسير رقم ٣٤٦ ـ وأخرجه أبو جعفر ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً» هـ.

(٢) طه: «٣٦».

لِسَانًا﴾[١] وقوله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[٢]. وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام، ولذلك نكّرها وجعل يفقهوا جواب الأمر. ومنْ لساني «يَحتمل أن يكون صفة عقدة، وأن يكون صلة احلل.

(٢٩) ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ يعينني على ما كلفتني به. واشتقاق الوزير إما من الوِزْر لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوَزَر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره، ومنه الموازرة. وقيل أصله أَزِير من الأَزْر بمعنى القوة، فَعيل بمعنى مُفَاعِل كالعشير والجليس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولا اجْعَل: وزيراً وهارون، قُدِّم ثانيهما للعناية به، و«لي» صلة أو حال، أولي وزيراً وهارون عطفُ بيانٍ للوزير، أو وزيراً من أهلي ولي تبيين كقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٣]، وأخي على الوجوه بدلٌ من هارون أو مبتدأٌ خبرُه:

(٣١) ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ على لفظ الأمر، وقرأهما ابنُ عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر[٤].

(٣٣) ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهيّج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا، وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

(٣٦) ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي مسؤلك، فِعْل بمعنى مفعول كالخُبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر[٥].

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بإلْهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو مَلَك ـ لا على وجه النبوة ـ كما أوحي إلى مريم. ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحىٰ ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به.

(٣٩) ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ بأن اقذفيه، أو أي اقذفيه لأن الوحي بمعنى القول. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٦]، وكذلك الرمي كقوله: * غُلَامٌ

---

(١) القصص: «٣٤».
(٢) الزخرف: «٥٢».
(٣) الإخلاص: «٤».
(٤) قراءة ابن عامر «أُشْرِكْهُ» بضم الألف وسكون الكاف، وبفتح الألف وقطعها من اشدد أي «أَشْدِدْ».
(٥) وتصديره بالقَسَم لكمال الاعتناء به.
(٦) الحشر: «٢».

رَمَاهُ الله بِالحُسْنِ يَافِعاً * ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاءُ البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به وجَعْلُ البحر كأنه ذو تمييز مطيع أَمَرَهُ بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر. والأوْلى أن تُجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل، وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعَرَض. ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ جوابُ فليلْقِه. وتكرير عدو للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقّع. قيل إنها جَعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ثم قبرته وألقته في اليم، وكان يَشْرَعُ منه إلى بستان فرعون نهرٌ فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم، فأمر به فأُخرج فَفُتِح فإذا هو صبي أَصْبَحُ الناسِ وجهاً، فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، فلذلك أحبك فرعون. ويجوز أن يتعلق «منّي» بألقيتُ، أي أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب. وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأن الماء يسحلُه فالْتقط منه، لكن لا يبعد أن يُوَوّل الساحل بجنب فوهة نهره. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ لتُربىٰ ويُحْسَنَ إليك، وأنا راعيك وراقبك. والعطفُ على علة مضمرة مثل ليُتعطّفَ عليك، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلّل مثل فعلتُ ذلك. وقرىء ولِتُصْنعَ بكسر اللام وسكونها والجَزْمُ على أنه أَمْر، ولتَصْنَعَ بالنصب وفتح التاء أي وليكن عملك على عين مني لئلا تخالِفَ به عن أمري.

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لألقيتُ أو لتصنع، أو بدل من إذ أوحينا على أن المراد بها وقت متسع. ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك لأنه كان لا يَقبل ثدي المراضع، فجاءت أخته مريمُ متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت «هل أدلكم»، فجاءت بأمه فقَبِل ثديها. ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1] ﴿كَىْ نَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقك، أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي. ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فِتَن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحُجُوز وبُدُور في حُجْزة وبِدْرة، فخلّصناك مرة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلاّف والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد وأَجْرِ نفسه إلى غير ذلك أَوْلَهُ ولما سبق ذِكْره. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفىٰ الأجلين. ومدين على ثمان مراحل من مصر. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قَدَّرْتُه لأَنْ أُكلمك وأَستنبئك غيرَ مستقدِم وقتُه المعين ولا مستأخِر، أو على مقدار من السنّ يوحىٰ فيه إلى الأنبياء. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ كرره عقيب ما هو غايةُ الحكاية للتنبيه على ذلك.

---

(١) القصص: «٧».

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ واصطفيتك لمحبتي. مَثَّله فيما خوّله من الكرامة بمَنْ قربه الملك واستخلصه لنفسه[١].

(٤٢) ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصّرا. وقرىء تِنِيَا بكسر التاء. ﴿فِى ذِكْرِى﴾ لا تنسياني حيثما تقلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليّ.

(٤٣) ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده، وهنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى، وقيل سمع بمَقْبِله فاستقبله.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ مثل ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[٢] فإنه دعوة في صورة عَرْض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كَنّياه، وكان له ثلاث كنًى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة[٣]. وقيل عِدَاه شباباً لا يهرم بعده ومُلكاً لا يزول إلا بالموت. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ متعلق باذهبا أو قولا أي: باشِرا الأمر على رجائكما وطمعِكُما أنه يثمر، ولا يخيب سعيكما فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزامُ الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقلّ من أن يتوهمه فيخشى.

(٤٥) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أن يَعْجَل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، مِنْ فَرَط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فَرِط يسبق الخيل. وقرىء يَفْرَط من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على المعاجلة بالعقاب، ويُفْرِطَ من الإفراط في الأذية. ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب[٤].

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول

---

(١) والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى «وفتنّاك» ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق بالمقام، فإنه أدخل في تحقيق معنىٰ الاصطناع (س٦/ ١٧).

(٢) النازعات: «١٨، ١٩».

(٣) لم أقف على ضبط هذه الكنية، غير أن المتبادر أن تكون بضم الميم وهي كنية إبليس ـ لعنه الله ـ وقد تكون بالكسر، بمعنى العقل أو الشدة والقوة والله سبحانه أعلم. وذو مرة بكسرها جبريل عليه السلام.

(٤) وإظهار كلمة «أن» مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الإعتناء بالأمر، والإشعار بتحقق الخوف من كلٍّ منهما (س٦/ ١٨).

وفعل، فأُحْدِث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما. ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تمّ الحفظُ.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام. وتعقيبُ الإتيان بذلك[1] دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهمّ من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدريج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وَحّد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها، وكذلك قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾[2]، ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾[3]، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾[4]. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسل، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أي بعد ما أتياه وقالا له ما أُمرا به، ولعله حُذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة. وإنما خاطب الاثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدلُّ عليه قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[5].

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُۥ﴾ صورَتَه وشَكْله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرىء خَلَقَهُ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً. وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودِلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم

---

(١) أي بالأمر بإرسال بني إسرائيل معهم.
(٢) الأعراف: «١٠٥».
(٣) الشعراء: «١٥٤».
(٤) الشعراء: «٣٠».
(٥) الزخرف: «٥٢».

على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عداه مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بُهت الذي كفر وأُفحم عن الدخل عليه فلم يرَ إلاَّ صَرْفَ الكلام عنه.

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

(٥١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

(٥٢) ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو، وإنما أنا عبد مِثْلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ. ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفَظَه العالِمُ وقيّده بالكَتْبَة، ويؤيده: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ والضلال أن تخطىء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات. ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها، وتخصيصُه أبعاضَها بالصور والخواص المختلفة بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها والقرونِ الخاليةِ مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمُه بهم وبأجزائهم وأحوالهم، فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى[١].

(٥٣) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفةٌ لربي، أو خبرٌ لمحذوف، أو منصوبٌ على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي الزخرف[٢] مَهْداً أي كالمهد تتمدونها وهو مصدر سمي به، والباقون مِهَاداً وهو اسمُ ما يُمَهّد كالفراش أو جمعُ مَهْدٍ، ولم يختلفوا في الذي في النبأ[٣]. ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[٤] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾[٥] الآية. ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ أو صفة لأزواجاً، وكذلك: ﴿شَتَّىٰ﴾ ويحتمل أن يكون صفة لنبات، فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جَمْعُ شتيت كمريض ومرضى، أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم، فلذلك قال:

---

(١) وإظهار «ربي» في موقع الإضمار للتلذذ بذكره، ولزيادة التقرير، والإشعار بعلة الحكم فإن الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان (س٦/ ٢١).

(٢) الزخرف: «١٠».

(٣) حيث قرؤوا جميعاً «مهاداً» في قوله: «ألم نجعل الأرض مِهَاداً» ـ النبأ «٦» ـ.

(٤) فاطر: «٢٧».

(٥) النمل: «٦٠».

كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

(٥٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ وهو حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي أخرجنا أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا، والمعنى مُعِدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح، جمع نَهْيَة[1].

(٥٥) ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء[2]. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

(٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾ بصرناه إياها أو عرفناه صحتها[3]. ﴿كُلَّهَا﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى من فرط عناده. ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمان والطاعة لعتوه..

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أرض مصر. ﴿بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونَه محقاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج مِلكاً مثله من أرضه.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ مثلَ سحرك. ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ وعداً لقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان[4]. وانتصابُ ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف، أو بأنه بدل من موعداً على تقدير مكان مضاف إليه، وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله:

(٥٩) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمارٍ مثل مكانُ موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة. وقرىء يومَ بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر. ومعنى سوى منتصِفاً يستوي مسافته إلينا وإليك، وهو في النعت كقولهم: قومُ عَدِيٍّ في الشذوذ. وقرأ ابن عامر

---

(١) وتخصيص أولي النهىٰ لأنهم المنتفعون بها (س٦/ ٢٢).

(٢) وإيثار كلمة «في» على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (س٦/ ٢٢).

(٣) وتصديرها بالقَسَم للعناية، وإسناد الإرادة إلى نون العظمة لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة (س٦/ ٢٢).

(٤) قدم فرعون ضميره على ضمير موسىٰ ووسط كلمة النفي «لا» بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف (س٦/ ٢٤).

وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم[١]. وقيل في يوم الزينة يوم عاشوراء[٢]، أو يوم النيروز[٣]، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأقطار. ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على اليوم أو الزينة. وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون، والياء على أن فيه ضمير اليوم أو ضمير فرعون على أن الخطاب لقومه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ما يُكَادُ به، يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الموعد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياته سِحراً. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملكُ عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه، فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بأن موسى إنْ غَلَبَنا اتبعناه، أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارِضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه. وقولُه:

(٦٣) ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ تفسير لأسروا النجوى، كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يَغْلِبا فيتبعُهما الناس. وهذان اسم إنْ على لغة بلحرث بن كعب فإنهم جعلوا الألف للتثنية وأعربوا المثنى تقديراً، وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها، وقيل إنَّ بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ، وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكَّد باللام لا يليق به الحذف. وقرأ أبو عمرو إنّ هذين وهو ظاهر، وابن كثير وحفص إنْ هذان على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافيةُ واللامُ بمعنى إلاّ. ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[٤]. وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٥]. وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

---

(١) أي بضم السين في «سوى» بينما قرأ الباقون بكسر السين.

(٢) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ١٧٧) و«الدر المنثور» (٥/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).

(٣) أول يوم من السنة.

(٤) غافر: «٢٦».

(٥) الشعراء: «١٧».

فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ فأزمعوه واجعلوه مُجْمَعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو فَاجْمَعُوا ويعضده قوله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾[1] والضمير في قالوا إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ مصطفين لأنه أهْيَب في صدور الرائين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ فاز بالمطلوب مِنْ غَلَبَ وهو اعتراض.

(٦٥) ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب. وأن بما يعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأَمْرُ إلقاؤك أو إلقاؤنا.

(٦٦) ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ مقابلةُ أدب بأدب وعدمُ مبالاة بسحرهم، وإسعافاً إلى ما أَوْهَموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يُبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغُه. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي فألقوْا فإذا حبالهم وعصيهم، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلَّقاً ينصبها وجملةً تضاف إليها، لكنها خُصت بأن يكون المتعلَّق فِعْلَ المفاجأة والجملةُ ابتدائيةً، والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ورَوْحٌ تُخَيَّلُ بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصيِّ وإبدالِ أنها تسعى منه بدل الاشتمال، وقرىء يُخَيِّلُ بالياء على إسناده إلى الله تعالى، وتَخَيَّلُ بمعنى تتخيل.

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجِبِلة البشرية، أو مِنْ أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

(٦٨) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ما توهمتَ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكَّداً بالاستئناف، وحرفُ التحقيق وتكريرُ الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

(٦٩) ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ أَبْهَمَهُ ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعِظَمِها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألْقِه. ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ تبتلعْه بقدرة الله تعالى، وأصله تتلقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتمل التأنيثَ والخطابَ على إسناد الفعل إلى المسبَّب. وقرأ ابن عامر برواية

---

(١) طه: ٦٠.

ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف، وحفصٌ بالجزم والتخفيفِ على أنه مِنْ لَقَفْتُه بمعنى تلقّفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وقرىء بالنصب، على أن ما كافّة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي سحر بمعنى ذي سحر، أو بتسمية الساحر سِحْراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: عِلْمُ فقه. وإنما وحّد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق، ولذلك قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس. وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول العجاج:

يَـوْمَ تَـرَى النُّفُـوسُ مَـا أَعَـدَّتْ فـي سَعْـيِ دُنْيَـا طَـالَمَـا قَـدْ مَـدَّتْ

كأنه قيل إنما صنعوا كيد سحري. ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ حيث كان وأين أقبل.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أي فألقيَ فتلقفتْ فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سُجّداً لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قدّم هارون لكبر سنه، أو لِرُويّ الآية، أو لأن فرعون ربّىٰ موسى في صغره فلو اقتُصر على موسى أو قُدّم ذِكْرُه لربما تُوُهّم أن المراد فرعونُ وذِكْرُ هارون على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

(٧١) ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي لموسى واللامُ لتضمن الفعل معنى الاتّباع. وقرأ قنبل وحفص آمنتم له على الخبر، والباقون على الاستفهام. ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لَعَظيمُكم في فنكم وأعلمكم به، أو لأستاذكم. ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومِنْ ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضوِ العضوَ، وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال أي لأقطعنها مختلفات. وقرىء لأُقطعنْ ولأُصلبنْ بالتخفيف. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ شَبّه تمكن المصلوب بالجذع بتمكُّن المظروف بالظرف، وهو أول مَنْ صَلَبَ. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ يريد نفسَه وموسى، لقوله ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ واللامُ مع الإيمان في كتاب الله لغير الله، أراد به توضيع موسى والهزء به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم عقاباً.

(٧٢) ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك. ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾ موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لِمَا. ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا، أو قَسَم[1]. ﴿فَاقْضِ مَا

---

(١) إيراده تعالى بعنوان فاطريته لهم للإشعار بعلة الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه وتعالى (س٦/ ٣٠).

﴿أَنتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا والآخرةُ خير وأبقى، فهو كالتعليل لما قبله والتمهيدِ لما بعده. وقرىء تُقْضَىٰ هذه الحياةُ الدنيا، كقولك: صِيم يومُ الجمعة.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

(٧٣) ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ من معارضة المعجزة[1]. روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً، فوجدوه تحرسه العصا، فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بَطَل سحره، فأبىٰ إلا أن يعارضوه. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ جزاءً، أو خير ثواباً وأبقىٰ عقاباً.

(٧٤) ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر[2]. ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأَنْ يموت على كفره وعصيانه. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة مهنأة.

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ المنازل الرفيعة.

(٧٦) ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من الدرجات. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ، والعاملُ فيها معنى الإشارة أو الاستقرارُ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من أدناس الكفار والمعاصي. والآياتُ الثلاث يُحْتَمَل أن تكون من كلام السحرة، وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى[3].

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي من مصر[4]. ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم، من قولهم ضرب له في ماله سهماً. أو فاتّخذْ، مِنْ ضَرَبَ اللبن إذا عمله. ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يابساً، مصدر وُصِف به، يقال يَبِسَ يَبْسَاً ويَبَسَاً كسَقِم سُقْماً وسَقَماً، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة يَبَسٌ للتي جفّ لبنها. وقرىء يَبْسَاً، وهو إما مخفف منه أو وَصْفٌ على فعل كصعب أو جمعُ يابس كصَحْب وُصِفَ به الواحد مبالغة كقوله:

---

(١) تخصيص إكراههم على السحر بالذكر ـ مع اندراجه في خطاياهم ـ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكْرُ الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يُفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه (س٦/ ٣٠).

(٢) وتصديره بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونه (س٦/ ٣٠).

(٣) وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه رداً على ما ادعاه فرعون بقوله «أينا أشد عذاباً وأبقى» (س٦/ ٣١).

(٤) والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباداً له تعالى لإظهار المرحمة، والاعتناء بأمرهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل (س٦/ ٣١).

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غَرْزاً وَمَعِي جِيَاعاً

أو لتعدده معنًى فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمناً من أن يدرككم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف. وقرأ حمزة لا تَخَفْ على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[1] أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق[2].

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

(٧٨) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فأُخبِر فرعون بذلك فقص أثرهم، والمعنى فأتبعهم فرعونُ نفسَه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل فأتبعهم بمعنى فاتّبعهم ويؤيده القراءة به. والباء للتعدية، وقيل الباء مزيدة والمعنى: فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعتَ قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرىء فغَشّاهم ما غشاهم أي غطاهم ما غطاهم، والفاعل هو الله تعالى أو ما غشّاهم أو فرعون لأنه الذي ورّطهم للهلاك.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم، وهو تهكم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3] أو أضلهم في البحر وما نجا.

(٨٠) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فُعِل بآبائهم. ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومَه. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة، وإنما عَدّ المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة[4]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ يعني في التيه.

(٨١) ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته. وقرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدتكم وما رزقتُكم على التاء، وقرىء وَوَعدتُكم وَوَعدناكم والأيمن بالجر على الجوار مثل: جُحرُ ضبٍّ خربٍ. ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسَّرَف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم، مِنْ حَلّ الدينُ إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ فقد تردى وهلك، وقيل وقع في الهاوية. وقرأ الكسائي يَحُلَّ ويَحْلُلْ بالضم، مِنْ حلَّ يَحُلّ إذا نزل.

---

(١) الأحزاب: «١٠».

(٢) وتقديم نفي الخوف المذكور للمسارعة إلىٰ إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدرَكون (س٦/ ٣٢).

(٣) غافر: «٢٩».

(٤) وسراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقه (س٦/ ٣٣).

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾

(٨٢) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

(٨٣) ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤالٌ عن سبب العَجَلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدّم جواب الإنكار لأنه أهم.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي ما تقدمتُهم إلا بخطاً يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرُّفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك[1].

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم، وهم الذين خَلَّفَهُم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاءِ إلى عبادته. وقرىء وَأَضَلُّهُمْ أي أَشَدُّهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مُضِلاً. وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحَسَبوها بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العِدة ثم كان أمر العجل وأن هذا الخطاب كان له عند مَقْدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقَّب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته. والسامري منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل كان علْجاً[2] من كرمان، وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم. ﴿أَسِفًا﴾ حزيناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقته لهم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما هو مَثَلٌ في الغباوة. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعْدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به[3]. وقيل هو مِنْ أخلفتُ وعده إذا وجدتُ الخُلْف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على الترديد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

---

(١) وزيادة «ربّ» لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر (س٦/ ٣٤).

(٢) عِلْجاً أي شديداً (المصباح المنير مادة علج).

(٣) أضاف المصدر إلى المفعول «موعدي» وكذا إضافته لموسىٰ عليه السلام وذلك لتقبيح حالهم (س٦/ ٣٥).

قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بأن ملكنا أمْرَنا، إذ لو خلينا وأمْرَنا ولم يسوِّل لنا السامري لما أخلفناه. وقرأ نافع وعاصم بِمَلْكنا بالفتح، وحمزةُ والكسائي بالضم، وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس، وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به، وقيل هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه. ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تَحِلّ بعدُ، أو لأنهم كانوا مستأمَنين وليس للمستأمَن أن يأخذ مال الحربي. ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي في النار. ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حَسِبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادَكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونَسْجُر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر ورَوْح حَمَلْنا بالفتح والتخفيف.

(٨٨) ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت العجل. ﴿فَقَالُوا﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه. ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أنْ ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أفلا يعلمون. ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرىء يَرْجِعَ بالنصب، وفيه ضعف لأن أنْ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين[1]. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم.

(٩٠) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري، كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ بالعجل. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا غير[2]. ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في الثبات على الدين.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العجل وعبادته. ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين. ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

---

(١) لكنهم حملوا الرؤية على أنها بمعنى الإبصار لا العلم.. وأجاز الفراء وابن الأنباري وقوع أنْ الناصبة بعد أفعال اليقين (روح المعاني ١٦/ ٢٤٩).
وتعليق الإبصار بما ذكر ـ مع كونه أمراً عدمياً ـ للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم (س٦/ ٣٦).

(٢) والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق (س٦/ ٣٧).

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ أي قال له موسى حين رجع. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العجل.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأتي عَقِبي وتلحقني. ولا مزيدة كما في قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[1]. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه.

(٩٤) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم، والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لو قاتلتَ أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ حين قلتَ ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمداراة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

(٩٥) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك؟ أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه؟ وهو مصدر خَطَب الشيءَ إذا طلبه.

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ وقرأ حمزة. والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمتُ بما لم تعلموه وفَطِنت لما لم تفطنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحانيّ محض لا يمس أثَرُه شيئاً إلا أحياه. أو رأيتُ ما لم تروه، وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ من تربة مَوْطِئه. والقبضة المرة من القبض، فأُطلق على المقبوض كضرب الأمير. وقرىء بالصاد، والأولُ للأخذ بجميع الكفّ والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخَضْم والقَضْم. والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام، ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ زينته وحسنته لي.

(٩٧) ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عقوبةً على ما فعلت. ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومَنْ مَسّكَ، فتتحامى الناس ويتحاموك وتكونَ طريداً وحيداً كالوحشي

---

(١) الأعراف: «١٢».

النافر. وقرىء لا مَسَاسِ كفَجَارِ وهو علم للمسة. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة. ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تُخْلِفَ الواعدَ إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعِد، ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خُلْفاً. وقرىء بالنون على حكاية قولِ الله. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ ظللت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً. وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة لنُحْرِقَنَّهُ، أو بالمِبْرَد على أنه مبالغة في حَرَقَ إذا بَرَدَ بالمبرد ويعضده قراءة لَنَحْرُقَنَّه[1]. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ ثم لَنُذْرِيَنّه رماداً أو مبروداً. وقرىء بضم السين. ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ فلا يصادَفُ منه شيء. والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهارُ غباوة المفتتنين به لمن له أدنى نظر.

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحق لعبادتكم. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يُعْلَمَ، لا العجل الذي يَصَاغ ويُحْرَق وإنْ كان حياً في نفسه كان مَثَلاً في الغباوة. وقرىء وَسَّعَ، فيكونُ انتصاب عِلْماً على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

(٩٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار، والتنكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصِيتاً عظيماً بين الناس.

(١٠٠) ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكْر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاةِ. وقيل عن الله. ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وذنوبه، سماها وزراً تشبيهاً في ثِقَلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحمل الذي يَفْدَح الحامل وينقض ظهره. أو إثماً عظيماً.

(١٠١) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر أو في حمله، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي بئس لهم، ففيه ضمير مبهم يفسره حِمْلاً، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وِزْرُهم، واللام في لهم للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[2]. ولو جعلتَ ساء بمعنى أحزن والضميرَ الذي فيه للوزر أشكل أَمْرُ اللام ونَصْبُ حِملاً، ولم يُفِدْ مزيد معنى[3].

---

(١) يقال حَرَق الحديد حَرْقاً إذا برده بالمِبْرد وحكّ بعضَه ببعض ومضارعُه يَحْرُق (مختار الصحاح «حرق»).

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) وإعادة «يوم القيامة» لزيادة التقرير وتهويل الأمر (س٦/ ٤١).

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الآمِر به تعظيماً له أو للنافخ، وقرىء بالياء المفتوحة على أن فيه ضميراً لله أو ضمير إسرافيل وإن لم يَجْرِ ذكْره لأنه المشهور بذلك، وقرىء في الصُّوَر وهو جَمْعُ صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرىء ويُحْشَرُ المجرمون ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون. وصُفِوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضُها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زُرْق العين، ولذلك قالوا: صفة العدو أسودُ الكبد أصهبُ السبال. أزرقُ العين. أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تِزْراق[1].

(١٠٣) ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَخْفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، والخَفْتُ خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِن﴾ ما ﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يَستقصرون مدة لبثهم فيها، لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات. أو في القبر لقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾[2] إلى آخر الآيات.

(١٠٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أَعْدَلُهم رأياً أو عمَلاً. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول مَنْ يكون أشد تقالاً منهم.

(١٠٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها، وقد سَأَل عنها رجلٌ من ثقيف[3]. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارّها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة الجبال عليها كقوله تعالى ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[4]. ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ اعوجاجاً ولا نتوّاً إن تأملتَ فيها بالقياس الهندسي. وثلاثتها أحوال مترتبة، فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذَكَرَ العِوَج ـ بالكسر ـ وهو يُخَصُّ بالمعاني والأمْتَ وهو النتوء اليسير. وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين.

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً

---

(١) أو يحشرون زرق الأبدان، وذلك في غاية التشويه فإنه لا تزرقّ الأبدان إلا من مكابدة الشدائد وجفاف رطوبتها (روح المعاني ١٦/ ٢٦٠).

(٢) غافر: «٤٦».

(٣) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن الذي سأل هم قريش سألوه عليه السلام استهزاء (روح المعاني ١٦/ ٢٦١).

(٤) النحل: «٦١».

من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرافيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيُقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خفضت لمهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتاً خفياً، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له، أو مِنْ أعمّ المفاعيل أي إلا من أذن في أن يُشفع له فإن الشفاعة تنفعه. فمن على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية. وأذِن يحتمل أن يكون من الإذْن ومن الأَذَن[1]. ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمُهم بمعلوماته، وقيل بذاته، وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه.

(١١١) ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العناة وهم الأسارى في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم. ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة، ويؤيده: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعض الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان، أو جزاءَ ظلمٍ وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه. وقرىء فلا يَخَفْ على النهي.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على «كذلك نقصُّ» أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة[2]. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ مكررين آيات الوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم مَلَكَة. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتثبطهم عنها، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن.

---

(١) الأَذَن هو الاستماع.

(٢) قوله «أنزلناه» حيث أضمر ذكر القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان (س٦/ ٤٤).

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامُه كلامَهم كما لا تماثِلُ ذاتُه ذاتَهم. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يرجىٰ وعدُه ويخشى وعيده. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته، أو الثابت في ذاته وصفاته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سَلْ الله زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ولقد أمَرْناه، يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهِد إليه إذا أمره، واللامُ جواب قسم محذوف. وإنما عَطفَ قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾[1] للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان. ﴿فَنَسِىَ﴾ العهد ولم يَعْنَ به حتى غفل عنه، أو ترك ما وُصِّي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر، إذ لو كان ذا عزيمة وتصلّب لم يُزِلّه الشيطان ولم يستطع تغريره، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يُجرِّب الأمور ويذوق شريَّها وأرِيَّها[2]. وعن النبي ﷺ «لو وزنتْ أحلام بني آدم بحِلْم آدم لرجح حِلْمُه، وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزماً»[3]. وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده. ونَجِد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حالٌ من عزماً أو متعلق بِنَجِدْ.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ مقدر باذْكُر، أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفةٌ لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار، وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ فلا يكونن سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قَيِّمٌ عليها، ومحافظةً على الفواصل. أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال، ويؤيده قوله:

---

(١) طه: «١١٣».

(٢) قوله شَريَّها وأريَّها أي مُرَّها وحلوها، فإن معنىٰ «الأَرِي» العسل (مختار الصحاح مادة أري).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ج١٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٢). وسعيد بن منصور، وابن المنذر وابن عساكر ـ كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٣) ـ عن أبي أمامة موقوفاً.
قلت: في إسناد ابن جرير: سنيد بن داود. وهو ضعيف.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشِبَعُ والرِّيّ والكسوة والكِنُّ[1] مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها. والعاطفُ وإنْ ناب عن أنّ لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق، فلا يمتنع دخولُه على أنّ امتناع دخول إنّ عليه. وقرأ نافع وأبو بكر وإنَّك لا تظمأ بكسر الهمزة، والباقون بفتحها.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فانتهى إليه وسوستُه. ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الشجرة التي مَنْ أكل منها خَلَد ولم يمت أصلاً، فأضافها إلى الخُلْد أي الخلود لأنها سببُه بزعمه. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يزول ولا يضعف.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضَلَّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن الرُّشْد حيث اغتر بقول العدو. وقرىء فَغَوِيَ من غوى الفصيلُ إذا اتّخَم من اللبن. وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلّته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه وقرّبه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِنْ أجبىٰ إلى كذا فاجتبيتُه مِثْل جَلَيْت على العروس فاجتليتُها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لمّا تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

(١٢٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أو لَهُ ولإبليس. ولما كانا أصلَيْ الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا[2]. ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

---

(١) الكِنُّ هي السُّتْرة.

(٢) قوله «فمن اتبع هُداي» حيث وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه (س٦/ ٤٧).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن الهدىٰ الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، مصدرٌ وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقرىء ضَنْكَىٰ كسكرى. وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه تعالى قد يُضيّق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[1] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[2] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾[3] الآيات. وقيل هو الضريع[4] والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف، وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أعمى البصر أو القلب، ويؤيد الأول:

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف منقلبة من الياء، وفرّق أبو عمرو بأن الأول رأسُ الآية ومحلُّ الوقف فهو جدير بالتغيير.

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلتَ، ثم فسره فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمىٰ والعذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من ضنْك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عَمَاهُ ليَرىٰ محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُسْنَدٌ إلى الله تعالى، أو الرسول، أو ما دل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي إهلاكُنا إياهم أو الجملة بمضمونها. والفعل على الأولين معلّق يجري مجرى أعلم، ويدل عليه القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

---

(١) البقرة: «٦١».

(٢) المائدة: «٦٦».

(٣) الأعراف: «٩٦».

(٤) نبت في الحجار يُقال له الشِبْرِق له شوك كبار، وقال الفيروز آبادي: لا تقربه دابة لخبثه، أعاذنا الله منه.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثل ما نزل بعاد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مَصْدرٌ وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفَرْط لزومه كقولهم: لَزَازُ خصم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة، أي ولولا العِدَةُ بتأخير العذاب وأجلٌ مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ـ وهو يوم القيامة أو يوم بدر ـ لكان العذاب لزاماً. والفَصْلُ للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1]، ويجوز عطفُه على المستكنّ في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

(١٣٠) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وَصَلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نزِّهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميّزك بالهدى معترفاً بأنه المولي للنعم كلها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار، أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ومن ساعاته، جمع إنًا بالكسر والقصر[2]، أو أَناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء. وإنما قدّم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل، فإن القلب فيه أجمع والنفسَ أَمْيَل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز[3]، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[4]. ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب إرادةَ الاختصاص، ومجيئُه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التِّرْسَيْنِ

أو أَمْرٌ بصلاة الظهر، فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبدايةُ النصف الآخر، وجمعُه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلق بسبِّح أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به تُرضي نفسَك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يُرْضِيك ربُّك.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي مَتَّعْنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه مَتَّعْنا، أو به على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل به أو من أزواجاً بتقدير مضاف ودونه، أو بالذمّ وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب .....

---

(١) وللمسارعة إلى بيان جواب لولا (س٦/٤٩).

(٢) تكتب بالقصر «إنًى» وقيل إنْيٌ وإنْوٌ (مختار الصحاح مادة أني).

(٣) أحمز أي أمتن وأشد (مختار الصحاح مادة حَمُزَ).

(٤) المزمل: ٦.

بالفتح[1] وهو لغة كالجَهَرَة في الجَهْرة، أو جمعُ زاهر وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاءِ زِيِّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وما ادّخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أَمَرَهُ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمره بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وداوم عليها. ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرّغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لذوي التقوى. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهلَه ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية[2].

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ بآية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً. فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونَبّههم أيضاً على وجه أَبيَن من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية ـ مع أن الآتيَ بها أُميٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها ـ إعجازٌ بيّن، وفيه إشعار بأنه ـ كما يدل على نبوته ـ برهانٌ لِما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرىء الصُّحُفِ بالتخفيف، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم أو لم تأتهم بالتاء والباقون بالياء.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة، والتذكير لأنها في معنى البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا. ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرىء بالبناء للمفعول فيهما.

---

(١) أي بفتح الهاء في «زَهْرة»، أي «زَهَرَة».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط ـ كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦١٣) ـ وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٦) من حديث عبدالله بن سلام. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٧): رجاله ثقات.
قلت: محمد بن حمزة هو ابن يوسف بن عبدالله بن سلام. ففي الإسناد انقطاع.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول أليه أمرُنا وأمركم. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ وقرىء فتمتعوا. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ المستقيم. وقرىء السَّواء أي الوسط الجيد، والسُّوآى، والسَّوْءِ أي الشر، والسُّوَيّ هو تصغيره. ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة. ومَنْ في الموضعين للاستفهام ومحلُّها الرفعُ بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولةً بخلاف الأولى لعدم العائد فتكونُ معطوفةً على محل الجملة الاستفهامية المعلَّق عنها الفعلُ على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبيُّ ﷺ. وعنه ﷺ «من قرأ طه أُعطي يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع من حديث أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

سورةُ الأنبياء مكية وآيُها مِائةٌ واثنتا عشْرَةَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ **بالإضافة إلى ما مضى، أو ما عند الله لقوله تعالى** ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1] **وقوله** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2] **أو لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ وإنما البعيدُ ما انقرض ومضىٰ. واللامُ صلة لاقترب، أو تأكيدٌ للإضافة، وأصله اقترب حسابُ الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم**[3]**، وخُص الناسُ**

---

(١) المعارج: ﴿٧﴾.

(٢) الحج: ﴿٤٧﴾.

(٣) وتقديم اللام في «للناس» على الفاعل «حسابُهم» للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم. =

بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكر فيه، وهما خبران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكنّ في معرضون.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن سِنَة الغفلة والجَهالة. ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفةٌ لذِكْر، أو صلة ليأتيهم[١]. ﴿مُّحْدَثٍ﴾ تنزيلُه ليُكرَّر على أسماعهم التنبيهُ كي يتعظوا. وقرىء بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفَرْط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو، وكذلك:

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهّي والذهول عن التفكر فيه، ويجوز أن يكون مِنْ واو يلعبون. وقرئت بالرفع على أنها خبر آخرُ للضمير. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها، أو جعلوها بحيث خَفِيَ تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلٌ من واو «وأسروا» للإيماء بأنهم ظالمون فيما أَسَرّوا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع، أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبرُه، وأصلُه وهؤلاء أسرّوا النجوى، فوُضعَ الموصول موضعَه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم، أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بأمره، في موضع النصب بدلاً من النجوى، أو مفعولاً لقول مقدر. كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سِحْرٌ فأنكروا حضوره، وإنما أسرّوا به تشاوراً في استنباط ما يَهْدِم أَمْرَه ويُظْهِر فساده للناس عامة.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أَسروا به، فهو آكَدُ من قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] ولذلك اختير ههنا[٣]، وليطابق قوله ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ في المبالغة. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ قالَ بالإخبارِ عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفىٰ عليه ما يُسرون ولا ما يُضمرون.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضرابٌ لهم عن قولهم هو سِحر إلى أنه تخاليطُ أحلام، ثم إلى أنه كلامٌ افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر، والظاهر أنّ «بل» الأولى لتمام حِكايةِ والابتداءِ بأخرى. أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاوُلهم في أمر القرآن، والثانيةُ والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيلَ خُيِّلت إليه وخُلِّطت عليه إلى كونه مفترياتٍ اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شِعْريّ يُخَيَّلُ إلى السَامع معانيَ لا حقيقةَ لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في دَرْج الفساد لأن كونه شِعْراً أبعدُ من كونه مفترًى لأنه مشحونٌ بالحقائق والحِكَم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو أبعدُ من كونه أحلاماً

= وفي إسناد الاقتراب ـ المنبىء عن التوجه نحوهم ـ إلى الحساب لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٦/ ٥٣).

(١) والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (س٦/ ٥٤).

(٢) الفرقان: «٦».

(٣) أي اختير لفظ القول بقوله «يعلم القول» على لفظ السر في الآية الأخرى لأن القول مشتمل على السرّ والجهر ولإثبات علمه تعالى بالسر والجهر على حد سواء ولا تفاوت بينهما (س٦/ ٥٥).

لأنه مشتمل على مغيّبات كثيرة طابقت الواقعَ، والمفترَىٰ لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نيّفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون، مِثْلُ اليد البيضاء والعصا وإبراءِ الأكْمَه وإحياء الموتى، وصحةُ التشبيه من حيثُ إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ باقتراح الآيات لمّا جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جئتهم بها وهم أعْتىٰ منهم. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم، إذ لو أتىٰ به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كَمَنْ قبلهم.

(٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جوابٌ لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1] فأمَرَهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة. والإحالةُ عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويَثِقون بقولهم، أو لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص نوحي بالنون.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ نفيٌ لما اعتقدوا أنها من خواص المَلَك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً مثلهم، وقيل جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2]. ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ تأكيدٌ وتقرير له، فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء[3]. وتوحيدُ الجسد لإرادة الجنس، أو لأنه مصدر في الأصل، أو على حذف المضاف، أو تأويلِ الضمير بكل واحد، وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجِساد للزعفران، وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتدادِه.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومَنْ في إبقائه حكمة، كمَنْ سيؤمن هو أو أحدٌ من ذريته، ولذلك حُميت العربُ من عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صِيتُكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4]، أو موعظتُكم، أو ما تطلبون به حُسْنَ الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

---

(١) الأنبياء: «٣».

(٢) الفرقان: «٧».

(٣) وفي إيثار لفظ «ما كانوا» على أن يقال وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضىٰ جِبلّتهم (س٦/ ٥٧).

(٤) الزخرف: «٤٤».

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردةٌ عن غضب عظيم، لأن القصم كَسْرٌ يُبين تلاؤمَ الأجزاء بخلاف الفصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها، وُصِفت بها لمّا أقيمت مُقامَه. ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم.

(١٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراكَ المشاهَد المحسوس، والضميرُ للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يَهربون مسرعين راكضين دوابَّهم، أو مُشَبَّهين بهم من فَرْط إسراعهم.

(١٣) ﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاءً لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقائل مَلَكٌ أو مَنْ ثَمَّ من المؤمنين. ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من التنعم والتلذذ، والإترافُ إبطارُ النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غداً عن أعمالكم، أو تعذبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تُقْصَدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

(١٤) ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لمّا رأَوا العذاب ولم يرَوا وجهَ النجاة لذلك لم ينفعهم. وقيل إن أهل حَضورَ من قرى اليمن بُعِث إليهم نبيّ فقتلوه، فسلط الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ فوضع السيف فيهم، فنادى منادٍ من السماء يا لَثَاراتِ الأنبياء، فندموا وقالوا ذلك.

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوىٰ لأن المُوَلْوِلَ كأنه يدعو الويل ويقول: يا ويلُ تعالَ فهذا أوانُك، وكلٌّ من تلك ودعواهم يَحتمل الاسمية والخبرية. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ مثلَ الحصيد وهو النبت المحصود، ولذلك لم يجمع. ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين، مِنْ خَمَدت النارُ. وهو مع حصيداً بمنزلة المفعول الثاني، كقولك: جعلتُه حلواً حامضاً، إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخُمود، أو صفة له، أو حال من ضميره.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وإنما خلقناها مشحونةً بضُروب البدائع تبصرةً للنظَّار وتذكرة لِذوي الاعتبار وتسبباً لما ينتظِم به أمورُ العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعةُ الزوال.

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ما يُتلهىٰ به ويُلعب. ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجرَّدات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقِها وتسوية الفُرُش وتزيينها. وقيل اللهوُ الولدُ بلغة اليمن، وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، ويدلّ على جواب الجواب المتقدم. وقيل إنْ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو وتنزيهٌ لذاته عن اللعب، أي بل من شأننا أن نُغَلِّب الحق ـ الذي من جملته الجِدُّ ـ على الباطل ـ الذي من عِداده اللهو[1] ـ. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيمحَقُه، وإنما استعار لذلك القَذْفَ ـ وهو الرميُ البعيدُ المستلْزِم لصلابة المرمِيّ ـ والدَّمْغَ ـ الذي هو كسرُ الدماغ بحيث يُشَقُّ غشاؤه المؤدي إلى زُهوق الروح ـ تصويراً لإبطاله به ومبالغةً فيه. وقرىء فيَدْمَغَه بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلي لِبَنِي تَمِيمٍ وَأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا

ووَجْهُ ـ مع بُعْدِه ـ الحملُ على المعنىٰ والعَطْفُ على الحق. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هالِك، والزُّهوق ذهاب الرُّوح، وذِكْرُه لترشيح المجاز[2]. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال، وما مصدريةٌ أو موصولة أو موصوفة.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكةَ المنزّلين منه لكرامتهم عليه منزلةَ المقربين عند الملوك. وهو معطوف على مَنْ في السموات؛ وإفرادُهُ للتعظيم أو لأنه أعمّ منه من وجه، أو المرادُ به نوع من الملائكة مُتَعالٍ عن التبوُّء في السماء والأرض، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يَتعظّمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيَوْن منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحُسُور تنبيهاً على أن عبادتهم بِثِقَلها ودوامِها حقيقةٌ بأن يُستَحْسَر منها ولا يَستَحْسِرون.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في يسبحون؛ وهو استئناف، أو حال من ضميرِ قَبْلِه.

(٢١) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً﴾ بل اتخذوا، والهمزة لإنكارِ اتّخاذهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفةٌ لآلهة. أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتُها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ الموتىٰ، وهم وإن لم يصرحوا به لكن لَزِم ادّعاؤهم لها الإلٰهية، فإنّ من لوازمها الاقتدارَ على جميع الممكنات، والمرادُ به تجهيلُهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهِمُ لاختصاص الإنشار بهم.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غيرُ الله، وُصِفَ بإلاَّ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلَها لما بعدها ودَلالتِه على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمرادُ ملازمتُه لكونها مطلقاً أو معه

---

(١) وتخصيص شأنِه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذِّكْر للتخلص إلى ما سيأتي من الوعيد (س٦/ ٦٠).

(٢) وفي إذا الفجائية والجملةِ الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفىٰ (س٦/ ٦٠).

حملاً لها على غير، كما استثني بغير حَمْلاً عليها، ولا يجوز الرفع على البدل لأنه متفرّع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير مُوجَب. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا، لِما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردتْ عليه القُدَرُ وإن تخالفَتْ فيه تعاوقت عنه. ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المحيطِ بجميع الأجسام الذي هو محلُّ التدابير ومنشأ التقادير[1]. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفردِهِ بالألوهية والسّلْطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مستعبَدون، والضمير للآلهة أو للعباد.

(٢٤) ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرره استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمّاً لإنكارِ ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجَدوا آلهة يُنشِرُون الموتى فاتخذوهم آلهة لِمَا وجدوا فيهم من خواصّ الألوهية؟ أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمرَ بإشراكهم فاتخذوهم متابعةً للأمر، ويعضُد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على فساده نقلاً. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القولُ بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحججُ على بطلانه عقلاً ونقلاً؟![2] ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمرَ بالتوحيد والنهيَ عن الإشراك؟ والتوحيدُ لمّا لم يتوقف على صحته بعثةُ الرسل وإنزالُ الكتب صح الاستدلالُ فيه بالنقل. ومن معي: أمتُه، ومن قبلي الأممُ المتقدمة، وإضافة الذِّكْر إليهم لأنه عظتهم. وقرىء بالتنوين والإعمال[3]، وبه وبِمِنْ الجارّة[4] على أنَّ مَعَ اسمٌ هو ظرفٌ كقَبْلُ وبَعْدُ وشِبْهِهما، وبِعَدمِها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل. وقرىء الحقُّ بالرفع على أنه خبر محذوفٍ وُسِّطَ للتأكيد بين السبب والمسبّب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتّباع الرسول من أجل ذلك.

(٢٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنّ ذِكْرُ مَنْ قبلي من حيث إنه خبرٌ لاسم الإشارة مخصوصٌ بالموجود بين أظهُرهم وهو الكتب الثلاثة. وقرأ حفص وحمزةُ والكسائي نوحي إليه بالنون وكسرِ الحاء، والباقون بالياء وفتح الحاء.

---

(١) وإيراد لفظ الجلالة «الله» في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم؛ فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالىٰ عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة (س٦/ ٦٢).

(٢) وإضافة البرهان إليهم للتهكم بهم (س٦/ ٦٢).

(٣) أي «هذا ذكرُ مَن معي وذِكْرٌ مَنْ قبلي» كقوله تعالى «أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً».

(٤) أي هذا ذكرٌ مِنْ معي..

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا الملائكة بناتُ الله[1] ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ وفيه تنبيه على مَدْحَضِ القوم. وقرىء بالتشديد.

(٢٧) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقولَه كما هو دَيْدنُ العبيد المؤدَّبين، وأصله لا يَسبِق قولُهم قولَهُ فنَسَبَ السَّبْق إليه وإليهم، وجعل القول محلَّه وأداتَه تنبيهاً على استهجان السبق المعرَّض به للقائلين على الله ما لم يَقُله، وأنيبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير. وقرىء لا يَسْبُقُونَهُ ـ بالضمّ ـ من سابَقْتُهُ فسبَقْتُه أَسْبقُه. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

(٢٨) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدّموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيدِ لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يَضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أن يُشْفَع له مهابةً منه. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ عظمته ومهابته. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ مرتعدون. وأصل الخشية خوفٌ مع تعظيم، ولذلك خُصَّ بها العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء، فإن عُدّي بِمنْ فمعنى الخوف فيه أَظْهَرُ وإن عُدِّي بعلىٰ فبالعكس.

(٢٩) ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريد به نفيَ البُنوة وإدعاءَ ذلك عن الملائكة وتهديدَ المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَنْ ظلم بالإشراك وادعاءِ الربوبية.

(٣٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أو لم يعلموا. وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ذاتَ رتْق أو مرتوقتين، وهو الضمّ والالْتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقةً متحدة. ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ بالتنويع والتمييز، أو كانت السمواتُ واحدة ففُتّقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجُعلت باختلاف كيفياتها وأحوالِها طبقاتٍ أو أقاليمَ. وقيل كانتا بحيث لا فُرجة بينهما ففُرِج. وقيل كانتا رتقاً لا تُمطر ولا تُنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بالسموات سماءَ الدنيا وجمعُها باعتبار الآفاق أو السمواتُ بأسرها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار. والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتقَ عارِضٌ مفتقر إلى مؤثِّر واجبِ ابتداء أو

(١) والتعرض لعنوان الرحمانية لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (ص٦/ ٦٣).

بوَسْط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب. وإنما قال كانتا ولم يقل كُنَّ لأن المراد جماعةُ السموات وجماعة الأرض. وقرىء رَتَقاً بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرَّفْضِ بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1] وذلك لأنه من أعظم موادِّه، أو لفرْط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صيّرنا كل شيء حيٍّ بسبب من الماء لا يحيا دونَه. وقرىء حياً على أنه صفةُ كلّ، أو مفعول ثانٍ، والظرف لَغْوٌ والشيءُ مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ ثابتات، مِنْ رسا الشيءُ إذا ثبت. ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهةَ أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأَنْ لا تميد فحَذَفَ لا لأَمْن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ مسالِكَ واسعةً. وإنما قدَّم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو لِيُبْدِل منها سُبلاً فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسّعها للسابلة[2] مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

(٣٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته، أو الفسادِ والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراقِ السمع بالشُّهب. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمالِ قدرته وتناهي حكمتِه التي يُحَسُّ ببعضها ويُبْحَث عن بعضها في علميْ الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوينُ بدلٌ من المضاف إليه، والمراد بالفَلَك الجنسُ كقولهم: كساهم الأميرُ حُلّةً. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يُسرعون على سطح الفلَك إسراعَ السابح على سطح الماء، وهو خبرُ كلٌّ والجملةُ حال من الشمس والقمر، وجاز انفرادهما بها لعدم اللَّبْس، والضمير لهما، وإنما جُمع باعتبار المطالع، وجُعِل الضميرُ واوَ العقلاء لأن السباحة فِعْلُهم.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا نتربص به رَيْبَ المنون، وفي معناه قوله:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

والفاءُ لتعلق الشرط بما قبله، والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

---

(١) النور: «٤٥».

(٢) جماعة السائرين.

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ذائقةٌ مرارةَ مفارقتها جسدَها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ ونعاملكم معاملةَ المختبِر. ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً، مَصْدرٌ من غير لفظه. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أيْ بِسُوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإنّ ذِكْر العدُوّ لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالتوحيد، أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمةً عليهم، أو بالقرآن. ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ منكِرون، فهم أحق أن يُهزأ بهم، وتكريرُ الضمير للتأكيد والتخصيصِ ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

(٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه خُلِق منه لِفَرط استعجاله وقلة ثباته، كقولك: خُلق زيد من الكَرَم. جَعَلَ ما طُبع عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغةً في لزومه له، ولذلك قيل: إنه على القلب. ومِنْ عَجَلَتِه مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُ الوعيد. روي أنها نزلت في النضر بن الحارث[1] حين استعجل العذاب. ﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ نِقماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهيُ عما جبلت عليه نفوسهم ليُقعدوها عن مرادها.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقتُ وَعْدِ العذاب أو القيامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

(٣٩) ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ محذوف الجواب، وحين مفعولُ يعلمُ، أي: لو يعلمون الوقتَ الذي يستعجلون منه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو حينَ تُحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا. ويجوز أن يُترك مفعول يعلم ويُضْمَرَ لحينَ فِعْلٌ، بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بُطلان ما هم عليه حين لا يكفون[2]. وإنما وُضِع الظاهر فيه موضعَ الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك[3].

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع» (١١/ ٢٨٩).

(٢) وإيثار صيغة المضارع في الشرط «لو يعلم» وإن كان المعنىٰ على المضي لإفادة استمرار عدم العلم (س٦/ ٦٧).

(٣) أي قال: «لو يعلم الذين كفروا» ولم يقل: لو يعلمون، فأظهر لفظ الذين كفروا وذلك ليدل على ما أوجب لهم =

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٠) ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ العِدَةُ أو النارُ أو الساعة. ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة، مصدرٌ أو حال. وقرىء بفتح الغين. ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرىء الفعلان بالياء. والضميرُ للوعد أو الحين وكذا في قوله: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العِدَة والحينَ بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون للنار أو للبغتة. ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يُمْهَلون، وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

(٤١) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وَعْدٌ له بأن ما يفعلونه به يَحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا، يعني جزاءه[1].

(٤٢) ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ يحفظكم. ﴿ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ الرحمن تنبيه على أنْ لا كالىء غيرُ رحمته العامة وأنّ اندفاعه بمُهْلته[2] ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ لا يُخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسَه، حتى إذا كَلَؤوا منه عرفوا الكالىء وصلُحوا للسؤال عنه.

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ بل ألَهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز مَنْعنا، أو مِنْ عذابٍ يكون من عندنا. والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المُعْرِض الغافل عن الشيء بعيد وعن المُعْتَقِد لنقيضه أبعد. ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ استئنافٌ بإبطال ما اعتقدوه، فإنّ مَنْ لا يقدر على نَصر نفسه ولا يصحبه نصر من الله فكيف ينصر غيره؟!.

(٤٤) ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراجُ والتمتع بما قُدِّر لهم من الأعمار. أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحَسِبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه، ولذلك عقّبه بما يدل على أنه أملٌ كاذب فقال: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾

= ذلك وهو دخولهم النار.
وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر لكونهما أشهر الجوانب، ولأن الإحاطة بهما يستلزم الإحاطة بالكل (س٦/٦٨).

(١) وتقديم «بالذين سخروا..» على الفاعل الذي هو «ما كانوا به...» للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم (س٦/٦٨).

(٢) وتقديم الليل على النهار لأن الدواهي أكثرَ وقوعاً فيه وأشدَّ وقعاً (س٦/٦٩).

أرض الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يُجريه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ رسولَ الله والمؤمنين[1].

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ بما أوحي إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تُسْمِعُ الصمَّ على خطاب النبي ﷺ، وقرىء بالياء على أن فيه ضميرَه[2]. وإنما سماهم الصم ووَضَعَه موضع ضميرهم للدلالة على تصامّهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بيسمع أو بالدعاء. والتقييدُ به لأن الكلام في الإنذار، أو للمبالغة في تصامّهم وتجاسُرهم.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنىٰ شيء. وفيه مبالغات، ذِكْرُ المسّ، وما في النفحة من معنى القِلّة فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء، والبناءُ الدالُّ على المَرّة. ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ من الذي يُنْذَرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ لدَعَوْا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العَدْل توزن بها صحائفُ الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيلٌ لإرصاد الحساب السوي والجزاءِ على حسب الأعمال بالعدل. وإفرادُ القسط لأنه مصدر وُصِفَ به للمبالغة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه، كقولك: جئت لخَمْسٍ خَلَوْن من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العملُ أو الظلم مقدار حبة. ورفع نافعٌ «مثقال» على كان التامّة. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها. وقرىء آتينا بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا أو من المؤاتاة فإنهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وأثَبْنا من الثواب، وجئْنا[3]. والضميرُ للمثقال، وتأنيثه لإضافته إلى الحبة. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلنا.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتابَ الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الحَيرة والجهالة، وذكْراً يَتّعِظ به المتقون أو ذِكْرَ ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل الفرقان النصر، وقيل فلق البحر. وقرىء ضياءً بغير واو على أنه حال من الفرقان[4].

---

(١) وفي تعريف «الغالبون» تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلَبَة المعروفون بها (س٦/ ٧٠).
(٢) أي ضمير النبي عليه السلام، أي «ولا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ».
(٣) أي قرىء «آتينا وأثبنا وجئنا».
(٤) وتخصيص المتقين بالذكْر لأنهم هم المنتفعون به.

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ صفة للمتقين، أو مدحٌ لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون. وفي تصديرِ الضمير وبناء الحكم عليه مبالغةٌ وتعريض[1].

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن. ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثير خيرُه. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ الاهتداءَ لوجوه الصلاح، وإضافتُه[2] ليدل على أنه رُشْدُ مِثْلِهِ وأن له شأناً. وقرىء رَشَدَهُ وهو لغة. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ موسىٰ وهارون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغِه حيث قال: إني وجهت. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ عَلِمْنا أنه أهلٌ لما آتيناه، أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فِعْلَه سبحانه وتعالى باختيارٍ وحكمة، وأنه عالم بالجزئيات.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ متعلق بآتينا أو برُشْدَه أو بمحذوف، أي اذْكُر من أوقات رشده وقتَ قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التِمثال صورةٌ لا روح فيها لا يضر ولا ينفع. واللامُ للاختصاص لا للتعدية، فإن تعديةَ العُكوف بعلىٰ، والمعنى أنتم فاعلون العكوفَ لها، ويجوز أن يؤول بعلى أو يُضَمَّن العكوفُ معنى العبادة.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فقلّدناهم، وهو جواب عما لزم الاستفهامُ من السؤال عما اقتضى عبادتها وحَمَلَهم عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منخرطين في سلك ضَلال لا يخفى علىٰ عاقل، لعدم استناد الفريقين إلى دليل. والتقليد إنْ جاز فإنما يجوز لمَنْ علم في الجملة أنه على حق.

(٥٥) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليلَه إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أَبِجِدٍّ تقولُه أم تلعب به[3].

---

(١) وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر ـ بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق ـ للإيذان بكونها معظم المخوِّفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون.
وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه (س٦/ ٧١).

(٢) أي وإضافة الرشد إلى إبراهيم عليه السلام.

(٣) وفي إيراد الشقّ الأخير «أم أنت من اللاعبين» بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم =

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه. وهُنّ للسموات والأرض أو للتماثيل، وهو أدْخَل في تضليلهم وإلزام الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد مَنْ تحقق الشيء وحققه.

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقرىء بالباء، وهي الأصل والتاءُ بدل من الواو المبدلةِ منها، وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأجتهدن في كسرها، ولَفْظُ الكيد وما في التاء من التعجب لِصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟﴾ عنها. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدكم، ولعله قال ذلك سراً.

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قُطاعاً فُعال بمعنى مفعول كالحُطام، من الجذّ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة أو جمعُ جَذِيذ كخِفَاف وخَفيف، وقرىء بالفتح. وجِذَذاً جمع جَذيذ وجُذذاً جمع جُذّة. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام كسَّر غيرَه واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتهارِه بعداوة آلهتهم فيُحاجُّهم بقوله: بل فعله كبيرهم فيَحُجَّهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يُرجَع إليه في حل العُقَد فيبكّتهم بذلك، أو إلى الله أي يرجعون إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

(٥٩) ﴿قَالُوا۟﴾ حين رجَعوا. ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بِجُرْأته على الآلهة الحقيقةِ بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها، أو بتوريط نفسه للهلاك.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعيبهم، فلعله فعلَه. ويَذْكُرُ ثاني مفعولي سَمِع، أو صفة لفتًى مصححةٌ لأنْ يتعلق به السمع، وهو أبلغ في نسبة الذِّكْر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ خبرُ محذوفٍ أي هو إبراهيم، ويجوز أن يُرْفَع بالفعل لأن المراد به الاسم.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تَمَكُّنَ الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له.

(٦٢) ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ حين أحضروه[1].

= (س٦/ ٧٣).

(١) اقتُصِر على حكاية قولهم دون ذِكْر مجيئهم به للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنيّ عن البيان (س٦/ ٧٤).

قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

(٦٣) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أَسْنَد الفعل إليه تجوّزاً لأن غيظه لِمَا رأى من زيادة تعظيمهم له تسبَّب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يُحْسِنُ الخطّ فيما كتبَه بخط رشيق: أأنتَ كتبتَ لهذا فقلتَ بل كتبتَه أنت، أو حكايةً لما يلزم من مذهبهم جوازُه، وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وما بينهما اعتراض. أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم[1]. وقولُه كبيرُهم هذا مبتدأ وخبر ولذلك وُقِفَ على فعله. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لإبراهيمَ ثلاثُ كَذِبات»[2] تسميةٌ للمعاريض كذِباً لِمَا شابهت صورتُها صورتَه.

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وراجعوا عقولهم. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ فقال بعضهم لبعض. ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا مَنْ ظلمتموه بقولكم إنه لمن الظالمين.

(٦٥) ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شَبَّه عوْدَهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه. وقرىء نُكِّسُوا بالتشديد، ونَكَسُوا أي نكسوا أنفسهم. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها، وهو على إرادة القول.

(٦٦) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر، فإنه ينافي الألوهية.

(٦٧) ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجّرٌ منه على إصرارهم بالباطل البيّن. وأُفّ صوت المتضجر، ومعناه قبحاً ونتناً، واللام لبيان المتأفَّفِ له[3]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قَبْحَ صنيعكم.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟﴾ أخذاً في المضارة لما عجَزوا عن المحاجّة. ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإن النار أهول ما يُعاقب به. ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً. والقائلُ فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خُسِفَ به الأرضُ، وقيل نمروذ.

(٦٩) ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذاتَ بردٍ وسلام، أي ابرُدي برداً غير ضار. وفيه مبالغات: جَعْلُ النار المسخرة لقدرته مأمورةً مطيعة، وإقامةُ كوني ذاتَ بردٍ مَقَامَ ابرُدي، ثم حُذف

---

(١) قوله (أو إلى ضمير فتى أو إبراهيم) عطف على قوله أسند الفعل إليه تجوّزاً.

(٢) هو عند البخاري بلفظ «لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات...» برقم (٣٣٥٨، ٥٠٨٤).

(٣) وإظهار لفظ الجلالة «الله» لمزيد استصباح ما فعلوا (س٦/ ٧٦).

المضاف وأقيم المضافُ إليه مُقامَه. وقيل نُصِبَ سلاماً بفعله أي وسَلَّمْنا سلاماً عليه. روي أنهم بنَوا حظيرة بكوثى[١] وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً[٢] فرموا به فيها، فقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: فسَلْ ربك، فقال: حسبي من سؤالي عِلْمُه بحالي[٣]، فجعل الله تعالى ـ ببركة قوله ـ الحظيرةَ روضةً[٤] ولم يحترق منه إلا وَثَاقُه، فاطّلع عليه نمروذ من الصرح فقال إني مُقرِّبٌ إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٥]، وكان إذ ذاك ابنَ ستَّ عشرةَ سنة[٦]. وانقلابُ النار هواءً طيباً ليس ببِدْع غيرَ أنه هكذا على خلاف المعتاد، فهو إذن من معجزاته. وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها، كما ترى في السَّمَندل[٧] ويُشْعِرُ به قولُه: «على إبراهيم».

وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكراً في إضراره. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أخسرَ من كل خاسر لمَا عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيمَ على الحق وموجِباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، وبركاتُه العامةُ أن أكثر الأنبياء بُعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعُهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين ولوطٌ عليه الصلاة والسلام بالمؤتَفِكة وبينهما مسيرة يوم وليلة[٨].

---

(١) بضم أوله، وبالثاء المثلثة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.

(٢) انظر البحر المحيط (٦/ ٣٢٨).

(٣) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ «علمه بحالي غنى عن سؤالي» حكاية عن الخليل عليه السلام. وقال ابن تيمية: موضوع.

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٢٢٩ رقم ٤٥٦٤) عن ابن عباس قال «كان آخرَ قولِ إبراهيم حين أُلقيَ في النار» (حسبي اللهُ ونِعمَ الوكيل).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٦) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ج١٧/ ٤٥) عن شعيب الجبائي.

(٧) السَّمَنْدَلُ: ـ طائر إذا انقطع نَسْلُهُ وهَرِمَ ألقى نفسه في الجَمْر فيعود إلى شبابه. قاله أبو سعيد. وقال غيره: هو دابّة يدخل النار فلا تَحْرِقه [لسان العرب (٦/ ٣٧٦)].

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ج١٧/ ٤٧) عن ابن إسحاق.
وذكر ابن جرير أقوالاً أخر، ثم قال مرجحاً أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام، «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مُقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يُقم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي =

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ عَطِيةٌ فهي حال منهما، أو وَلَدَ وَلَدٍ، أو زيادةً على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوب ولا بأس به للقرينة. ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة. ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح وحملناهم عليه فصاروا كاملين.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم. ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى الحق. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالُنا إياهم حتى صاروا مكمَّلين. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ لِيحثّوهم عليها فيتمَّ كمالُهم بانضمام العمل إلى العلم، وأصله أن تفعل الخيرات ثم فِعْلاً الخيرات ثم فِعْل الخيرات، وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل، وحذفت تاءُ الإقامة المعوَّضة من إحدى الألِفَين لقيام المضاف إليه مَقامها. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحّدين في العبادة، ولذلك قدّم الصلة.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمةً أو نبوةً أو فصلاً بين الخصوم. ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قرية سَدوم. ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني اللواطة. وصفها بصفة أهلها أو أسندها إليها على حذف المضاف وإقامتها مُقامه، ويدل عليه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنه كالتعليل له.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ في أهل رحمتنا أو جنتنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قَبْلِ المذكورين. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الطوفان أو أذى قومه. والكربُ الغم الشديد.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ مُطَاوِعُ انتصر، أي جعلناه منتصراً[1]. ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيبِ الحق والانهماك في الشر، ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

= بارك فيها للعالمين» هـ.

(١) قال أبو السعود: (وحمله على فانتصر يأباه ما ذُكِر من دعائه عليه السلام، فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر (س٦/٧٨).

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

(٧٨) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل في كَرْم تدلّت عناقيده. ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً[١]. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمَين والمتحاكمَين إليهما عالِمين[٢].

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ الضميرُ للحُكومة أو للفتوى. وقرىء فَأفهمناها. روي أن داودَ حكم بالغنم لصاحب الحرْث، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشْرةَ سنةً: غَيْرُ هذا أَرْفَقُ بهما، فأَمَر بدفع الغنم إلى أهل الحرْث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحَرْثِ[٣] إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادّان؛ ولعلهما قالا اجتهاداً. والأول نظيرُ قول أبي حنيفة في العبد الجاني، والثاني مثلُ قول الشافعي بِغُرْم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أَبَقَ، وحكمه في شرعنا: عند الشافعي وجوبُ ضمان المُتْلَف بالليل إذْ المعتاد ضَبْطُ الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي ﷺ لمّا دخلت ناقةُ البراء حائطاً وأفسدته فقال: «على أهل الأموال حِفْظُها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظُها بالليل»[٤]، وعند أبي حنيفة لا ضمانَ إلاّ أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ: «جَرْحُ العَجْماء جُبَارٌ»[٥]. ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يُقْدَح فيه. وقيل على أنّ كلَّ مجتهد مصيب، وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: «ففهمناها»، ولولا النقْلُ لاحتمل توافُقُهما، على أن قوله ففهّمناها لإظهار ما تُفُضِّل عليه في صغره. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ يُقدِّسن الله معه إما بلسان الحال، أو بصوت يتمثل له، أو بخَلْق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يَسِرْن معه، مِنَ السباحة، وهو حال أو استئنافٌ لبيان وجه التسخير. ومع متعلقة بسخرنا أو يسبحن. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على الجبال أو مفعول معه. وقرىء بالرفع على الابتداء أو العطفِ على الضمير على ضَعْفٍ. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لأمثاله، فليس بِبِدْع منّا وإن كان عجباً عندكم.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمَلَ الدرْع، وهو في الأصل اللباس قال:

البَسْ لكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إمَّا نعيمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا

---

(١) النفش رعي الماشية في الليل وأصله الانتشار والتفرق (روح المعاني ١٧/ ٧٤).

(٢) وجملة «كنا لحكمهم...» جملة معترضة مقرِّرة للحكم ومفيدة لمزيد الاعتناء بشأنه (س٦/ ٧٨).

(٣) أي وأمر برفع الحرْثِ...

(٤) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الأقضية (ج٢٧) وأبو داود (٣٥٦٩) وابن ماجة (٢٣٣٢).
وهو حديث صحيح. أما الحديث الآتي «جرح العجماء جبار» فهو عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبني على الخاص ويُرد إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء كما أفاده الخطابي في معالم السنن على هامش سنن أبي داود.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٩٩، ٢٣٥٥، ٦٩١٢) ومسلم، كتاب الحدود، باب جرح العجماء (ج٤٥)، وجُبار: هدَر.

قيل كانت صفائحَ فحلَّقها وسرَدها. ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بعَلّم أو صفة لِلَبوس. ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بَدَلَ الاشتمال بإعادة الجارّ. والضميرُ لداود عليه الصلاة والسلام أو للبوس، وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، وفي قراءة أبي بكر ورُوَيْس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلك، أَمْرٌ أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ وسخرنا له، ولعل اللامَ فيه دونَ الأولِ لأنّ الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أَمْرٌ يَظْهر في الجبال والطيرِ مع داود وبالإضافة إليه. ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ شديدةَ الهبوب من حيث إنها تُبْعِدُ بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] وكانت رُخاءً في نفسها طيِّبةً. وقيل كانت رُخاءً تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بمشيئته، حالٌ ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رَواحاً بعدما سارت به منه بُكْرة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريه على ما تقتضيه الحكمة.

(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار ويُخرجون نفائسها. ومِنْ عطفٌ على الريح، أو مبتدأ خبرُه ما قبلَه، وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال أُخَرَ كبناء المدن والقصور. واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾[2]. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أن يَزيغوا عن أمره، أو يُفْسِدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم.

(٨٣) ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ بأني مسني الضر. وقرىء بالكسر[3] على إضمار القول أو تضمينِ النداء معناه. والضُّرُّ بالفتح[4] شائع في كل ضرر، وبالضم خاصٌّ بما في النفس كمرضٍ وهُزال. ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وَصَفَ ربه بغاية الرحمة بعدما ذَكَرَ نفسَه بما يوجبها واكتفىٰ بذلك عن عرض المطلوب لُطفاً في السؤال. وكان روميّاً من ولد عيصَ بنِ إسحاقَ استنبأه الله وكثّر أهلَه وماله، فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهابِ أمواله والمرضِ في بدنه ثمانيَ عشرة سنةً أو ثلاثَ عشْرة سنة أو سبعاً وسبعةَ أشهر وسبعَ ساعات. روي أن امرأته ـ مَاخِيرَ بنتَ ميشا بنِ يوسفَ أو رحمةَ بنتَ إفرائيمَ بنِ يوسف ـ قالت له يوماً: لو دعوتَ الله؟ فقال: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

---

(١) سبأ: «١٢».
(٢) سبأ: «١٣».
(٣) أي بكسر الهمزة «إنّي».
(٤) أي بفتح الضاد.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأَنْ وُلِد له ضِعْفُ ما كان، أو أُحْيِيَ ولدُه ووُلِدَ له منهم نوافلُ[1]. ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ رحمة على أيوب وتَذكِرةً لغيره من العابدين ليصبِروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا للعابدين فإنا نَذْكُرهم بالإحسان ولا ننساهم.

(٨٥) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ يعني إلْياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى، أو تكفل أُمّته، أو له ضِعْفُ عمل أنبياء زمانه وثوابهم، والكِفْلُ يجيء بمعنى النصيب والكَفَالَةِ والضِّعْفِ. ﴿كُلٌّ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ التكاليف وشدائد النُّوَب.

(٨٦) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ يعني النبوة أو نعمةَ الآخرة. ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

(٨٧) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ وصاحبَ الحوت يونُسَ بنَ متّىٰ ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومه لمّا بَرِم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يُؤْمَرَ، وقيل: وَعَدَهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يَعْرِفْ الحال فظَنَّ أنه كَذَبَهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة، أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لِخَوفهم لُحوقَ العذاب عندها. وقرىء مُغْضَباً. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نُضيّق عليه، أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القَدَر، ويعضده أنه قرىء مثقَّلاً[2]، أو لن نُعْمِل فيه قدرتنا، وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرةٌ شيطانية سبقت إلى وهمه فسمّيت ظناً للمبالغة. وقرىء بالياء[3]، وقرأ يعقوب على البناء للمفعول، وقرىء به مثقّلاً[4]. ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ من أن يُعجِزك شيء. ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة، وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[5].

---

(١) يقال لولد الولد نافلة (المصباح المنير مادة نفل).

(٢) أي قرىء «نُقَدِّرَ» بضم النون وفتح القاف وكسر الدال مشددة.

(٣) أي «يَقْدِرَ» بفتح الياء وكسر الدال المخففة.

(٤) قراءة يعقوب «يُقْدَرَ» وقرىء «يُقَدَّرَ».

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٢٩ رقم ٣٥٠٥) والحاكم (١/ ٥٠٥) و(٢/ ٣٨٢) و(٢/ ٥٨٣)، قال الحاكم صحيح الإسناد.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٨) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ﴾ بأنْ قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل ثلاثة أيام. والغَمُّ غمُّ الالْتقام، وقيل غمُّ الخطيئة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غُموم دعَوا الله فيها بالإخلاص. وفي الإمام نُجِي ولذلك أخفى الجماعةُ النونَ الثانية فإنها تُخفىٰ مع حروف الفم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله نُنَجّي فحُذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تَظَاهرون، وهي وإن كانت فاءً فحَذْفُها أَوْقَعُ من حذف حرف المضارعة التي لمعنًى، ولا يَقْدَحُ فيه اختلافُ حركتيْ النونين فإنّ الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثْلين مع تعذر الإدغام، وامتناعُ الحذف في تتجافىٰ لخوف اللَّبس[1]. وقيل هو ماض مجهولٌ أُسْنِد إلى ضمير المصدر وسُكِّن آخرُه تخفيفاً، ورُدّ بأنه لا يُسند إلى المصدر والمفعول مذكورٌ والماضي لا يُسَكَّنُ آخرُه.

(٨٩) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي به.

(٩٠) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عُقْرها، أو لزكريا بتحسين خلقها وكانت حَرِدة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير[2]. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغَب ورهَب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ مُخبتين أو دائبين الوجلَ. والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

= . ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في تخريج الكلم الطيب رقم (١٢٢).

ـ من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ «دعوة ذي النون إذ دعا هو في بطن الحوت أن «لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» ـ رفعه ـ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له.

ـ وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٥٦٠) وأحمد (١/ ١٧٠) وأبو يعلى (٢/ ١١٠) بهذا الإسناد وسياق أحمد وأبي يعلى طويل، فيه قصة.

ـ وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٦٥) من طريق مطلب بن عبدالله بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ «من دعا بدعاء يونس استجيب له».

وله شاهد: أخرجه الحاكم (١/ ٥٠٥) من طريق محمد بن المهاجر عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده. بلفظ «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه، فقيل له بلى، فقال: دعاء ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) لبس المضارع بالماضي لو حذفت إحدى التاءين.

(٢) وتعدية فعل المسارعة بـ «في» دون إلى للإيذان بكونهم داخلين في الخيرات غير خارجين عنها.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾

(٩١) ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ من الحلال والحرام، يعني مريم[١]. ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ أي في عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحدَه، أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ﴾ أي قصتهما أو حالهما، ولذلك وَحَّد قولَه: ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام مِلّتكم التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتّباع. وقرىء أُمَّتكم بالنصب على البدل، وأمةٌ بالرفع على الخبر، وقرئتا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ لا غير.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ صَرَفَهُ إلى الغَيبة الْتفاتاً لينعِيَ على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قِطَعاً موزّعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم[٢].

(٩٤) ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفۡرَانَ﴾ فلا تضييع. ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾ استُعير لمَنْع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه، ونَفْيُ الجنس للمبالغة[٣]. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ لسعيه. ﴿كَٰتِبُونَ﴾ مُثْبِتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجهٍ ما.

(٩٥) ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ وممتنعٌ على أهلها غيرُ متصوَّر منهم. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وحِرْمٌ بكسر الحاء وإسكان الراء، وقرىء حَرِمٌ[٤]. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ حكمنا بإهلاكها، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ رجوعَهم إلى التوبة أو الحياة، ولا صِلَةٌ. أو عدمُ رجوعهم للجزاء، وهو مبتدأ خبرُه حرام أو فاعلٌ له سادّ مسد خبره أو دليل عليه، وتقديرُه: توبتهم أو حياتُهم أو عدمُ بعثهم. أو لأنهم لا يرجعون ولا ينيبون، وحرام خبرُ محذوفٍ أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية

---

(١) والتعبير عنها بالموصول «التي» لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه في حقها (س٦/ ٨٣).

(٢) وإيراد اسم الفاعل «راجعون» للدلالة على الثبات والتحقق (س٦/ ٨٤).

(٣) وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به (س٦/ ٨٤).

(٤) قوله وقرىء «حرم» أي بفتح الحاء وسكون الراء، وبفتح الحاء وكسر الراء والتنوين، وبكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ، وبضم الراء وفتح الحاء والميم على المضيّ أيضاً، وبفتح الحاء والراء والميم على المضيّ أيضاً، وبضم الحاء وكسر الراء المشددة وفتح الميم على البناء للمفعول.

المتقدمة، ويؤيده القراءة بالكسر[١]. وقيل حرام عَزْمٌ وموجَب عليهم أنهم لا يرجعون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

(٩٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ متعلق بحرام، أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بلا يرجعون أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدمُ الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتِها. وهو فتحُ سد يأجوجَ ومأجوج، وهي «حتى» التي يُحكىٰ الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامرٍ ويعقوبُ فُتِّحت بالتشديد. ﴿وَهُم﴾ يعني يأجوج ومأجوج، أو الناسَ كلَّهم. ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ نَشَزٍ من الأرض، وقرىء جَدَثٍ وهو القبر. ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون، مِنْ نَسَلان الذئب. وقرىء بضم السين.

(٩٧) ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القيامة. ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب الشرط، وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[٢] فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبْصَار. ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ مقدر بالقول، واقع موقع الحال من الموصول. ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ لم نعلم أنه حق. ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنُذُر.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمل الأوثان وإبليسَ وأعوانَه، لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عَبَدَتهم، لما روي[٣] أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآيةَ على المشركين قال له ابن الزِّبَعْرىٰ: قد خَصَمْتُك وربِّ الكعبة، أليس اليهودُ عبدوا عُزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مُلَيح

---

(١) أي بكسر الهمزة «إنهم».

(٢) الروم: «٣٦».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٣ رقم ١٢٧٣٩) من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي رزين عن ابن عباس.
ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٩) وقال: فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة.
ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ٩٧) من طريق سعيد بن جبير. والحاكم (٢/ ٣٨٥) من طريق عكرمة. كلاهما عنه مختصراً وفيه «فقال المشركون» وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
● وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» ص١١١ ـ ١١٢: «تنبيهان: (أحدهما): اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم، وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال: في هذه القصة لابن الزبعرىٰ.
«ما أجهلك بلغة قومك. فإني قلت: وما تعبدون. وهي لما لا يعقل ولم أقل ومن تعبدون» هـ. وهو شيء لا أصل له. ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند.
(الثاني): ـ قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرىٰ غير لازم. لأنَّ الخطاب مخصوص بقريش وما تعبدون من الأصنام. ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل» هـ.
وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأمل. فإنه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله.

عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[1] الآية وعلى هذا يعمُّ الخطابُ ويكونُ مَا مؤولاً بمَنْ أو بما يعمُّه، ويدل عليه ما روي أن ابن الزِّبَعْرَىٰ قال: هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل مَنْ عُبِد من دون الله فقال ﷺ: «بل لكل من عُبد من دون الله». ويكونُ قوله إن الذين بياناً للتجوّز أو للتخصيص، فأُخِّر عن الخطاب. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يُرمىٰ به إليها وتهيج به، مِنْ حَصَبَهُ يحْصُبِه إذا رماه بالحصباء. وقرىء بسكون الصاد وَصْفاً بالمصدر. ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استئنافٌ أو بدل من حصَبُ جهنم، واللامُ معوَّضَةٌ من علىٰ للاختصاص والدلالةِ على أن ورودهم لأجلها.

لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأن المؤاخِذَ بالعذاب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لهم عنها.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنينٌ وتنفس شديد، وهو من إضافة فِعْلِ البعض إلى الكل للتغلّب إنْ أُريد بـ ما تعبدون الأصنام. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل لا يسمعون ما يَسُرُّهم.

(١٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي الخَصلةُ الحسنى، وهي السعادةُ أو التوفيق بالطاعة أو البشرىٰ بالجنة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم يُرْفَعُون إلى أعلى عليين. روي[2] أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية، ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو بدل من مبعدون أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها. والحسيس صوتٌ يُحَسُّ به. ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم. وتقديمُ الظرف للاختصاص والاهتمام به.

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ النفخةُ الأخيرة لقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى

---

(١) الأنبياء: «١٠١».

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٩٨٦) من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سُمَّار علي.
وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف، وابن عم النعمان بن بشير مجهول، فالأثر ضعيف.
وأخرج ابن جرير (١٠/ج١٧/ ٩٦) من طريق محمد بن حاطب عن علي وليس فيه إلا «عثمان منهم» وإسناده صحيح.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، أو الانصرافُ إلى النار، أو حين يُطْبَقُ على النار، أو يُذْبَح الموت. ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تستقبلهم مهنئين لهم. ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ يومُ ثوابكم، وهو مقدر بالقول. ﴿ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ مقدر باذْكُر، أو ظرفٌ لِلاَ يحزُنُهُمُ أو تتلقاهم، أو حالٌ مقدَّرة من العائد المحذوف مِنْ توعدون. والمرادُ بالطيّ ضدُّ النشر، أو المَحْوُ من قولك اطْوِ عنّي هذا الحديث، وذلك لأنها نُشِرَتْ مَظَلّةً لبني آدم فإذا انتقلوا قُوِّضت عنهم. وقرىء بالياء والبناء للمفعول[2]. ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ طيّاً كطيّ الطومار لأجل الكتابة أو لِما يُكتب أو كُتب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع[3]، أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل السّجِلّ مَلَكٌ يطوي كُتُب الأعمال إذا رفعت إليه، أو كاتبٌ كان لرسول الله ﷺ. وقرىء السَّجْل كالدَّلْو، والسُّجُلّ كالعُتُلّ، وهما لغتان فيه. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مِثْلَ بَدْئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبدِّدة. والمقصودُ بيانُ صحة الإعادة بالقياس على الإبداء، لشُمول الإمكان الذاتي المُصَحِّح للمقدورية، وتناولِ القدرة القديمة لهما على السواء. وما كافَّةٌ أو مصدريةٌ، وأولَ مفعولٌ لبدأنا أو لفعل يفسره: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ أو موصولةٌ والكافُ متعلقة بمحذوف يفسره نعيده، أي نعيد مثل الذي بدأنا وأولَ خَلْقٍ ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعْدًا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لنُعِيدُه، أو منتصِبٌ به لأنه عِدَةٌ بالإعادة. ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي علينا إنجازُه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلك لا محالةَ.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المرادُ بالزبور جنسُ الكتب المنزلة وبالذكر اللوحُ المحفوظ. ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة، أو الأرض المقدسة. ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين، أو الذين كانوا يُسْتَضْعفون مشارقَ الأرض ومغاربَها، أو أمة محمد ﷺ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ لَكِفايةً أو لَسَبَبَ بُلوغٍ إلى البُغية. ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ همُّهم العبادةُ دون العادة.

(١٠٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ ما بُعثتَ به سببٌ لإسعادهم وموجِبٌ لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونُه رحمةً للكفار أَمْنُهُمْ به من الخسْف والمسخ وعذاب الاستئصال.

---

(١) النمل: «٨٧».
(٢) أي «يُطْوَىٰ».
(٣) أي جمع الكتاب «للكُتُب».

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إلهٌ واحد، وذلك لأن المقصود الأصليَّ من بعثته مقصورٌ على التوحيد، فالأُولى لقصر الحكم على الشيء والثانيةُ على العكس. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدَّق بالحجة، وقد عرفتَ أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

(١٠٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أعْلمتُكم ما أُمِرْتُ به، أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ مُسْتَوِين في الإعلام به، أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذاناً على سواء. وقيل أعلمتكم أني على سواء أي عَدْلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النير. ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر، لكنه كائن لا محالة.

(١١٠) ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما تُجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحَن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخيرَ جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم أو امتحانٌ لينظرَ كيف تعملون. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

(١١٢) ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ اقْضِ بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم. وقرأ حفص قال على حكاية قول رسول الله ﷺ، وقرىء ربُّ بالضم، ورَبّي أَحْكَمُ على بناء التفضيل، وأَحْكِمْ مِنَ الإحْكَام. ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوبُ منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكةَ تكونُ لهم وأن راية الإسلام تَخفُق أياماً ثم تَسْكُن وأن المُوعَدَ به لو كان حقاً لنزل بهم، فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فَخَيَّب أمانيَّهم ونصر رسوله ﷺ. وقرىء بالياء وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسَبَه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كلُّ نبي ذُكِرَ اسمُهُ في القرآن»[1] والله تعالى أعلم.

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
انظر (الكافي الشافِ) (ص١١٢ رقم ١٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

سورة الحج مكيةٌ

إلا ستَ آيات مِنْ «هذان خصمان» إلى «صراط الحميد»[1] وآيُها ثمانٍ وسبعون آية

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

«روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلها. غير آيتين نزلتا بالمدينة:

قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)، والتي تليها [الحج: ١٢، ١٣].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول...) إلى آخر الأربع [الحج: ٥٣ ـ ٥٧] وقال عطاء بن يسار: نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة:

(هذان خصمان) واللتان بعدها [الحج: ٢٠ ـ ٢٢] وقال أبو سليمان الدمشقي: أولها مدني إلى قوله تعالى: (وبشر المحسنين) [الحج: ٣٨] وسائرها مكي. وقال الثعلبي: هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: (هذان خصمان) إلى قوله تعالى (الحميد) [الحج: ٢٠ ـ ٢٥] وقال هبة الله بن سلامة: هي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكياً ومدنياً وحضرياً وسفرياً وحربياً وسلمياً وليلياً ونهارياً وناسخاً ومنسوخاً.

فأما المكي، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها.

وأما المدني، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين.

وأما الليلي، فمن أولها إلى آخر خمس آيات.

وأما النهاري، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع.

وأما السفري، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة.

وأما الحضري، قال رأس العشرين [منها] نسب إلى المدينة، لقرب مدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ تحريكُها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريكُ الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافةً معنويةً بتقدير في، أو إضافةَ المصدر إلى الظرف على إجرائه مُجرى المفعول به. وقيل هي زلزلة تكون قُبيل طلوعِ الشمس من مغربها، وإضافتُها إلى الساعة لأنها من أشراطها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل. علل أَمْرَهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يُؤَمِّنهم منها سوى التدرعِ بلباس التقوى فيُبقُوا على أنفسهم ويتّقوها بملازمة التقوى.

(٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ تصويرٌ لِهَوْلها، والضميرُ للزلزلة، ويومَ منصوب بتذهل. وقرىء تُذْهَلُ وتُذْهِلُ مجهولاً ومعروفاً أي تُذْهِلُها الزلزلةُ. والذهول الذهابُ عن الأمر بدهشة. والمقصودُ الدلالة على أن هولها بحيث إذا دَهِشَت التي أَلْقمت الرضيعَ ثديَها نزعتْه من فيه وذهِلت عنه. وما موصولة أو مصدرية. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ كأنهم سكارى. ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هولُه بحيث طيّر عقولَهم وأذهب تمييزهم. وقرىء تُرَىٰ من أَرَيْتُك قائماً أو رُؤيت قائماً بنصب الناس ورفعه على أنه نائبٌ منابَ الفاعل. وتأنيثُه على تأويل الجماعة، وإفرادُه بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثرُ السَّكَر إنما يراه كل أحد على غيره. وقرأ حمزة والكسائي سَكْرىٰ كعطشى، إجراءً للسَّكَر مُجرىٰ العلل.

(٣) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث[1]، وكان جَدِلاً يقول: الملائكةُ بناتُ الله والقرآنُ أساطير الأولين ولا بعْثَ بعد الموت، وهي تعمّه وأضرابَه. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة أو في عامةُ أحواله. ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ متجرّدٍ للفساد، وأصله العُرْيُ.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ على الشيطان. ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ تبعه، والضمير للشأن. ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ خبر لمَنْ أو جواب له، والمعنى كتب عليه إضلالُ مَنْ يتولاه لأنه جُبل عليه. وقرىء بالفتح[2] على تقدير فشأنُه أنه يُضله لاعلى العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام، وقرىء بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمارِ القول أو تضمينِ الكَتْبِ معناه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونِه مقدوراً. وقرىء من البَعْثِ بالتحريك كالجَلَب. ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يُزيح رَيْبكم فإنا خلقناكم. ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذيةِ التي يتكون منها المنيّ. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ، مِنَ النّطف وهو الصبّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/٨).

(٢) أي بفتح الهمزة في «أنه» في الموضعين.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، وهي في الأصل قَدْرُ ما يُمْضَغ. ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مُسَوّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيب وغيرِ مُسوّاة، أو تامةٍ وساقطة، أو مصوَّرةٍ وغيرِ مصورة. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قُدْرَتَنا وحكمتنا، وأن ما قَبِلَ التغيرَ والفساد والتكوّن مرة قَبِلها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدَر على ذلك ثانياً. وحُذف المفعول إيماءً إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذِّكر. ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أنْ نقره. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوضع، وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربعُ سنين. وقرىء ونُقِرَّ بالنصب، وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ عطفاً على نبيِّنَ، كأنّ خَلْقَهم مُدَرَّجاً لغرضين: تبيينِ القدرة، وتَقْريرِهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف. وقرئا[1] بالياء رفعاً ونصباً، ويُقِرَّ بالياء، ونَقُرُّ من قررت الماء إذا صببتُه. وطفلاً حالٌ أجريت على تأويل كلَّ واحد، أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ كمالَكم في القوة والعقل، جمع شِدة كالأنْعُم جمع نعمة، كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشُد أو قبله. وقرىء يَتَوَفّىٰ أي يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف. وقرىء بسكون الميم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عَمِله ويُنكِر ما عرفه. والآية استدلال ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة، مِنْ هَمَدت النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت. وقرىء وربأت أي ارتفعت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَنٍ رائق. وهذه دِلالةٌ ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونِها مشاهَدَة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويلِه على أحوال متضادة وإحياءِ الأرض بعد موتها، وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأنه يَقْدِر على إحيائها، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة[2]. ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قُدرته لذاته الذي نِسْبَتُه إلى الكل على سواء. فلما دلت المشاهدةُ على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتدارُه على إحياء كلِّها.

(٧) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه[3] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى

---

(١) قوله : (وقرئا) عائدة على الفعلين نقرّ ، ونخرجكم . .

(٢) وتخصيص إحياء الموتى بالذكر ـ مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها ـ للتصريح بما فيه النزاع والدفعِ في نحور الكافرين ، وتقديمه لإبراز الاعتناء به (س٦/ ٩٥) .

(٣) وإيثار صيغة الفاعل في «آتية» للدلالة على تحقيق إتيانها وتقرره البتّة لاقتضاء الحكمة إياه (س٦/ ٩٥).

﴿ٱلْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخُلْف.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولِما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ على أنه لا سند له عن استدلالٍ أو وحي، أو الأول في المقلِّدين وهذا في المقلَّدين، والمراد بالعلم العلمُ الفطريُّ ليصح عطفُ الهدىٰ والكتاب عليه.

(٩) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ متكبراً، وثَنْيُ العِطف كنايةٌ عن التكبر كَلَيِّ الجِيد، أو مُعْرِضاً عن الحق استخفافاً به. وقرىء بفتح العين أي مانِعٌ تَعَطُّفَهُ. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علّة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء، على أنّ إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروجٌ من الهدىٰ إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ على الالْتفات، أو إرادةِ القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزيُ والتعذيبُ بسبب ما اقترفْتَه من الكفر والمعاصي[1]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مُجَازٍ لهم على أعمالهم. والمبالغةُ لكثرة العبيد.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طَرَفٍ من الدين لا ثَبَاتَ له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظَفَرٍ قَرّ وإلا فَرّ. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ روي أنها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينة، فكان أحدُهم إذا صح بَدَنُه ونُتِجت فرسه مُهراً سَرِيّاً وولدت امرأتُه غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أَصَبْتُ منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أَصَبْتُ إلا شراً وانقلب[2]. وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائبُ فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أَقِلْني فقال: «إن الإسلام لا يُقَالُ» فنزلت[3]. ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا

---

(١) وإسناده إلى يده لأن الاكتساب عادة يكون بالأيدي (س٦/ ٩٧).

(٢) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرج معناه البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) وابن أبي شيبة، والإسماعيلي وابن أبي حاتم ـ كما في فتح الباري (٨/ ٤٤٣) ـ وابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ.

(٣) ذكره الواحدي في الأسباب «ص٣٠٧».
وأخرجه ابن مردويه ـ كما في «فتح القدير» (٣/ ٤٤٢) و«فتح الباري» (٨/ ٤٤٣) عنه وإسناده ضعيف.
قلت: وأخرج البخاري (٨/ ٤٤٢ رقم ٤٧٤٢) في تفسير هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال: «ومن الناس من يعبد الله على حرف» قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونُتِجتَ =

﴿وَٱلْآخِرَةَ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد. وقرىء خاسراً بالنصب على الحال، والرفع على الفاعلية. ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصاً على خسرانه أو على أنه خبرُ محذوفٍ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إذ لا خُسرانَ مثلُه.

يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۖ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ﴾ يَعْبُد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن المقصد، مستعارٌ مِنْ ضلال مَنْ أبعد في التيه ضالاً.

(١٣) ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذابَ في الآخرة. ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الذي يُتوقع بعبادته وهو الشفاعةُ والتوسل بها إلى الله تعالى. واللامُ معلِّقة ليدعو من حيث إنه بمعنى يزعم، والزعم قول مع اعتقاد، أو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراءً له مُجرى يقول. أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضرارَه به، أو مستأنفةٌ على أنّ يدعو تكريرٌ للأول ومَنْ مبتدأٌ خبرُه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب[1].

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحّد الصالح وعقاب المشرك الطالح لا دافعَ له ولا مانع.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار، والمعنى: أن الله ناصرٌ رسولَه في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعُه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق، والضمير لمَنْ. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فَلْيستقصِ في إزالة غيظه أو جزعَه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المُبالغ جزعاً حتى يَمُدّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق، مِنْ قَطَع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نَفَسَه بحبس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عِنانها فيجتهدَ في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر لِيَقْطَع بكسر اللام. ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ فعلُه ذلك، وسماه على الأول كيداً لأنه منتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نَصْرِ الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدةِ غيظهم على المشركين.

= خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِدِ امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

(١) وإيراد صيغة التفضيل في «أقرب» مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حاله والإمعان في ذمه (س٦/٩٨).

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك الإنزال. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أنزلنا القرآن كلَّه. ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ ولأن الله يهدي به أو يُثبت على الهدى. ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايتَه أو إثباته، أنزله كذلك مبيناً.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكُومة بينهم وإظهارِ المُحِق منهم على المبطل، أو الجزاءِ فيجازي كلاً ما يليق به ويُدخله المحل المعدَّ له، وإنما أدخلت إنّ على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأتى عن تدبيره، أو يَدُل بِذِلَّته على عظَمة مدبره. ومَنْ يجوز أن يعمّ أولي العقل وغيرَهم على التغليب، فيكونُ قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعادِ ذلك منها. وقرىء والدوابُ بالتخفيف كراهةَ التضعيف أو الجمعِ بين الساكنين[1]. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عَطْف عليها إن جُوّز إعمالُ اللفظ الواحد في كل واحد من مفهوميه، وإسنادُه باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر، فإن تخصيصَ الكثير يدل على خصوص المعنى المسندِ إليهم. أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، يدل عليه خبرُ قسيمه نحوُ حقَّ له الثوابُ. أو فاعِلُ فعلٍ مضمَر، أي ويسجد له كثير من الناس سجودَ طاعة. ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بكفره وإبائه عن الطاعة، ويجوز أن يُجْعَل وكثيرٌ تكريراً للأول مبالغةً في تكثير المحقوقين بالعذاب وأنْ يُعْطَفَ به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرىء حُقَّ بالضم، وحَقّاً بإضمار فعله. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة، وقرىء بالفتح[2] بمعنى الإكرام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإكرام والإهانة.

(١٩) ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان، ولذلك قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ حملاً على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بهما المؤمنون والكافرون. ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقال اليهود: نحن أحقُّ بالله وأقدمُ منكم كتاباً ونبيُّنا قبل نبيكم، وقال

---

(١) والمراد بالرؤية في «ألم تر» العلم، وقد عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم (س٦/ ١٠٠).

(٢) أي بفتح الراء أي مُكْرَم.

المؤمنون: نحن أحقُّ بالله آمنا بمحمد ونبيِّكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيَّنا ثم كفرتم به حسداً، فنزلت[١]. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فَصْلٌ لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢]. ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم. وقرىء بالتخفيف. ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ نيران تحيط بهم إحاطةَ الثياب. ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم، أو خبر ثان. والحميمُ الماء الحارّ.

يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فَرْط حرارته في بطونهم تأثيرَه في ظاهرهم فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودُهم. والجملة حال من الحميم، أو من ضميرهم. وقرىء بالتشديد للتكثير[٣].

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ سياط منه يُجلَدون بها، جمع مِقْمعة، وحقيقتها ما يُقمع به أي يُكفّ بعنف.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ من النار. ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ من غمومها، بدلٌ من الهاء بإعادة الجار. ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي فخَرَجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيبُ النار فيرفعهم إلى أعلاها فيُضرَبون بالمقامع فيَهوُون فيها. ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النارِ البالغة في الإحراق.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ غيّر الأسلوب فيه وأسند الإدخالَ إلى الله تعالى وأكده بإنّ إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من حَلّيْتُ المرأةَ إذا ألبستُها الحُلَىٰ. وقرىء بالتخفيف، والمعنى واحد. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفة مفعولٍ محذوف، وأساور جَمْعُ أَسورة وهو جمع سِوَار. ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانٌ له. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف عليها لا على ذهب لأنه لم يُعهد السوارُ منه إلا أن يراد المرصعةُ به. ونَصَبَه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمارِ الناصب مثلُ ويُؤتَون، وروَىٰ حفص بهمزتين، وترك أبو بكر والسوسيُّ عن أبي عمرو الهمزةَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٣١٨) عن ابن عباس بدون إسناد وأخرجه ابن جرير (١٧/٩٩) عن ابن عباس من طريق عطية العوفي، وسنده ضعيف لضعف عطية.
ولكن أخرج البخاري (٣٩٦٥، ٤٧٤٤) أن الآية نزلت في مبارزة حمزة وعبيدة وعلي مع عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر.

(٢) الحج: «١٧».

(٣) وتأخير الجلود إما لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس (س٦/١٠١).

الأولى، وقرىء لُؤْلُوَاً بقلب الثانية واواً، ولُولِيَاً بقلبهما واوين ثم قلب الثانية ياء، ولِيلِيَاً بقلبهما ياءين، ولَوْلٍ كأَدْلٍ[1]. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غيّر أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابُهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[2] أو كلمة التوحيد. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه وهو الجنة أو الحُور، أو المستحق لذاته الحمدَ وهو الله سبحانه وتعالى وصراطُه الإسلام.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً واستقبالاً وإنما يريد به استمرارَ الصدّ منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حَسُنَ عطفُه على الماضي. وقيل هو حال من فاعل كفروا، وخبرُ إن محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على اسم الله. وأوَّلَهُ الحنفية بمكة، واستشهدوا بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ـ أي المقيم والطارىء ـ على عدم جواز بيع دُورها وإجارتها، وهو مع ضعفه مُعَارَض بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾[3] وشراءِ عمرَ رضي الله تعالى عنه دارَ السجن فيها من غير نكير[4]. وسواءٌ خبرٌ مقدَّم، والجملة مفعولٌ ثانٍ لجعلناه إن جُعل للناس حالاً من الهاء وإلا فحالٌ من المستكنّ فيه. ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحالُ، والعاكِفُ مرتفِع به، وقرىء العاكفِ بالجر على أنه بدل من الناس. ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مما تُرك مفعولُه ليتناول كل مُتَناوَلٍ، وقرىء بالفتح[5] من الورود. ﴿بِإِلْحَادٍۭ﴾ عدول عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلةٌ له أي مُلْحِداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام. ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جوابُ لمَنْ.

---

(١) أَدْلٍ جمع دَلْو.

(٢) الزمر: «٧٤».

(٣) الحشر: «٨».

(٤) نقل البيضاوي عن الحنفية غير محرر، فالفتوىٰ عند الحنفية خلاف ذلك، والمنقول عن أبي حنيفة بأنه لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها، وفي رواية عنه بأنه لا بأس ببيع أرضها، وكره أبو حنيفة إجارة البيوت في مكة أيام الموسم.
انظر تحرير هذه المسألة في روح المعاني (١٣٨/١٧).

(٥) أي بفتح الياء «يَرِدْ».

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مبَاءةً، وقيل اللام زائدة، ومكانَ ظرفٌ أي وإذ أنزلناه فيه. قيل: رُفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانَه بريح أرسلها فكَنَست ما حوله فبناه على أسّه القديم. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أَنْ مفسِّرةٌ لبوأنا من حيث إنه تضمن معنى تعبّدْنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدريةٌ موصولة بالنهي أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذارِ لمن يطوف به ويصلي فيه. ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقلٌ باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟. وقرىء يُشركْ بالياء، وقرأ نافع وحفص وهشام بَيْتِيَ بفتح الياء.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ نادِ فيهم. وقرىء وآذن. ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعِد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حُجّوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج[1]. وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أُمِرَ بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشاةً جمعُ راجل كقائم وقيام. وقرىء بضم الراء مخفف الجيم ومثقّله، ورَجالىٰ كعَجالى. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بُعْدُ السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفةٌ لضامر محمولة على معناه. وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان، أو استئناف فيكون الضمير للناس. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقرىء مَعِيق يقال بئر بعيدة العُمُق والمُعُق بمعنى.

(٢٨) ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليَحضروا. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ دينيةً ودنيوية، وتنكيرُها لأن المراد بها نوعٌ من المنافع مخصوصٌ بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحِها. وقيل كنّى بالذكْر عن النحر لأن ذبحَ المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشرُ ذي الحِجة، وقيل أيامُ النحر. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ علّق الفعل بالمرزوق وبيّنه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من لحومها، أَمَرَ بذلك إباحةً وإزاحة لما عليه أهلُ الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوَّع به دون الواجب. ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاج، والأمرُ فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥) ـ.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون من البرّ في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الرُّكن الذي به تمامُ التحلل فإنه قرينةُ قضاء التَّفَث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامرٍ وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أولُ بيت وضع للناس، أو المُعْتَق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدِمه فمنعه الله تعالى؟ وأما الحجاجُ فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُ محذوفٍ أي الأمر ذلك، وهو وأمثاله تَطلُّقٌ للفصل بين كلامين. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائرَ ما لا يَحِلّ هتكه، أو الحَرَم وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرّم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتعظيم خير له. ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلوَّ عليكم تحريمُه، وهو ما حَرُم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله، فلا تُخْرجوا منها غير ما حرمه الله كالبَحيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس، وهو غايةُ المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفيرِ عن عبادتها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأسُ الزور، كأنه لمّا حث على تعظيم الحُرُمات أتبعه ذلك رداً لِمَا كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حَكَمَ بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عَدَلت شهادةُ الزور الإشراك بالله تعالى» ثلاثاً، وتلا هذه الآية[1]. والزُّور من الزَّوَر وهو الانحراف كما أن الإفك من الأَفْك وهو الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤ رقم ٣٥٩٩) والترمذي (٤/ ٥٤٧ رقم ٢٣٠٠) وابن ماجه (٢/ ٧٩٤ رقم ٢٣٧٢) وأحمد (٤/ ٣٢١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٧/ ١٥٤) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٤٩ رقم ٤١٦٢) كلهم من طريق محمد بن عبيد عن سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك.
وسكت عليه أبو داود، وقال الترمذي: هذا عندي أصحُّ، وخريم بن فاتك له صحبه. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف ابن ماجه.
● وأخرجه الترمذي (٤/ ٥٤٧ رقم ٢٢٩٩) وأحمد (٤/ ٢٣٣، ٣٢٢) وابن جرير (١٠/ ج١٧/ ١٥٤).
كلهم من طريق مروان الفزاري، عن سفيان بن زياد العصفري عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم وفاتك بن فضالة مجهول الحال كما في التقريب (٢/ ١٠٧ رقم١).
وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ.
والخلاصة أن الحديث مرسل ضعيف.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه سقط من أَوْج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره. وقرأ نافع وحده فتَخَطَّفه بفتح الخاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوّح به في الضلالة. وأو للتخيير كما في قوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، أو للتنويع فإن من المشركين مَنْ لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بُعد، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى: ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكاً يشبه أحد الهلاكين.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ دين الله، أو فرائضَ الحج ومواضع نُسُكه، أو الهدايا لأنها من معالم الحج، وهو أوفق لظاهر ما بعده. وتعظيمُها أن تختارها حِسَاناً سِماناً غاليةَ الأثمان. روي أنه ﷺ أهدىٰ مائة بَدَنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَة[2] من ذهب[3]، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدىٰ نَجِيبة[4] طلبت منه بثلثمائة دينار[5]. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوىٰ القلوب، فحذفت هذه المضافات، والعائد إلى مَنْ، وذِكْرُ القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الآمرةُ بهما.

---

(١) البقرة: «١٩».

(٢) البُرة هي الحلقة التي تجعل في أنف الجمل.

(٣) ● أخرج البزار في الكشف (٢/ ١٩ رقم ١١٠٤) عن ابن عباس أن النبي ﷺ أهدى مائة بدنةٍ مقلَّدة مجلَّلة» وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٢٥) وقال «رواه البزار وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة لكنه مدلس» هـ.

● وأخرج أبو داود (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١ رقم ١٧٤٩) والحاكم (١/ ٤٦٧) وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٩١ رقم ١١١٤٧) و(١١/ ٩٢ رقم ١١١٤٨) وأحمد في المسند (١/ ٢٦١) كلهم من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل في رأسه بُرَةَ فِضَّة. قال ابن منهال: بُرَة من ذهب. زاد النفيلي، يغيظ بذلك المشركين».

قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وسكت أبو داود والمنذري على الحديث. وحسنه الألباني في صحيح أبو داود.

(٤) النجيبة مؤنث «فعيل» من نجب أي الفاضل من الإبل [النهاية (٥/ ١٧)].

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٦٥ رقم ١٧٥٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٣١) من حديث ابن عمر.

قال البخاري: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم. وقال الذهبي فيه جهالة، وقال الحافظ: مقبول. [الميزان (١/ ٤٢٦) والتقريب (١/ ١٢٥)].

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافعُ دَرِّها ونسلها وصوفِها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقتُ نحرِها منتهيةً إلى البيت أي ما يليه من الحرم. وثمّ تَحتمل التراخيَ في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافعُ دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافعُ دينية أعظمُ منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث الأنعام والضميرُ فيه لها، أو المرادُ على الأول لكم فيها منافعُ دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت ثم محِلها منتهيةً إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال، أو يكون فيها ثوابها وهو البيتُ المعمور أو الجنة، وعلى الثاني لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقتُ الخروج منها منتهيةً إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ متعبَّداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر[1] أي موضع نُسُك. ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نَسيكتَهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نَعَماً. ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أخلِصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتُهم.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبةً منه، لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من الكُلَف والمصائب. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. وقرىء والمقيمين الصلاة على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(٣٦) ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة كخُشُب وخَشَبَة، وأصله الضم وقد قرىء به[2]، وإنما سميت بها الإبل لعظَم بَدَنها، مأخوذة مِنْ بَدُنَ بَدَانةً. ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في إجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة»[3] تناوُلُ اسم البدنة لها شرعاً، بل الحديث

---

(١) أي بكسر السين في «مَنْسكاً».

(٢) أي وأصله ضم الدال، وقد قرىء بضم الدال «والبُدُن».

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٣٩ رقم ٢٨٠٩) عن جابر. وهو حديث صحيح.
● وأخرج مسلم (٢/ ٩٥٥ رقم ١٣١٨/٣٥١) ومالك في الموطأ (٢/ ٤٨٦ رقم ٩) والترمذي (٣/ ٢٤٨ رقم ٩٠٤) وأبو داود (٣/ ٢٣٩ رقم ٢٨٠٧) والنسائي (٧/ ٢٢٢ رقم ٤٣٩٣) والدارمي (٢/ ٧٨). =

يمنع ذلك، وانتصابُه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ﴾ ومَنْ رفعه جعله مبتدأ. ﴿مِن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافعُ دينية ودنيوية. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك. ﴿صَوَآفَّ﴾ قائماتٍ قد صَفَفْن أيديَهن وأرجلَهن. وقرىء صَوافِنَ من صَفَن الفرس إذا قام على ثلاثٍ وعلى طرفِ حافر الرابعة لأن البَدَنة تُعْقَل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرىء صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف، وصَوَافِيَ أي خوالصَ لوجه الله، وصَوَافِيْ بسكون الياء على لغة من يسكّن الياء مطلقاً كقولهم: أعطِ القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده وبما يُعطىٰ من غير مسألة ويؤيده قراءة القَنِعَ، أو السائل من قَنَعتُ إليه قُنُوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ والمعترض بالسؤال. وقرىء والمعتري، يقال عَرَهُ وعراه واعتره واعتراه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عِظَمها وقوتها حتى تأخذوها منقادة فتعقِلوها وتحبسوها صافّةً قوائمَها، ثم تطعنون في لَبَّاتِها[1]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ لن يُصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّق بها. ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهَراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له. وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القَرَابينَ لطّخوا الكعبة بدمائها قُربةً إلى الله تعالى، فَهَمّ به المسلمون، فنزلت[2]. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لتعرِفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيرُه فتُوحِّدوه بالكبرياء. وقيل هو التكبيرُ عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها. وما تحتمل المصدريةَ والخبرية، وعلى متعلقةٌ بتكبروا لتضمُّنه معنىٰ الشكر. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه.

(٣٨) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ غائلةَ المشركين. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يُدَافِعُ أي يبالغ في الدفع مبالغةَ مَنْ يُغَالب فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، كمَنْ يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

= عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهِلّينَ بالحج، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقرِ كلُ سبعةٍ منا في بَدَنةٍ.

(١) اللَّبَّةُ هي موضع النحر والجمع لَبَّاتٌ (مختار الصحاح مادة لبب).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه (فتح القدير ٣/٤٥٦).

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿أُذِنَ﴾ رُخِّص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ المشركين، والمأذون فيه محذوفٌ لدلالته عليه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتِلهم المشركون. ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يَتظلّمون إليه فيقول لهم: «اصبِروا فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر فأُنزلت[1]. وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نَيِّف[2] وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَعْدٌ لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم[3].

(٤٠) ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقوه به. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ على طريقة قول النابغة.

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[4]

وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل. وقرأ نافع دِفَاعُ، وقرأ نافع وابن كثير لَهُدِمَتْ بالتخفيف. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيَعٌ﴾ بِيَعُ النصارى. ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصلى فيها، وقيل أصلها صَلُوتا بالعبرانية فعُرِّبت. ﴿وَمَسَـٰجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١١٣ رقم ٢٩) «لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين قلت: هو منتزع من أحاديث. أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حبان قوله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي ﷺ في قتالهم بمكة. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك فلما خرج النبي ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...» وذكر الطبري أن الصحابة رضي الله عنهم استأذنوا رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسراً. فأنزل الله «إن الله لا يحب كل خوان كفور» فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال «أذن للذين يُقاتلون...» الآية هـ.

(٢) النيِّفُ معناه الزيادة، وهو من واحد إلى ثلاث، أما البضع فمن أربع إلى تسع، ولا يقال إلا بعد عِقْدٍ أي عشرة ونيف أو مائة ونيِّف أو ألف ونيف (المصباح المنير مادة نيف).

(٣) والإخبار بقدرته تعالىٰ على نصرهم وارد على سُنن الكبرياء، وتأكيدُه بإنّ وباللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين (س٦/١٠٨).

(٤) من الطويل.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

(٤١) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يَسْتَجْمِع ذلك غيرُهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وَعَدَه.

(٤٢) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوْحدي في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غيِّر فيه النظمُ وبُني الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ولم يكذبوه وإنما كذبه القِبْط، ولأن تكذيبه كان أشنعَ وآياتِه كانت أعظم وأشيع. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت[1] آجالُهم المقدّرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياةِ هلاكاً والعمارةِ خراباً.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم[2]. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلُها. ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانُها على سقوفها بأن تعطّل بنيانُها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها، فيكون الجارّ متعلقاً بخاوية، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مُطِلّة عليها بأن سقطت وبقِيَتْ الحيطان مائلة مشرفة عليها. والجملة معطوفة على «أهلكناها» لا على «وهي ظالمة» فإنها حالٌ والإهلاك ليس حالَ خُوائها، فلا محلَ لها إنْ نَصَبْتَ كأيٍّ بمقدر يفسره أهلكنا وإن رفعتَهُ بالابتداء فمحلها الرفع. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على قرية أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستقىٰ منها لهلاك أهلها. وقرىء بالتخفيف[3]، مِنْ أَعْطَله بمعنى عطّله. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى خاويةٌ على عروشها خاليةٌ مع بقاء عروشها. وقيل المراد ببئر بئرٌ في سفح جبل بحضرموت، وبقصرٍ قصرٌ مشرفٌ على قُلّته كانا لقوم حنظلةَ بنِ صفوانَ من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما[4].

---

(١) انصرمت أي انقضت.

(٢) أي بالتاء «أَهْلَكْتُها» والبصريان هما أبو عمرو ويعقوب.

(٣) أي بتخفيف الطاء «مُعْطَلَة».

(٤) وهو قول الضحاك، ولكن ظاهر التنكير يفيد عدم إرادة معيّنٍ منهما (روح المعاني ١٧/١٦٦).

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروْا مصارع المُهْلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما يجب أن يُعْقَل من التوحيد بما حَصَل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع من الوحي والتذكير بحال مَنْ شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار، وفي تعمى راجع إليه والظاهرُ أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار، أي ليس الخللُ في مشاعرهم وإنما أُتِيَت عقولُهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذِكْرُ الصدور للتأكيد ونفي التجوّز وفضلِ التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾[1] قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت[2] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3].

(٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ المتوعَّد به. ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الخُلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يُعَجِّل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنّيه حتى استقصر المُدَدَ الطوال، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكَمْ من أهل قرية، فَحُذِفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مُقامَه في الإعراب، ورُجِع للضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل. وإنما عَطَفَ الأولىٰ بالفاء وهذه بالواو لأن الأُولى بدلٌ من قوله «فكيف كان نكير» وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيانِ أنّ المتوعَّد به يَحيق بهم لا محالة وأن تأخيره لعادته تعالى. ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمهلتكم. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلَكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب. ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلىٰ حكمي مرجعُ الجميع.

(٤٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُوَضِّح لكم ما أُنذِركم به. والاقتصارُ على الإنذار ـ مع عموم الخطاب وذِكْرِ الفريقين ـ لأن صدر الكلام ومساقَه للمشركين، وإنما ذكرَ المؤمنين وثوابهم زيادةً في غيظهم.

(٥٠) ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما بَدَر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة. والكريمُ من كل نوع ما يَجْمَع فضائلَه.

---

(١) الإسراء: «٧٢».

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٧/١٦٨) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٧٧).

(٣) الحج: «٤٦».

وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقّين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، مِنْ عاجَزَه فأعجزه وعجَّزه إذا سابقه فسَبَقه، لأن كلاً من المتسابقيْن يطلب إعجاز الآخر عن اللُّحوق به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو مُعْجِزين على أنه حال مقدَّرة. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسمُ دَرَكَةٍ.

(٥٢) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ الرسولُ مَنْ بعثه الله بشريعة مجدِّدة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومَنْ بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبيُّ ﷺ علماء أمته بهم[١]، فالنبي أعمُّ من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً» قيل فكم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جماً غفيراً»[٢]. وقيل الرسول من جَمَعَ إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبيُّ غيرُ الرسول مَنْ لا كتاب له. وقيل الرسول مَنْ يأتيه الملك بالوحي، والنبي يقال له ولمن يوحىٰ إليه في المنام. ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ زَوَّر في نفسه ما يهواه. ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهِّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام «وإنه لَيُغَانُ على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[٣]. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يُزيحه. ﴿ثُمَّ

---

(١) يشير المؤلف إلى ما اشتهر «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».
قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (رقم ٧٠٢) «قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له. وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر...» هـ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٦٦) وإسحاق، من رواية معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: كم الأنبياء؟ فقال مثله.
وفيه معان بن رفاعة ضعيف [التقريب (٢/٢٥٨)] وعلي بن يزيد ضعيف، وأخرجه ابن حبان في الموارد (ص٥٢ ـ ٥٤ رقم ٩٤) و(ص٥٠٨ رقم ٢٠٧٩). من طريق إبراهيم بن هشام الغساني عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر فذكره في حديث طويل جداً.
وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور، ولم يصب في ذلك: فإنها طريقاً أخرجها في المستدرك (٢/٥٩٧) وغيره، من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله، يحيى السعدي ضعيف [المجروحين (٣/١٢٩)]. ولكن لا يأتي الحكم بالوضع مع هذه المتابعة ـ انظر «الكافي الشافي» (ص١١٣ ـ ١١٤ رقم ٣٠) ـ.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٥ رقم ٤١/٢٧٠٢) وأبو داود (٢/١٧٧ ـ ١٧٨ رقم ١٥١٥) من حديث الأغر المزني.
● ليغان: ـ قال أهل اللغة: الغين والغيم بمعنى واحد، والمراد هنا ما يتغشى القلب. قال القاضي: ـ قيل المراد العترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه. فإذا أفتر عنه أو غفل عُدَّ ذلك ذنباً، واستغفر منه (صحيح مسلم).

﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم يُثبت آياته الداعيةَ إلى الاستغراق في أمر الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم. قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يُقرِّبهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾[1] فأخذ يقرؤها، فلما بلغ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[2] وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانُه سهواً إلى أن قال: تلك الغرانيقُ العُلىٰ وإن شفاعتهنّ لتُرتجى، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لمَّا سجد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحققين[3]، وإن صح فابتلاءٌ يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه. وقيل تمنّىٰ قرأ كقوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وأُمنيّتُهُ قراءتُه. وإلقاءُ الشيطان فيها أن تكلمَ بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه مِنْ قراءة النبي ﷺ، وقد رُدَّ أيضاً بأنه يُخِلّ بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

(٥٣) ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علّةٌ لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن المُلْقىٰ أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الفريقين، فوَضَعَ الظاهرَ موضع ضميرهم قضاءً عليهم بالظلم. ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحقُّ النازلُ من عند الله، أو تمكينُ الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادتُه في الإنس من لدن آدم.

---

(١) النجم: «١».

(٢) النجم: «٢٠».

(٣) أخرج هذه القصة البزار (٣/ ٧٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٣ رقم ١٢٤٥٠) عن ابن عباس.
قال البزار: «لا نعلمه يروي بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور. وإنما يُعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس» هـ.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٥) ورجال البزار والطبراني رجال الصحيح. قلت: ـ القائل الشيخ حمدي السلفي ـ والضعف من التردد والشك بالإضافة إلى ما ذكره البزار.
وأفضل ما يرجع إليه في هذه القصة رسالة الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني بعنوان:
[نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق]. وانظر «روح المعاني» للألوسي (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤) «وفتح القدير» الشوكاني (٣/ ٤٦١) و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٢/ ٧٩) وما بعدها.

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيما أشكل. ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيحٌ يوصلهم إلى ما هو الحقُّ فيه.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته، يقولون ما بالُه ذكرها بخير ثم ارتد عنها؟ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة أو أشراطُها أو الموتُ. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يومِ حرب يُقْتَلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يُقْتَلون فيه فيَصِرْن كالعُقْم، أو لأن المقاتلين أبناءُ الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً فوُصف اليومُ بوصفها اتّساعاً، أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريحُ العقيم لِمَا لم تُنشىء مطراً ولم تلقّحْ شجراً، أو لأنه لا مِثْلَ له لقتال الملائكة فيه. أو يوم القيامة على أن المراد بالساعة غيرُه، أو على وضعه موضع ضميرها للتهويل.

(٥٦) ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ التنوينُ فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغايةُ، أي: يوم تزول مِزيتُهم. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة، والضميرُ يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

(٥٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وإدخالُ الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيهٌ على أن إثابة المؤمنين بالجنات تَفَضُّلٌ من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ عن أعمالهم فلذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب[1].

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الجنةَ ونعيمَها، وإنما سوّى بين من قُتل في الجهاد ومن مات حتفَ أنفِه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قُتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا؟ فنزلت. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مَعادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

---

(١) قوله «فأولئك» استعمل اسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم في الشر والفساد (س٦/ ١١٤).

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ الأمرُ ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الابتداءُ بالعقاب ـ الذي هو الجزاءُ ـ للازدواج أو لأنه سببُه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما نَدَب اللهُ إليه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1]، وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرتِه وتعالي شأنِه لما كان يعفو ويغفر فغيرُه بذلك أولى، وتنبيهٌ على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادرُ على ضده.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادرٌ على تغليب الأمور بعضها على بعض، جارٍ عادتُه على المداولة بين الأشياء المتعاندة، ومن ذلك إيلاجُ أحد المَلَوَيْنِ في الآخر بأن يزيد فيه ما يَنقُص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع قول المعاقِب والمعاقَب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يُهملهما.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصفُ بكمال القدرة والعلم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ في نفسه الواجبُ لذاته وحده، فإن وجوبَ وجودِه ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأً لكل ما يوجد سواه عالِماً بذاته وبما عداه، أو الثابتُ الإلهيةِ، ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرىء بالبناء للمفعول فتكون الواو لِما فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدومُ في حد ذاته، أو باطلُ الألوهية. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على الأشياء. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريكٌ لا شيءَ أعلىٰ منه شأناً وأكبر منه سلطاناً.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهامُ تقريرٍ، ولذلك رُفِعَ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطْفٌ على أَنْزَلَ، إذ لو نُصِبَ جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولِكَ: ألم تر أني جئتك فتكرمني، والمقصودُ إثباتُه[2]. وإنما عُدِل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد

---

(١) الشورى: «٤٣».

(٢) أتىٰ الفعل المضارع «فتُصبِحُ» مرفوعاً، ولم يأت منصوباً علىٰ أنه جواب للاستفهام، لأنه لو كان منصوباً لبطل الغرض، وذلك أن المراد إثبات الاخضرار، ولو كان منصوباً لأفاد نفي الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم ترَ أني أنعمت عليك فتشكر، فإن نصبت الفعل «فتشكر» فتكون قد نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وإن رفعته أثبت شكره.

زمان[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمُه أو لطفه إلى كل ما جَلّ ودقّ. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقاً ومُلكاً. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلها مذلّلةً لكم مُعدَّةً لمنافعكم. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ما أو على اسم أنّ، وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حالٌ منها أو خبر. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أن تقع أو كراهةَ، بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إلا بمشيته، وذلك يومَ القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها فإنها مساويةٌ لسائر الأجسام في الجسمية فتكونُ قابلةً للميل الهابطِ قَبولَ غيرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيأ لهم أسبابَ الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفعَ عنهم أنواع المضار.

(٦٦) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصرَ ونُطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلُكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لَجحودٌ لنعم الله مع ظهورها.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ متعبَّداً أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيداً. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسُكونه. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائرُ أرباب الملل. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النسائكِ لأنهم بين جُهّال وأهلِ عِناد، أو لأن أمر دينك أظهرُ من أن يقبل النِزاع، وقيل المرادُ نهيُ الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤديةِ إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالبَ الحق وهؤلاء أهلُ مِراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يُضارَّ بك زيد وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خُزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله. وقرىء فلا يَنْزِعُنّك على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه، على أنه من نازعتُه فنزعتُه إذا غلبته. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى تَوحيده وعبادته. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي.

= وعليه فقد ورد الفعل المضارع في الآية مرفوعاً «فتصبحُ» وكانت الفاء عاطفة وليست سببية، وكان الاستفهام للتقرير، والفعل «فتصبحُ» معطوف على الفعل «أنزلَ».

(١) أي أن الفعل «فتصبح» ورد بصيغة المضارع دون الماضي، فقال «فتصبح» ولم يقل فأصبحت للدلالة على بقاء أثر المطر واستمراره.
أو لاستحضار الصورة البديعة (الألوسي ١٧/ ١٩١).

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(٦٨) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحقُّ ولزمت الحُجة. ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيدٌ فيه رِفق.

(٦٩) ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما فصَلَ في الدنيا بالحُجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٧٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللوحُ كتبه فيه قبل حدوثه، فلا يُهمَّنك أمرُهم مع علمنا به وحفظِنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباتَه في اللوح المحفوظ، أو الحكمَ بينكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمَه مقتضى ذاتِه المتعلقُ بكل المعلومات على سواء.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن[1]. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الإنكارَ، لفَرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيلَ أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة، وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضعَ الضمير. أو ما يقصدونه[2] من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يَبْطِشون ويبطِشون بهم. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتِكم عليهم، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلَوْا عليكم. ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النارُ كأنه جوابُ سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. وقرىء بالنصب على الاختصاص، وبالجر بدلاً من شر، فتكونُ الجملةُ استئنافاً كما إذا رُفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

---

(١) وصيغة المضارع في «تتلى» للدلالة على الاستمرار التجددي (س٦/ ١٢٠).

(٢) قوله: أو ما يقصدونه عطف على قوله الإنكارَ، أي تعرف في وجوه الذين كفروا الإنكارَ أو ما يقصدونه من الشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بيّن لكم حالٌ مستغرَبة أو قصةٌ رائعة ولذلك سماها مثلاً، أو جُعل لله مثَلٌ أي مثل في استحقاق العبادة. ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ للمثَل أو لشأنه استماعَ تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنامَ. وقرأ يعقوبُ بالياء، وقرىء مبنياً للمفعول. والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ على الأولين. ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صِغره، لأن لنْ بما فيها من تأكيد النفي دالةٌ على منافاة ما بين المنفيِّ والمنفي عنه. والذباب من الذبّ لأنه يُذَب، وجمعُه أذِبّة وذِبّان. ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي للخلق، هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين؟! ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جهّلهم غايةَ التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدَر على المقدورات كلِّها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيلَ هي أعجزُ الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدِر على خلق أقلِّ الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوَى على مقاومة هذا الأقلِّ الأذل وتعجِز عن ذبِّه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل كانوا يطْلونها بالطيب والعسل ويُغلقون عليها الأبوابَ فيدخل الذباب من الكُوىٰ فيأكله. ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ عابدُ الصنم ومعبودُه، أو الذبابُ يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب، والصنمُ يطلُب الذبابُ منه السلَبَ، أو الصنمُ والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققتَ وجدتَ الصنمَ أضعفَ بدرجات.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرَفوه حقَّ معرفته حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلق المُمكِنات بأسرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلِبه شيءٌ، وآلهتُهم التي يعبُدونها عاجزةٌ عن أقلها مقهورةٌ من أذلها.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدعون سائرَهم إلى الحق ويبلّغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيتَه في الألوهية ونفىٰ أن يشاركه غيرُه في صفاتها بيّن أن له عباداً مُصطَفَيْنَ للرسالة يُتوسّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سِواه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والملائكةُ بناتُ الله تعالى، ونحوِ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلِّها.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عالم بواقعها ومُترقَّبها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإليه ترجع الأمورُ كلُّها لأنه مالكُها بالذات لا يُسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيرِه وهم يسألون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونهما أولَ الإسلام، أو صلُّوا، وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظمُ أركانها، أو اخضَعوا لله وخِرُّوا له سُجّداً. ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلةِ الأرحام ومكارمِ الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلَّها وأنتم راجون الفلاحَ غيرُ متيقنين له واثقين على أعمالكم، والآيةُ آيةُ سجدةٍ عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فُضّلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجُدْهما فلا يقرؤها»[1].

(٧٨) ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رجَعنا من الجهاد الأصغر إلى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٢١ رقم ١٤٠٢) والترمذي (٢/ ٤٧١ رقم ٥٧٨) وأحمد (٤/ ١٥١، ١٥٥) والدارقطني في السنن (١/ ٤٠٨) والطبراني في الكبير، (١٧/ ٣٠٧ رقم ٨٤٦، ٨٤٧) والحاكم (١/ ٢٢١) و(٢/ ٣٩٠) كلهم من رواية ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة، قال: قلت: يا رسول الله في سورة الحج سجدتان، قال: نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما.
قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي.
قلت: لعل سبب ضعفه عنده (ابن لهيعة) ومشرح، لكن الراوي عن ابن لهيعة عند أبي داود أحد المبادلة أما مشرح فهو مقبول.
وقد صحح الشيخ أبو الأشبال الحديث فقال: هو حديث صحيح فإن ابن لهيعة ومشرح بن هاعان ثقتان.
وصححه الحاكم باعتضاده بالآثار الصحيحة المروية عن: عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن عمر وابن مسعود، وأبي موسى وأبي الدرداء، وعمار رضي الله عنهم. وقد أخرج آثارهم الحاكم.
وللحديث شاهد مرفوع من حديث عمرو بن العاص. أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٠ رقم ١٤٠١) وابن ماجه (١/ ٣٣٥ رقم ١٠٥٧) كلاهما عن طريق الحارث بن سعيد العتقي عن عبدالله بن منين عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان.
والحارث بن سعيد مقبول [التقريب (١/ ١٤٠) لكنه يتقوى بحديث ابن لهيعة وآثار الصحابة المذكورين].
وقال الألباني في تخريج المشكاة (رقم: ١٠٢٩): «إسناده ضعيف، فيه عبد الله بن منين وفيه جهالة وقال في ضعيف الجامع (٤/ ٩٥): ضعيف. بينما مال الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٢١) إلى تصحيحه حيث قال في حديث ابن لهيعة: فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع وأكثر ما نقموا عليه تدليسه.
ثم أورد آثار الصحابة وقال: فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً. كما صحح الحديث الشيخ عبد القادر الأرنؤوط في تخريج «جامع الأصول» (٥/ ٥٥٥ رقم ٣٧٨٨). والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

الجهاد الأكبر»[١]. ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعُكس، وأُضيف الحقُّ إلى الجهاد مبالغةً كقولك: هو حقُّ عالمٍ، وأضيف الجهادُ إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعولٌ لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنُصرته، وفيه تنبيهٌ على المقتضي للجهاد والداعي إليه وفي قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أيْ ضِيق بتكليف ما يشتد القيامُ به عليكم إشارةٌ إلى أنه لا مانعَ لهم عنه ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شَقّ عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتُكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم»[٢]. وقيل: ذلك بأن جَعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتحَ عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفاراتِ في حقوقه، والأرُوشَ والدّياتِ في حقوق العباد ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منتصبةٌ على المصدر بفعل دل عليه مضمونُ ما قبلها بحذف المضاف أي: وسّع دينَكم توسعةَ ملةِ أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص. وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسولِ الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سببٌ لحياتهم الأبديةِ ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرة، أو لأن أكثرَ العرب كانوا من ذريته فغُلّبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل قرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ وفي القرآن. والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء اللهُ سمّاكم، أو لإبراهيم. وتسميتُهم بمسلمين في القرآن ـ وإن لم تكن منه ـ كانت بسبب تسميته من قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٣]. وقيل: وفي هذا تقديرُه: وفي هذا بيانُ تسميته إياكم مسلمين. ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة، متعلقٌ بسمّاكم. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم، فيدُل على قَبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعِصيان من عصى. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لِما خصكم بهذا الفضل والشرف. ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثِقوا به في مجامع أموركم ولا تطلُبوا الإعانةَ والنُّصرة إلا منه ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصُركم ومتولي أمورِكم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هُو، إذ لا مثلَ له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصيرَ سواه في الحقيقة. عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أُعطيَ من الأجر كحَجة حجها وعُمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي»[٤].

☆ ☆ ☆

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٤ رقم ٣٣): «كذا ذكره الثعلبي بغير سند».
وأخرجه البيهقي في «الزهد» (ص١٩٨ رقم ٣٧٤) عن جابر قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاه فقال: قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل وما الجهاد الأكبر.
قال: مجاهدة العبد هواه.
قال البيهقي: هذا إسناد ضعيف. وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥١١ رقم ١٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٢٥١ رقم ٧٢٨٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) البقرة: «١٢٨».

(٤) وهو حديث موضوع.
وقد تقدم الكلام على إسناده في آخر آل عمران.

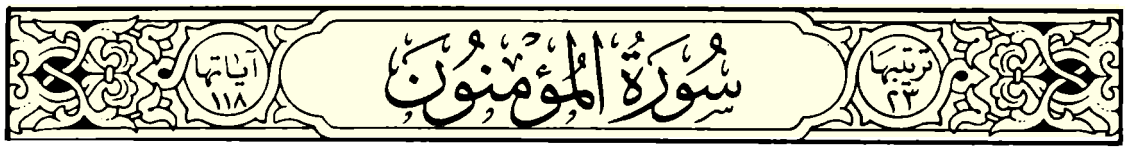

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

سورة المؤمنون مكيةٌ وهي مائةٌ وتسعَ عشرةَ آيةً عند البصريين وثماني عشرةَ عند الكوفيين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانيِّهم. وقد تُثبِت المتوقَّع ـ كما أنّ لمّا تَنفيه ـ وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تُقَرِّبُه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صُدّرت بها بِشارتُهم. وقرأ ورشٌ عن نافعٍ قَد أفْلَحَ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرىء أَفْلَحُوا على لغة «أكلوني البراغيثُ» أو على الإبهام والتفسير، وأَفْلَحُ بالضم اجتزاءً بالضمة عن الواو، وأُفْلِحَ على البناء للمفعول.

(٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذلِّلون له مُلزِمون أبصارَهم مساجدَهم. روي[1] أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصرَه إلى السماء، فلما نزلت رمىٰ ببصره نحوَ مسجدِه

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٨٣).
من حديث أبي هريرة بلفظ «كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: «الذين هم في صلاتهم خاشعون» فطأطأ رأسه.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لولا خلاف فيه على محمد ـ ابن سيرين ـ عنه مرسلاً.
وقال الذهبي: الصحيح مرسلاً وكذا قال البيهقي.
● والمرسل أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص٩٦ رقم ٤٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ ج١٨/ ٢).

وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعَت جوارحُه»[١].

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ عما لا يَعنيهم من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بِهُم من الجِدّ ما شغلهم عنه. وهو أبلغُ من الذين لا يلهُون من وجوه: جعلِ الجملة اسميةً، وبناءِ الحُكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه. وإقامةِ الإعراض مُقام التركِ لِيدُلَّ على بُعدهم عنه رأساً مباشرةً وتسبباً وميلاً وحضوراً؛ فإن أصله أن يكون في عُرْضٍ غيرِ عُرضه. وكذلك قوله:

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفهم بذلك بعد وصْفِهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغايةَ في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنّب عن المحرمات وسائرِ ما توجب المروءةُ اجتنابَه، والزكاةُ تقع على المعنىٰ والعَيْن، والمراد الأوّل لأن الفاعلَ فاعلُ الحدَث لا المحلِّ الذي هو موقعُه، أو الثاني على تقدير مضاف[٢].

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يبذُلونها.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ زوجاتُهم أو سَرِيّاتُهم. و«على» صلةٌ لحافظون من قولك احْفَظْ على عِنان فرسي، أو حالٌ أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري؛ أو بِفعْل[٣] دلّ عليه غير ملومين. وإنما قال (ما) إجراءً للمماليك مُجرى غيرِ العقلاء إذْ المِلكُ أصلٌ شائعٌ فيه، وإفرادُ ذلك بعد تعميم قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرةَ أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمُها خطراً. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناءُ أي فإنْ بذلوها لأزواجهم أو إمائِهم فإنهم غيرُ ملومين على ذلك.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يؤتمنون عليه ويعاهَدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رَٰعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها. وقرأ ابن كثير هنا وفي المعارج[٤] لأمانتهم على الإفراد، لأَمْنِ الإلْباس أو لأنها في الأصل مصدر.

= عن ابن سيرين، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة، نظر هكذا وهكذا، فلما نزلت «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون». نظر هكذا، وقال أبو شهاب: ببصره نحو الأرض.
قال الشيخ شعيب: رجاله ثقات، رجال الشيخين. أبو شهاب: اسمه عبدربه بن نافع الكناني الحناط. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٨٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٨٤ بسند ضعيف من حديث أبي هريرة.
وانظر «فيض القدير» (٥/ ٣١٩ رقم ٧٤٤٧) والإرواء (٢/ ٩٢ رقم ٣٧٣) وقال الألباني «فهو ـ أي الحديث ـ لا يصح لا مرفوعاً ولا موقوفاً، والمرفوع أشد ضعفاً، بل هو موضوع وكأنه لذلك لم يعرج عليه البيهقي فلم يورده في سننه الكبرى ـ على سعتها ـ وإنما أورده (٢/ ٢٨٩) موقوفاً معلقاً. والله سبحانه أعلم» هـ.

(٢) وتوسيط الحديث عن الإعراض عن اللغو بَيْن الحديث عن الصلاة والزكاة لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة (س٦/ ١٢٤).

(٣) قوله: أو بفعل عطف على قوله أو حال، أي أنّ «علىٰ» متعلقة بمحذوف وقع حالاً أي حافظوها أو متعلقة بفعل دلّ عليه «غير ملومين».

(٤) المعارج: «٣٢».

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها. ولفظُ الفعل فيه لِما في الصلاة من التجدّد والتكرر، ولذلك جَمَعَه غيرُ حمزةَ والكسائي. وليس ذلك تكريراً لِمَا وصفهم به أولاً، فإن الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها[1]. وفي تصدير الأوصاف وختمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها.

(١٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحِقاءُ بأن يُسمُّوا وُرَاثاً دون غيرهم.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرِثونه وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارةٌ لاستحقاقهم الفردوسَ من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعدِه مبالغةً فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلَهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أنّث الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من خُلاصة سُلّت من بين الكَدَر. ﴿مِّن طِينٍ﴾ متعلقٌ بمحذوف لأنه صفة لسلالة، أو مِن بيانية، أو بمعنى سلالة لأنها في معنى مسلولة فتكون ابتدائية كالأولى. والإنسانُ آدمُ عليه الصلاة والسلام خُلق من صفوة سُلّت من الطين، أو الجنسِ فإنهم خُلِقوا من سلالات جُعلت نُطَفاً بعد أدوار، وقيل المرادُ بالطين آدمُ لأنه خلق منه والسلالةُ نطفتُه.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ ثم جعلنا نسلَه، فحُذِف المضاف ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها. أو ثم جعلنا السُلالَة نطفةً، وتذكيرُ الضمير على تأويل الجوهرِ أو المسلولِ أو الماء. ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقرٌ حصينٍ، يعني الرّحِم وهو في الأصل صفةٌ للمستقر وُصف به المحلُّ للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاءَ علقةً حمراءَ. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيّرناها قطعةَ لحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ بأن صلّبناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ مما بقيَ من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها. واختلافُ العواطف لتفاوت الاستحالات، والجمعُ لاختلافها في الهيئة والصلابة. وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاءً باسم الجنس عن الجمع، وقرىء بإفراد أحدهما وجمعِ الآخر[2]. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وهو صورةُ البدن أو الروح أو

---

(١) والفصل بين الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها للإيذان بأن كلاً منهما فضيلة مستقلة بنفسها، ولو قُرِنَا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (س٦/ ١٢٥).

(٢) قراءة ابن عامر وأبي بكر على التوحيد، أي توحيد العظام، أي «فخلقنا المضغة عَظْماً فكَسَوْنا العظم لحماً». وقرىء بإفراد أحدهما وجمع الثاني، فقرىء «فخلقنا المضغة عَظْماً فكسونا العِظام» وقرىء «فخلقنا المضغة عِظَاماً

القُوى بنفخه فيه، أو المجموع. وثم لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصَب بيضةً فأفرخَتْ عنده لزمه ضمانُ البيضة لا الفرخ لأنه خلقٌ آخرُ. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنهُ في قدرته وحكمته[1]. ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المقدَّرين تقديراً، فحُذف المميِّز لدلالة الخالقين عليه.

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذُكر النعتُ الذي للثبوت دون اسم الفاعل، وقد قرىء به[2].

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للمحاسبة والمجازاة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سمواتٍ، لأنها طُورق بعضُها فوق بعض مطارقةَ النعل بالنعل وكل ما فوقه مثلُه فهو طريقُه؛ أو لأنها طرُق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرُها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوقِ الذي هو السمواتُ، أو عن جميع المخلوقات، ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مُهمِلين أمرَه بل نحفظها عن الزوال والاختلال، ونُدبّر أمرها حتى تبلُغ منتهى ما قُدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمةُ وتعلقت به المشيئة.

(١٨) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يكثُر نفعُه ويقِل ضررُه، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطُه. ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله. وفي تنكير (ذهاب) إيماءٌ إلى كثرة طُرقه ومبالغةٌ في الإيعاد به، ولذلك جُعل أبلغَ من قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[3].

(١٩) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بالماء. ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفهكون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ ومن الجنات ثمارِها وزروعِها. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً، أو تُرزقون وتحصّلون معايشَكم من قولهم: فلان يأكل من حِرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه الرُطَب والعنبُ والتمر والزبيب والعصيرُ والدِّبس وغيرُ ذلك وطعامٌ تأكلونه.

= فكسونا العَظْم لحماً».

(١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية؛ وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه تعالى (س٦/ ١٢٦).

(٢) أي قرىء باسم الفاعل «لَمَايِتُون».

(٣) الملك: «٣٠».

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جناتٍ. وقرئت بالرفع على الابتداء، أي ومما أنشأنا لكم به شجرةٌ ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ جبلِ موسى عليه الصلاة والسلام بين مصرَ وأَيلةَ وقيل بفلسطين، وقد يقال له طورُ سينين. ولا يخلو من أن يكون الطورُ للجبل وسِيناءُ اسمُ بقعة أضيف إليها، أو المركّبُ منهما علَمٌ له كامرىء القيس. ومنْعُ صرفِه للتعريف والعُجمةِ أو التأنيثِ على تأويل البقعة، لا للألف لأنه فِيعال كديماس من السناء ـ بالمدّ ـ وهو الرفعة أو بالقصر وهو النُّور، أو ملحق بفِعْلال كعِلباء من السِّين، إذْ لا فِعلاء بألف التأنيث. بخلاف سَيْناءَ على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب، فإنه فَيْعالٌ ككَيسانَ أو فَعلاءُ كصحراء، لا فَعْلالُ إذ ليس في كلامهم. وقرىء بالكسر والقصر[1]. ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحِباً له، ويجوز أن تكون الباءُ صلةً معدِّيةً لتنبُتُ كما في قولك: ذهبت بزيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوبُ في رواية تُنبِتُ، وهو إما من أَنْبَتَ بمعنى نَبَتَ كقول زهير:

رَأَيْتُ ذوي الحَاجَاتِ عِنْدَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ[2]

أو على تقدير تُنبت زيتونَها ملتبساً بالدهن. وقرىء على البناء للمفعول[3] وهو كالأول، وتُثمر بالدهن[4]، وتَخرج بالدهن، وتُخرج الدّهنَ، وتَنبت بالدهان. ﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ معطوفٌ على الدهن جارٍ على إعرابه عطفَ أحد وصفي الشيء على الآخر، أي تنبُت بالشيء الجامعِ بين كونه دُهنياً يُدهَن به ويُسْرَج منه وكونِه إداماً يُصبغ فيه الخبز ـ أي يُغمس فيه ـ للائتدام. وقرىء وصِباغ كدباغ في دِبْغ.

(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف، فإن اللبن يتكون منه، فمن للتبعيض أو للابتداء. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو بكر ويعقوبُ نَسقيكم بفتح النون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فإن منها ما يُحمل عليه كالإبل والبقر. وقيل المراد الإبلُ، لأنها هي المحمولُ عليها عندهم والمناسبُ للفُلك فإنها سفائنُ البرّ قال ذو الرمة[5].

---

(١) أي قرىء بكسر السين وبدون همزة «سِينا».

(٢) من الطويل.

(٣) قوله على البناء للمفعول أي (تُنبَتُ) بضم التاء وفتح الباء.

(٤) قوله وتثمر... معطوف على قوله وقرىء...
وقال الألوسي: (وما روؤا من قراءة عبدالله «تخرج الدهنَ» وقراءة أبيّ «تثمر بالدهن» محمول على التفسير على ما في البحر [أي البحر المحيط] لمخالفته سواد المصحف المجمع عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور) (روح المعاني ١٨/ ٢٢).

(٥) ذو الرَّمّة واسمه غَيلان بن عقبة أحد بني عَدِيّ بن عبدمَناة بن أَدّ. =

سَفِينَةُ بَرٍ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا[1]

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[2]. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر[3].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مَسوقٌ لبيان كُفران الناس ما عُدّد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ استئنافٌ لتعليل الأمر بالعبادة. وقرأ الكسائي «غيرِه» بالجرّ على اللفظ. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون أن يُزيل عنكم نِعَمه فيُهلِكَكم ويعذبَكم برفضكم عبادتَه إلى عبادة غيره وكفرانِكم نعمَه التي لا تُحصونها.

(٢٤) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ الأشراف. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لعوامهم ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أن يطلب الفضلَ عليكم ويسودَكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يرسل رسولاً ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون نوحاً عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفْيِ إلٰهٍ غيرِه، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفَرط عِنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولأجله يقول ذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ فاحتمِلوه وانتظروا. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يُفيق من جنونه.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ بعدما أَيِس من إيمانهم ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتُهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تُخطىء فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرنا وتعليمِنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾.

= [خزانة الأدب (١/ ١٠٦ ـ ١١٠)].

(١) من الطويل.

(٢) البقرة: «٢٢٨».

(٣) وفي الجمع بينها وبين الفُلك في إيقاع الحمل عليها مبالغةٌ في تحملها للحمل. وهو الداعي إلى تأخير ذِكْر هذه المنفعة ـ مع كونها من المنافع الحاصلة منها ـ عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها (س٦/ ١٢٩).

روي[١] أنه قيل لنوح إذا فار الماءُ من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماءُ منه أخبرته امرأتُه فركب. ومحلُّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي بابَ كِندةَ، وقيل عينُ وردةَ من الشام وفيه وجوه أُخَرُ ذكرتُها في هود[٢] ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فادخل فيها، يقال سلك فيه وسلك غيرَه، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[٣]. ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل أمتي الذكرَ والأنثى واحدَين مزدوجين. وقرأ حفص من كلٌّ بالتنوين، أي من كل نوع زوجين، واثنين تأكيدٌ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وأهلَ بيتك، أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القولُ من الله تعالى بإهلاكه لكفره. وإنما جيء بعلى لأن السابق ضارٌّ، كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[٤]. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومَن هذا شأنُه لا يُشفع له ولا يُشفَّع فيه، كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

(٢٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرىء مَنزلاً بمعنى إنزالاً أو موضعَ إنزال. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ثناءٌ مطابق لدعائه، أَمَرَهُ بأن يَشْفَعَه به مبالغةً فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرده بالأمر ـ والمعلَّقُ به أن يستويَ هو ومن معه ـ إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحةً عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فُعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ يَستدل بها ويعتبر أُولو الاستبصار والاعتبار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادَنا بهذه الآياتِ. وإنْ هي المخففة، واللامُ هي الفارقة.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح. وإنما جُعل القول موضعَ الإرسال ليدل على أنه

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٨/٢٦) بدون راوٍ ولا سند.
(٢) هود: «٤٠».
(٣) المدثر: «٤٢».
(٤) الأنبياء: «١٠١».
(٥) الأنعام: «٤٥».

لم يأتهم من مكان غيرِ مكانهم، وإنما أوحيَ إليه وهو بين أظهُرهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تفسيرٌ لأرسلنا، أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لعله ذُكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح وحيث استؤنف به فعلى تقدير سؤال ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصِفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة، وما خبريةٌ، والعائد إلى الثاني منصوبٌ محذوف أو مجرورٌ حُذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ حيث أذللتم أنفسكم، وإذاً جزاءٌ للشرط وجواب للذين قَاوَلُوهُمْ من قومه.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ مجردةً عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، وأنكم تكريرٌ للأول أُكّد به لمّا طال الفصل بينه وبين خبره. أو أنكم لمخرجون مبتدأٌ خبرُه الظرفُ المقدم، أو فاعلٌ للفعل المقدر جواباً للشرط والجملةُ خبرُ الأول؛ أي: أنكم إخراجُكم إذا متم؛ أو أنكم إذا مِتّم وقع؛ لأن اسمَه جُثّة.

(٣٦) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أو بَعُدما توعدون، واللام للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] كأنهم لما صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل فما له هذا الاستبعادُ؟ قالوا لما توعدون. وقيل هيهات بمعنى البُعد، وهو مبتدأ خبرُه لما توعدون. وقرىء بالفتح منوناً للتنكير، وبالضم منوناً على أنه جمعُ هَيْهة وغيرَ منون تشبيهاً بِقَبْلُ، وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاءً[2].

(٣٧) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصلُه إنِ الحياةُ إلا حياتُنا الدنيا فأُقيم الضميرُ مُقامَ الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعيُّنها مغنٍ عن التصريح بها، كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

ومعناه لا حياةَ إلا هذه الحياةُ لأن إنْ نافيةٌ دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالةِ على الجنس

---

(١) يوسف: «٢٣».

(٢) قراءات (هيهاتَ) هي: هَيْهاتاً، هيهاتٌ، هَيْهاتْ، هَيْهاتِ، هَيْهاتِ، هَيْهاهْ.

فكانت مثْلَ لا التي تنفي ما بعدها نفيَ الجنس. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضُنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من إرساله له وفيما يعِدُنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليلٍ، وما صلةٌ لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على التكذيب إذا عاينوا العَذاب.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ جبريلُ صاح عليهم صيحةً هائلة تصدّعت منها قلوبهم فماتوا، واستُدل به على أن القومَ قومُ صالح. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالوجه الثابتِ الذي لا دافعَ له، أو بالعدل من الله كقولك فلانٌ يقضي بالحق، أو بالوعد الصِّدقِ. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بغُثاء السيل وهو حَميلُه كقول العرب «سال به الوادي» لمَنْ هلك. ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَحتمل الإخبار والدعاء. وبُعداً مصدرُ بُعد إذا هلك، وهو من المصادر التي تُنصب بأفعال لا يستعمل إظهارُها. واللامُ لبيان من دُعِيَ عليه بالبعد. ووضعُ الظاهر موضعَ ضميرهم للتعليل.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ هي قومُ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرهم.

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الوقتَ الذي حُدّ لهلاكها، ومن مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الأجلَ.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ متواترين واحداً بعد واحد، من الوِتر وهو الفرد، والياءُ بدلٌ من الواو كتولج وتيقور، والألفُ للتأنيث لأن الرسلَ جماعة. وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتنوين على أنه مصدرٌ بمعنى المُواتَرة وقع حالاً، وأماله حمزةُ وابن عامر والكسائي[1]. ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ إضافةُ الرسول مع الإرسال إلى المرسِل ومع المجيء إلى المرسَل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأُ الأمر منه والمجيءَ الذي هو منتهاه إليهم[2] ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم نُبقِ منهم

---

(١) كتبت كلمة (تترا) بالألف المقصورة، والرسم القرآني هو بالألف الممدودة، أما الرسم القرآني بالألف المقصورة فهي على قراءة من قرأ بها منونة، والله أعلم.

(٢) يريد من هذه العبارة أن إضافة الرسول إلى الأمة، ثم إضافة الإرسال إلى المُرْسِل وهو الله تعالى «أرسلنا» وإضافة المجيء إلى المرسَل إليهم وهم الأمة «كلما جاء أمةً رسولُها». =

إلا حكاياتٍ يُسمَر بها، وهو اسمُ جمعٍ للحديث، أو جمعُ أُحدوثة وهي ما يُتحدّث به تلهّياً ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع[1] ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجةٍ واضحة ملزمةٍ للخصم. ويجوز أن يراد به العصا، وإفرادُها لأنها أولُ المعجزات وأمُّها؛ تعلقتْ بها معجزات شتّى؛ كانقلابها حيةً وتلقُّفِها ما أفكتْه السحرة وانفلاقِ البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وحراستها ومصيرها شمعةً وشجرةً خضراءَ مثمرةً ورِشاءً ودلواً، وأن يراد به المعجزاتُ وبالآيات الحججُ، وأن يراد بهما المعجزاتُ فإنها آياتٌ للنبوة وحجةٌ بينةٌ على ما يدعيه النبي ﷺ.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على الإيمان والمتابعة ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين.

(٤٧) ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنّى البشرَ لأنه يطلق للواحد كقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2] كما يطلق للجمع كقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾[3] ولم يُثنِّ المِثْلَ لأنه في حكم المصدر، وهذه القِصصُ كما ترى تشهد بأن قُصارى شُبَه المنكرين للنبوة قياسُ حالِ الأنبياء على أحوالهم لِما بينهم من المماثلة في الحقيقة، وفسادُه يظهر للمستبصر بأدنى تأمل، فإن النفوسَ البشرية وإن تشاركت في أصل القُوى والإدراك لكنها متباينةُ الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب النقصان أغبياءَ لا يعود عليهم الفِكر برادّةٍ، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغنياءُ عن التفكر والتعلم في أكثر الأشياء وأغلبِ الأحوال فيدركون ما لا يدرك غيرُهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمُهم، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[4]. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ خادمون منقادون كالعباد.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلْزَم.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عَودُ الضمير إلى فرعون وقومِه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

= لأن الإرسال منه تعالىٰ بداية فأضيف إليه، والمجيءَ منتهىٰ الإرسال فأضيف إليهم.

(١) الآيات التسع هي: العصا، اليد، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، نقص الثمرات، الطاعون، فلق البحر. قال الشوكاني: (ولا يصح عدّ فلق البحر منها هنا، لأن المراد الآياتُ التي كذبوا بها واستكبروا عنها) (فتح القدير ٣/ ٤٨٥).

(٢) مريم: «١٧».

(٣) مريم: «٢٦».

(٤) الكهف: «١١٠».

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مَسيس، فالآيةُ أمرٌ واحد مضافٌ إليهما. أو جعلنا ابنَ مريمَ آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزاتٌ أُخَرُ، وأمَّه آيةً بأن وَلدت من غير مسيس، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها[1]. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أرض بيتِ المقدس فإنها مرتفعة، أو دمشقَ أو رَمْلةَ فلسطين، أو مصر[2] فإن قُراها على الرُّبا. وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء، وقرىء رُباوة بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرٌ من الأرض منبسطة. وقيل ذاتِ ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماءٍ معينٍ ظاهر جارٍ، فعيل من مَعَن الماءُ إذا جرى وأصله الإبعادُ في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفّاع، أو مفعول مِنْ عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مُدرَك بالعيون. وُصِف ماؤها بذلك لأنه الجامعُ لأسباب التنزّه وطِيب المكان.

(٥١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ نداءٌ وخطابٌ لجميع الأنبياء، لا على أنهم خُوطبوا بذلك دفعةً لأنهم أُرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ويكون ابتداءَ كلام تنبيهاً على أن تهيئةَ أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرعٌ قديم، واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكايةٌ لما ذكر لعيسى وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رُزقا. وقيل النداءُ له ولفظُ الجمع للتعظيم، والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلالُ الصافي القِوامُ، فالحلالُ ما لا يُعصى اللهُ فيه، والصافي ما لا يُنسىٰ الله فيه، والقِوامُ ما يُمسِك النفسَ ويحفظ العقل ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فإنه المقصودُ منكم والنافعُ عند ربكم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ولأن هذه والمعلَّلُ به فاتقون، أو واعلموا أن هذه، وقيل أنه معطوف على ما تعملون. وقرأ ابن عامر بالتخفيف، والكوفيون بالكسر على الاستئناف ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مِلّتكم ملةً واحدة أي متحدةً في الاعتقاد وأصولِ الشرائع، أو جماعتُكم جماعةً واحدة متفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة، ونصبُ أمةً على الحال ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفةِ الكلمة.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمرَ دينهم جعلوه أدياناً مختلفة، أو فتفرقوا وتحزبوا، وأمرَهم منصوبٌ بنَزْع الخافض أو التمييز، والضميرُ لما دل عليه الأمةُ من أربابها أوْلها. ﴿زُبُرًا﴾ قِطعاً جمع

---

(١) ذكره مقدماً عليه السلام على أمه لأصالته فيما ذكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالىٰ: «وجعلناها وابنها آية للعالمين» ـ الأنبياء: «٩١» ـ لأصالتها فيما نسبه إليها من الإحصان والنفخ (س٦/ ١٣٧).

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري في «جامع البيان» (١٠/ ج١٨/ ٢٥ ـ ٢٧) ثم قال مرجحاً: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرَّملة، لأن الرملة لا ماء بها معين. والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين» هـ.

زَبور الذي بمعنى الفِرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زُبْرة، وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثان لتقطعوا فإنه متضمّنٌ معنى جعل. وقيل كتباً من زَبَرتُ الكتاب، فيكون مفعولاً ثانياً، أو حالاً من أمْرَهم على تقدير مثلِ كَتب. وقرىء بتخفيف الباء كرُسْل في رسُل ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعجَبون معتقِدون أنهم على الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم، شبّهها بالماء الذي يغمُر القامةَ لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها. وقرىء في غمراتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يُقتلوا أو يموتوا.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً، ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لما وليس خبراً له، فإنه غيرُ معاتَب عليه، وإنما المعاتَبُ عليه اعتقادُهم أن ذلك خيرٌ لهم، خَبَرُهُ.

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والراجعُ محذوفٌ والمعنى: أيحسبون أن الذي نُمدُّهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرُهم وإكرامُهم. ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فِطنةَ لهم ولا شعورَ ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمدادَ استدراجٌ لا مسارعةٌ في الخير. وقرىء يَمُدهم على الغَيبة وكذلك يُسارع ويُسرع، ويحتمل أن يكون فيهما ضميرُ المُمَدِّ به، ويسارَع مبنياً للمفعول.

(٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ من خوف عذابه. ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذِرون.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبةِ والمُنزّلة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولِها.

(٥٩) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شِرْكاً جلياً ولا خفياً[1].

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ يُعطون ما أعطَوه من الصدقات. وقرىء يأتون ما أَتَوْا، أي يفعلون ما فعلوا من الطاعاتِ[2] ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ أنْ لا يُقبل منهم وأن لا يقعَ على الوجه اللائقِ فيؤاخَذَ به. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأن مرجِعَهم إليه، أو مِن أن مرجِعَهم إليه، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

(٦١) ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودةِ على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾[3]

---

(١) التعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك (س٦/ ١٤٠).

(٢) تكرير الموصول «الذين» للإيذان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (س٦/ ١٤٠).

(٣) آل عمران: «١٤٨».

فيكون إثباتاً لهم ما نُفيَ عن أضدادهم[١] ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لأجلها فاعلون السبْقَ أو سابقون الناسَ إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[٢].

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدْرَ طاقتها، يريد به التحريضَ على ما وَصَف به الصالحين وتسهيلَه على النفوس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يريد به اللوحَ، أو صحيفة الأعمال. ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب أو نُقصانِ ثواب.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرةٍ لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِن الذي وُصف به هؤلاء، أو من كتاب الحفظة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ متجاوزةٌ لما وُصفوا به أو متخطيةٌ عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ معتادون فعلها.

(٦٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعِّميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر، أو الجوعَ حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سِنينَ كسني يوسُف»[٣]. فقُحطوا حتى أكلوا الجيَفَ والكلابَ والعظامَ المُحرَقَة. ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ فاجَؤوا الصُّراخِ بالاستغاثة، وهو جوابُ الشرط، والجملةُ مبتدأٌ بعد حتى، ويجوز أن يكون الجوابُ:

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا تجأروا اليوم[٤]. ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي، أي لا تجأروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تُمنعون منّا، أو لا يلحقكم نصر ومعونةٌ من جهتنا.

---

(١) أسند سبحانه المسارعة إليهم ولم يقل نسارع لهم كسابقه، حيث غيّر الأسلوب وذلك للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.
وإيثار كلمة (في) على كلمة «على» فقال «في الخيرات» وذلك للإيذان بأنهم متقلبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها بطريق المسارعة كالآية «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» (س٦/ ١٤٠).

(٢) المؤمنون: «٦٣».

(٣) الحديث مركب من حدثين.
الشطر الأول إلى قوله: (كسني يوسف) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٠ رقم ٨٠٤) و(٢/ ٤٩٢ رقم ١٠٠٦) ومسلم (١/ ٤٦٧ رقم ٢٩٤) من حديث أبي هريرة.
وبنحو الشطر الثاني أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٣ رقم ١٠٠٧) و(٨/ ٣٦٣ رقم ٤٦٩٣).
و(٨/ ٥١١ رقم ٤٧٧٤) و(٨/ ٥٤٧ رقم ٤٨٠٩) و(٨/ ٥٧٣ رقم ٤٨٢١ و٤٨٢٢ و٤٨٢٣ و٤٨٢٤) ومسلم (٤/ ٢١٥٦ رقم ٣٩). من حديث ابن مسعود.
وانظر «الكافي الشاف» (ص١١٥ رقم ٤١).

(٤) تخصيص اليوم بالذكر لتهويله، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار (س٦/ ١٤٢).

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقِها والعملِ بها، والنكوصُ الرجوعُ قَهقرىٰ.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ الضمير للبيت، وشهوةُ استكبارهم وافتخارِهم بأنهم قِوامُه أغنت عن سبق ذكره، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي، والباء متعلقة بمستكبرين لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله ﴿سَٰمِرًا﴾ أي تسمُرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدرٌ جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرىء سمَراً جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهَجْر ـ بالفتح ـ إما بمعنى القطيعة أو الهذيان، أي تُعرِضون عن القرآن أو تَهذون في شأنه، أو الهُجْر ـ بالضم ـ أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءةُ نافع تُهْجِرون من أهجرَ وقرىء تُهجِّرون على المبالغة.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآنَ ليعلموا أنه الحقُّ من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيلَ وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسلِه وأطاعوه.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدقِ وحسنِ الخلق وكمالِ العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دعواه لأحدِ هذه الوجوه إذ لا وجهَ له غيرُها، فإن إنكارَ الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعُه بحسب النوعِ أو الشخص، أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحَهم عقلاً وأدقَّهم نظراً ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتِهم وأهواءَهم فلذلك أنكروه. وإنما قُيِّد الحكمُ بالأكثر لأنه كان منهم مَن تَرَكَ الإيمانَ استنكافاً من توبيخ قومِه، أو لقلة فطنتِه وعدم فِكرتِه، لا كراهةً للحق.

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهةٌ شتّى. ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]. وقيل لو اتبع الحقُّ أهواءَهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالَم فلم يبقَ، أو لو اتبع الحقُّ الذي جاء به محمد ﷺ أهواءَهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فرْط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءَهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدِرْ أن يُمسك السمواتِ والأرضَ،

(١) الأنبياء: «٢٢».

وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذِكرُهم، أي وعظُهم أو صيتُهم، أو الذكرِ الذي تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] وقرىء بذكراهم[2]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ قيل إنه قسيمُ قوله «أم به جنة» ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ رزقُه في الدنيا، أو ثوابُه في العُقبىٰ. ﴿خَيْرٌ﴾ لسَعته ودوامِه ففيه مندوحةٌ لك عن عطائهم. والخَرْج بإزاء الدخْل، يقال لكل ما تُخرِجه إلى غيرك، والخَراجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغَ، ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه. وقرأ ابن عامر خرْجاً فخَرْجُ، وحمزة والكسائي خَراجاً فخراجُ للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجِه تعالى.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقولُ السليمةُ على استقامته لا عِوَجَ فيه يوجب اتهامَهم له. واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحُجةَ وأزاح العِلّة في هذه الآياتِ، بأن حصَر أقسامَ ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبيّن انتفاءَها ما عدا كراهةَ الحق وقلةَ الفِطنة.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون عنه، فإن خوفَ الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوكِ طريقه.

(٧٥) ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني القَحط. ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ لثبتوا، واللَّجاج التمادي في الشيء. ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوةِ الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى. روي أنهم قُحطوا حتى أكلوا العِلْهِزَ[3]، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشُدك اللهَ والرحِمَ ألستَ تزعُم أنك بُعثت رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى» فقال: قتلتَ الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع، فنزلت[4].

---

(١) الصافات: «١٦٨».

(٢) وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة «أتيناهم» بعد إسناده إلى ضميره ـ ﷺ ـ تنويه لشأن النبي ـ عليه السلام ـ وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل (س٦/ ١٤٥).

(٣) العلهز هو شيء يتخذونه في سنيّ المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه.
وقيل: شيء ينبت ببلاد بني سُليم له أصل كأصل البردى (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٩٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٨١) من طريق علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس في سياق حديث إسلام ثمامة بن أثال، فيه «فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال بلى، قال فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فأنزل الله «ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون» [المؤمنون: «٧٦»].

وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يومَ بدر ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عُتُوّهم واستكبارِهم. واستكان استفْعل من الكون لأن المفتقرَ انتقل من كون إلى كون، أو افتعل من السكون أُشبعت فتحتُه. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وليس من عادتهم التضرعُ، وهو استشهادٌ على ما قبله.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوعَ فإنه أشدُّ من القتل والأسر، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيِّرون آيِسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

(٧٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُحِسّوا بها ما نُصب من الآيات ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكُرونها شكراً قليلاً لأن العُمدة في شكرها استعمالُها فيما خلقت لأجله، والإذعانُ لمانِحِها من غير إشراك، وما صلةٌ للتأكيد.

(٧٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

(٨٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ ويختص به تعاقبُهما لا يقدِر عليه غيرُه، فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقةً، أو لأمره وقضائِه تعاقُبهما، أو انتقاصُ أحدهما وازديادُ الآخَر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل، أن الكل منا وأن قدرتَنا تعمّ المُمْكِنات كلَّها وأن البعثَ من جملتها. وقرىء بالياء على أن الخِطابَ السابقَ لتغليب المؤمنين.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ أي كفارُ مكةَ. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومَنْ دان بدينهم.

(٨٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً، ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخُلقوا.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبُهم التي كتبوها، جمعُ أُسطورة لأنه يستعمل فيما يتلى به كالأعاجيب والأضاحيك. وقيل جمعُ أسطارٍ جمعُ سطر.

(٨٤) ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانةً بهم وتقريراً لفرْط جهالتِهم حتى جهلوا مثلَ هذا الجليِّ الواضحِ إلزاماً بما لا يمكن لمن له مُسْكةٌ من العلم إنكارُه، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال:

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريحَ قد اضطرَّهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقُها. ﴿قُلْ﴾

أي بعد ما قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قادرٌ على إيجادها ثانياً، فإن بدءَ الخلق ليس أهونَ من إعادته. وقرىء تتذكرون على الأصل.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظمُ من ذلك.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظُ السؤال ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابَه فلا تُشركوا به بعضَ مخلوقاته ولا تُنكروا قدرتَه على بعض مقدوراته.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُلكُه غايةَ ما يمكن، وقيل خزائنُه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُغيث من يشاء ويحرُسه. ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يُغاث أحدٌ ولا يُمنع منه، وتعديتُه بعلى لتضمين معنى النُّصرة. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فمِن أين تُخدعون فتُصْرَفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهُرِ الأدلة!.

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعدِ بالنشور. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك.

(٩١) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدُّسه عن مماثلة أحد. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾ يساهمه في الألوهية. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ جوابُ مُحاجّتِهم وجزاء شرطٍ حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهةٌ كما تقولون لذهب كلٌّ منهم بما خلقه واستبدّ به وامتاز مُلكُه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم التحاربُ والتغالبُ كما هو حالُ ملوكِ الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوتُ كل شيء، واللازمُ باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممْكِنات إلى واجب واحد. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

(٩٢) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقد جرّه ابنُ كثير وابنُ عامر وأبو عمرٍو ويعقوبُ وحفصٌ على الصفة، وهو دليلٌ آخرُ على نفْي الشريكِ بناءً على توافقهم في أنه المنفردُ بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

(٩٣) ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ إن كان لابد من أن تُرِيَني، لأن ما والنون للتأكيد. ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قريناً لهم في العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شُؤم الظَّلَمة قد يَحيق بمَنْ وراءهم كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ

خَآصَّةً﴾[١]. عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيَّه ـ عليه السلام ـ أن له في أمته نِقْمةً ولم يُطْلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاءِ. وتكريرُ النداء وتصديرُ كل واحد من الشرط والجزاءِ به فضلُ تضرّعٍ وجُؤار.

وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ لكنا نؤخره علماً بأن بعضَهم أو بعضَ أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، ولعله ردٌّ لإنكارهم الموعودَ واستعجالِهم له استهزاءً به. وقيل قد أراه، وهو قتلُ بدر أو فتحُ مكةَ.

(٩٦) ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفحُ عنها والإحسانُ في مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدِّ إلى وهَن في الدين. وقيل هي كلمةُ التوحيد والسيئةُ الشرك. وقيل هو الأمرُ بالمعروف والسيئةُ المنكر، وهو أبلغُ من ادفع بالحسنة السيئةَ لِما فيه من التنصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالِك، وأقدرُ على جزائهم فوكِّلْ إلينا أمرَهم.

(٩٧) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وساوسِهم، وأصلُ الهمْز النّخْسُ ومنه مِهمازُ الرائض[٢]، شَبّه حثهم الناسَ على المعاصي بهمز الراضَةِ للدواب على المشي، والجمعُ للمرّات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضافِ إليه.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيصُ حال الصلاة وقراءةِ القرآن وحلولِ الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يُخَافَ عليه[٣].

(٩٩) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ متعلقٌ بيصفون، وما بينهما اعتراضٌ لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يُزِلّه عن الحِلْم ويُغريَه على الانتقام، أو بقوله إنهم لكاذبون. ﴿قَالَ﴾ تحسّراً على ما فرّط فيه من الإيمان والطاعةِ لَمّا اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ رُدّوني إلى الدنيا. والواو لتعظيم المخاطَب، وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قِفا وأطرِقا.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركتُه، أي لعلي آتي الإيمانَ وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا عاين المؤمنُ الملائكة قالوا أنُرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب

---

(١) الأنفال: «٢٥».

(٢) مهماز الرائض: حديدة تربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب.

(٣) وإعادة الفعل «أعوذ» مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء (س٦/ ١٥٠).

ارجعون»[١] . ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ مَن طلب الرجعة واستبعادٌ لها. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلخ، والكلمةُ الطائفةُ من الكلام المنتظمُ بعضُها مع بعض. ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لتسلُّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أمامهم، والضميرُ للجماعة. ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناطٌ كلٌ عن الرجوع إلى الدنيا لِمَا عُلم أنه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوعُ فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، والقراءةُ بفتح الواو وبه وبكسر الصاد يؤيد أن الصُّور أيضاً جمع الصورة[٢] . ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحَيْرة واستيلاء الدهشة بحيث يفِر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٣] لأنه عند النفخة وذلك بعد المحاسبة أو دخولِ أهل الجنة الجنةَ والنارِ النارَ.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موزوناتُ عقائِده وأعماله، أي فمن كانت له عقائدُ وأعمالٌ صالحةٌ يكون لها وزنٌ عند الله تعالى وقدْرٌ. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزنٌ، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٤] . ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ غَبنوها حيث ضيعوا زمانَ استكمالِها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من الصلة، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرِقها، واللفْحُ كالنفح إلا أنه أشدُّ تأثيراً[٥] . ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكُلوحُ تقلصُ الشفتين عن الأسنان. وقرىء كَلِحُون.

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم ألم تكن. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيبٌ وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذابَ لأجله.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ج١٨/ ٥٢) عن ابن جريج مرسلاً. وفيه «سنيد» ضعيف.

(٢) أي أن المعنىٰ يكون: فإذا نفخ في الأجساد أرواحها، وهو معنىٰ قراءة من قرأ «في الصُّوَر» و«في الصُّوَر»، فإن المذكور في هاتين القراءتين جمع صورة لا بمعنىٰ القَرْن قطعاً، والأصل توافق معاني القراءات.
ولا تنافي بين النفخ في الصُّور بمعنىٰ القرن ـ الذي جاء في الأخبار ودلت عليه آيات أخر ـ وبين النفخ في الصُّوَر جمع صورة، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك. انظر روح المعاني (١٨/ ٦٤).

(٣) الطور: «٢٥».

(٤) الكهف: «١٠٥».

(٥) وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل (س٦/ ١٥١).

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ مَلَكَتْنا بحيث صارت أحوالُنا مؤديةً إلى سوء العاقبة. وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنا ـ بالفتح ـ كالسَّعادة، وقرىء بالكسر كالكِتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

(١٠٨) ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكُتوا سكوتَ هوانٍ في النار فإنها ليست مقامَ سؤال، مِنْ خسأتُ الكلبَ إذا زجرته فَخَسِيءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب أو لا تكلمون رأساً. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ربنا أَبْصَرنا وسمعنا، فيُجابون: حق القولُ مني، فيقولون ألفاً: ربنا أمتّنا اثنتين، فيُجابون: ذلكم بأنه دُعيَ اللهُ وحده كفرتم، فيقولون ألفاً: «يا مالكُ ليقضِ علينا ربك»[1] فيجابون: إنكم ماكثون، فيقولون ألفاً: ربنا أخرنا إلى أجل قريب، فيجابون: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل، فيقولون ألفاً: ربنا أخرجنا نعملْ صالحاً، فيجابون: أو لم نعمِّركم، فيقولون ألفاً: رب ارجعون، فيجابون: اخسؤوا فيها، ثم لا يكون لهم فيها إلا زفيرٌ وشهيقٌ وعُواء[2].

(١٠٩) ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح أي لأنه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ يعني المؤمنين، وقيل الصحابةُ، وقيل أهلُ الصُّفّة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هُزُواً. وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائي هنا وفي صٓ بالضم[3]، وهما مصدرُ سَخِر زيدت فيهما ياءُ النَّسَب للمبالغة، وعند الكوفيين المكسورُ بمعنى الهُزْء، والمضمومُ من السُّخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ من فرْط تشاغُلِكم بالاستهزاء بهم، فلَمْ تخافوني في أوليائي. ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم.

(١١١) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فوزُهم بمجامع مُراداتِهم مخصوصين به، وهو ثاني مفعولي جزيتُهم. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر استئنافاً[4].

(١١٢) ﴿قَالَ﴾ أي اللهُ، أو الملَك المأمورُ بسؤالهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي على الأمر[5]

---

(١) الزخرف: «٧٧».
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥) وصححه الذهبي بنحوه.
(٣) سورة صٓ «٦٣» أي بضم السين «سُخْرِيّاً».
(٤) أي بكسر الهمزة في «أنّهم».
(٥) أي «قُلْ كم لبثتم».

للملَك أو لبعض رؤساء أهل النار. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ لِكَم.

قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لُبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيامَ سرورهم وأيامُ السرور قِصارٌ، أو لأنها مُنقضيةٌ والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ الذين يتمكنون من عدّ أيامها إن أردتَ تحقيقها فإنا لِما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكةَ الذين يعُدّون أعمارَ الناس ويُحصون أعمالَهم. وقرىء العادِين ـ بالتخفيف ـ أي الظَلَمة فإنهم يقولون ما نقول، والعاديين أن القدماءَ المعمرين فإنهم أيضاً يَستقْصِرون.

(١١٤) ﴿قَـٰلَ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي قُلْ. ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في مقالهم.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم. وعبثاً حالٌ بمعنى عابثين، أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لتتعبّدكم ونُجازِيَكم على أعمالكم، وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على أنما خلقناكم أو عبثاً. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوبُ بفتح التاء وكسر الجيم.

(١١٦) ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يَحِق له المُلكُ مطلقاً، فإن مَن عداه مملوكٌ بالذات مالِكٌ بالعَرَض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ الذي يُحيط بالأجرام ويَنزِل منه مُحكماتُ الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرىء بالرفع على أنه صفةُ الرب.

(١١٧) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبده إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ أخرى لإلهاً لازمةٌ له فإن الباطل لا برهانَ به، جيء بها للتأكيد وبناءِ الحُكم عليه تنبيهاً على أن التدينَ بما لا دليلَ عليه ممنوعٌ فضلاً عما دل الدليلُ على خلافه، أو اعتراضٌ بين الشرط والجزاءِ لذلك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مُجازٍ له مقدارَ ما يستحقه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ إن الشأنَ، وقرىء بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابُه عدمُ الفلاح. بدأ السورةَ بتقرير فلاح المؤمنين وخَتَمَها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحِمَه فقال:

(١١٨) ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنين بشّرتْه الملائكة بالروْح والريحان وما تقَرُّ به عينُه عند نزول ملك

الموت»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشرُ آيات، مَن أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر»[٢]. ورُوي «أن أولها وآخرَها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آياتٍ من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام على إسناده في آخر سورة آل عمران.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٦ رقم ٧١٧٣) والنسائي (٨/ ٨٣ ـ تحفة الأشراف) من حديث عمر.
وقال النسائي: «هذا حديث منكر. لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه... والله أعلم» هـ.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢) وقال: صحيح الإسناد.
وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبدالرزاق عن شيخه ذا فقال: أظنه لا شيء.
قال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨٥): يونس بن سليم: مجهول.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١١٦ رقم ٤٥): «لم أجده».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

سورة النور مدنية[1] وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورةٌ، أو فيما أوحينا إليك سورةٌ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفتُها، ومَنْ نصبها جعله مفسِّراً لناصبها فلا يكون له محلٌّ إلا إذا قُدّر اتْلُ أو دونك أو نحوُه. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها، أو المفروضِ عليهم، أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة[2] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم. وقرىء بتخفيف الذال[3].

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أي فيما فرضنا أو أنزلنا حكمُهما وهو الجلْد، ويجوز أن يُرفعا بالابتداء والخبرُ ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاءُ لتضمُّنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي. وقرىء بالنصب على

---

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء.
أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله.
انظر «الدر المنثور» (٦/ ١٢٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣).

(٢) وتكرير أنزلنا لإبراز كمال العناية بشأنها (س٦/ ١٥٥).

(٣) من عادة البيضاوي الإشارة للقراءات غير المتواترة بلفظ قرىء، إلا أنه هنا أشار بلفظ قرىء لمن قرأ بتخفيف الذال وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة وعلي وخلف وحفص. انظر تفسير النسفي (٣/ ١٣٠).

إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسنُ من نصب سورة لأجل الأمر، والزانِ بلا ياء[١]، وإنما قَدّم الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرّضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجَلْدُ ضرب الجِلْد، وهو حكمٌ يُخصّ بمن ليس بمحصَن لِما دل على أن حدّ المحصَن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريبَ الحرِّ سنةً لقوله عليه الصلاة والسلام «البِكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام»[٢]، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدُهما الآخرَ نسخاً مقبولاً أو مردوداً. وله في العبد ثلاثةُ أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابةِ في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلامَ أيضاً وهو مردودٌ برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين[٣]، ولا يعارضه: «من أشرك بالله فليس بمُحصَن»[٤] إذ المرادُ بالمحصَن الذي يُقتصّ له من المسلم. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامةِ حدِّه فتُعطّلوه تُسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو سرقت فاطمةُ بنتُ محمد لقطعت يدها»[٥]. وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة[٦]، وقرئت بالمد على فَعالة. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهادَ في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهييج. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادةً في التنكيل فإن التفضيحَ قد ينكِّل أكثرَ مما ينكّل التعذيب. والطائفةُ فِرقةٌ يمكن أن تكون حافّةً حول شيء، من الطوف، وأقلُّها ثلاثة وقيل واحداً واثنان، والمراد جمع يحصُل به التشهير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالبُ أن المائلَ إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافِحةَ لا يرغب فيها الصُلَحاء، فإن المشاكلة علةٌ للألفة والتضامّ والمخالفةَ سببٌ للنفرة والافتراق. وكان حقُّ المقابلة أن يقال والزانية لا تنكِح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكنّ المرادَ بيانُ أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضَعَفة المهاجرين لمَا همّوا أن يتزوجوا بغايا يَكْرين أنفسَهن لِيُنفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية[٧] ولذلك قدم الزاني. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه تشبّهٌ بالفساق وتعرّضٌ للتهمة وتسبُّبٌ لسوء القالة والطعْنِ في النسب وغيرِ ذلك من المفاسد، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل النفيُ بمعنى النهي، وقد قرىء به. والحُرمةُ على ظاهرها، والحكمُ مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه أو منسوخٌ بقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[٨] فإنه يتناول المسافحاتِ، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أولُه

---

(١) قوله: والزانِ بلا ياء معطوف على قوله وقرىء بالنصب، أي وقرىء والزانِ بلا ياء.
(٢) لم أجده.
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩) من حديث ابن عمر.
(٤) لم أجده.
(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٣ رقم ٣٤٧٥) و(٧/ ٨٧ رقم ٣٧٣٣) و(١٢/ ٨٧ رقم ٦٧٨٨) ومسلم (٣/ ١٣١٥ رقم ٨ ـ ١١) وأبو داود (٤/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨ رقم ٤٣٧٣) والترمذي (٤/ ٣٧ ـ ٣٨) والنسائي (٨/ ٧٢ ـ ٧٥ رقم ٤٨٩٤ ـ ٤٩٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٦) أي بفتح همزة رأفة أي رَأَفَةٌ، وقرئت رَآفة.
(٧) أخرجه ابن جرير (١٠/ ج١٨/ ٧١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بإسناد صحيح.
(٨) النور: «٣٢».

سِفاحٌ وآخِرُه نكاحٌ والحرامُ لا يحرم الحلال»[1]، وقيل المرادُ بالنكاح الوطءُ فيؤول إلى نهي الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانيةِ أن يزنيَ بها إلا زانٍ وهو فاسد.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ يقذِفونهن بالزنا، لوَصْفِ المقذوفات بالإحصان وذِكْرهن عَقيبَ الزواني واعتبارِ أربعة شهداءَ بقوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ والقذفُ بغيره مثلُ يا فاسق ويا شاربَ الخمر يوجب التعزيرَ كقذف غيرِ المحصَن، والإحصانُ ههنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى. وتخصيصُ المحصَنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذفَ النساء أغلبُ وأشنع. ولا يشترط اجتماعُ الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادةُ زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربُه أخفُّ من ضرب الزنا لضعف سببه واحتمالِه، ولذلك نَقص عددُه. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾ أيَّ شهادة كانت لأنه مُفترٍ. وقيل شهادتَهم في القذف، ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجَلد خلافاً لأبي حنيفة، فإن الأمر بالجلد والنهيَ عن القَبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيبَ بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحالُه قبل الجلد أسوأُ مما بعده ﴿أَبَدًا﴾ ما لم يتُب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المحكومُ بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن القذف. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالَهم بالتدارُك، ومنه الاستسلامُ للحد أو الاستحلالُ من المقذوف. والاستثناءُ راجعٌ إلى أصل الحكم وهو اقتضاءُ الشرط لهذه الأمورِ؛ ولا يلزَمه سقوطُ الحد به كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلامَ له أو الاستحلال؛ ومحلُّ المستثنى النصبُ على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحلُّه الجرُّ على البدل مِنْ هم في لهم، وقيل إلى

---

(١) إن الحديث يتألف من حدثين:
(الأول): (أوله سفاح وأخره نكاح) موقوف على ابن عباس.
(والثاني): (الحرام لا يحرم الحلال) مرفوع من حديث عائشة.
● أما حديث ابن عباس الموقوف: فقد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٠٢). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٢٤٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٥). والدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩١).
● أما حديث عائشة المرفوع: فقد أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩٠) وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) وعزاه للطبراني في الأوسط. وقال: فيه عثمان بن عبدالرحمٰن الزهري وهو متروك.
● ولحديث عائشة شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٤٩ رقم ٢٠١٥) والدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٦٨ رقم ٨٩).
قال البوصري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٠ رقم ٧٢٢) «هذا إسناد ضعيف، لضعف عبدالله بن عمر العمري...» هـ.
والخلاصة أن حديث عائشة ضعيف والله أعلم.

الأخيرة[١] ومحلُّه النصبُ لأنه من موجَب، وقيل منقطِعٌ متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بنِ أُميةَ رأى رجلاً على فراشه[٢]. وأنفسُهم بدل من شهداءُ أو صفةٌ لهم على أنّ إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ فالواجبُ شهادةُ أحدهم أو فعليهم شهادةُ أحدهم وأربعَ نُصب على المصدر، وقد رفعه حمزةُ والكسائي وحفصٌ على أنه خبرُ شهادة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بشهاداتٍ لأنها أقرب، وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحُذف الجارُّ وكُسرت إنّ وعُلّق العامل عنه باللام تأكيداً.

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ والشهادةُ الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي. هذا لِعانُ الرجل، وحُكمُه: سقوطُ حدِّ القذف عنه، وحصولُ الفُرقة بينهما بنفسه فرقةَ فسخٍ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[٣]. وتفريقُ الحاكم فُرقةُ طلاقٍ عندَ أبي حنيفةَ، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه، وثبوتُ حد الزنا على المرأة لقوله:

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي الحد. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك، ورفعُ الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبرُ، أو بالعطف على أن تشهد، ونصبَها حفصٌ عطفاً على أربعَ. وقرأ نافع ويعقوبُ أنْ لَعْنةُ اللهِ وأنْ غَضِبَ اللهُ بتخفيف النون فيهما وكسرِ الضاد وفتحِ الباء من غضب ورفعِ الهاء من اسم الله[٤]، والباقون بتشديد النون فيهما ونصبِ التاء وفتح الضاد وجرِ الهاء[٥].

---

(١) قوله: وقيل إلى النهي... وقيل إلى الأخيرة. معطوف على قوله، والاستثناء راجع إلى الحكم...

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩ رقم ٤٧٤٧) والبغوي في شرح السنة (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٧٦) وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٥١) إسناده جيد. وله شواهد من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٥) وفي سنده عياض الفهري لين الحديث كما في التقريب (٢/ ٩٦). ومن حديث علي وابن مسعود أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٧).

(٤) ذكر البيضاوي أن قراءة نافع ويعقوب واحدة، لكن ذكر ابن مهران في كتابه المبسوط في القراءات العشر ص٢٦٦ أن يعقوب قد قرأ «أنْ لَعْنَتُ اللهِ» و«أنْ غَضَبُ اللهِ» فهي بنصب الضاد والله أعلم.

(٥) وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقْعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى (س٦/ ١٥٩).

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروكُ الجواب للتعظيم، أي لَفَضَحكم وعاجلكم بالعقوبة.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الأَفْك وهو الصَّرْف لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمرادُ ما أُفك به على عائشةَ رضي الله تعالى عنها، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذّن ليلةً في القُفول بالرحيل، فمشتْ لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ مِن جَزْع ظُفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه، فظَن الذي كان يُرحِّلُها أنها دخلت الهودج فرحّله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمةَ أحداً فجلست كي يرجعَ إليها مُنشد، وكان صفوانُ بنُ المعطّل السُّلَميُّ رضي الله تعالى عنه قد عرّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركِبَتْها فقادها حتى أتيا الجيشَ، فاتُّهمت به. ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعةٌ منكم، وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبدَالله بنَ أُبيّ وزيدَ بنَ رفاعة وحسانَ بنَ ثابت ومِسْطَحَ بنَ أَثاثةَ وحَمْنَةَ بنتَ جحش ومن ساعدهم، وهي خبر إنّ، وقولُه ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مستأنفٌ، والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم، والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثوابَ العظيمَ، وظهورِ كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشْرةَ آيةً في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناءِ على من ظن بكم خيراً ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لكلٍ جزاءُ ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ مُعظمَه. وقرأ يعقوبُ بالضم[1]، وهو لغة فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين، وهو ابنُ أبيّ فإنه بدأ به وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ، أو هو وحسانُ ومِسْطح فإنهما شايعاه بالتصريح به. والذي بمعنى الذين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. أو في الدنيا بأن جُلدوا، وصار ابنُ أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسانُ أعمى أشلَّ اليدين، ومِسْطحُ مكفوفَ البصر.

(١٢) ﴿لَّوْلَآ﴾ هلّا، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. وإنما عُدل فيه من الخطاب إلى الغَيبة مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين والكفَّ عن الطعن فيهم وذبَّ الطاعنين عنهم كما يذبّونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصلُ بين لولا وفِعْلِه بالظرف لأنه منزّلٌ منزلتَه من حيث إنه لا ينفك عنه، وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكرَ الظرف أهمُّ فإن التحضيضَ على أن لا يُخِلّوا بأوّله. ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقنُ المطّلع على الحال.

---

(١) أي بضم الكاف (كُبْرَهُ).

(٢) الحجرات: «١١».

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً، فإن ما لا حجةَ عليه كذِبٌ عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضلُ الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة ورحمتُه في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقر دونه اللومُ والجَلْد.

(١٥) ﴿إِذْ﴾ ظرف لمسّكم أو أفضتم. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال تلقَّىٰ القولَ كتلقّفه وتلقنه. وقرىء تَتَلَقَّوْنَه على الأصل، وتَلْقَونه من لقِيَه إذا لقِفه، وتِلْقَوْنه بكسر حرف المضارعة، وتُلْقُونَه من إلقائه بعضهم على بعض، وتَلِقُونَهُ وتَأْلُقُونَهُ من الأَلَق والإلْقِ وهو الكذب، وتَثْقَفونه من ثِقفْتُه إذا طلبتُه فوجدته، وتَقْفُونه أي تتبعونه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[1] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعةَ له. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزْر واستجرارِ العذاب. فهذه ثلاثةُ آثام مترتبة عُلّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقّي الإفك بألسنتهم، والتحدثُ به من غير تحقق، واستصغارُهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارةُ إلى القول المخصوصِ وأن تكون إلى نوعه، فإنّ قذفَ آحادِ الناس محرمٌ شرعاً فضلاً عن تعرض الصدّيقة ابنةِ الصديق حُرمةِ رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجّب من ذلك الإفكِ أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يُذكر عند كل متعجَّب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعُب عليه مثلُه، ثم كثُر فاستعمل لكل متعجّب. أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حُرمةُ نبيه فاجرةً، فإن فجورها يُنفّر عنه ويُخِلّ بمقصود الزواج بخلاف كفرها، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارةَ الذنوب وعِظَمَها باعتبار متعلَّقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهةَ أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياءً مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهييجٌ وتقريع.

---

(١) آل عمران: «١٦٧».

وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ الدالةَ على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها[1]. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكَشْحنة[2] على نبيه ولا يقرِّره عليها.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر. ﴿ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهرُ، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنّة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عِظَم الجريمة، ولذا عُطف قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمتِه عليهم، وحُذف الجواب وهو مستغنًى عنه بذكره مرة[3].

(٢١) ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ بإشاعة الفاحشة. وقرىء بفتح الطاء، وقرأ نافع والبزي وأبو عمرٍو وأبو بكر وحمزةُ بسكونها ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بيان لعلة النهي عن اتباعه، والفحشاءُ ما أفرط قبحُه، والمنكر ما أنكره الشرع[4]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرعِ الحدود المكفرةِ لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهُر من دنسها. ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخرَ الدهر ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولِها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلِفْ، افتعالٌ من الأَلِيّة، أو ولا يُقصّر من الأُلُوّ. ويؤيد الأول أنه قرىء ولا يَتألَّ، وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا يُنفق على مِسْطح بعْدُ وكان ابنَ خالته وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وفيه

---

(١) إظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (س٦/ ١٦٣).

(٢) الكشحنة هي إضمار العداوة.

(٣) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة (س٦/ ١٦٤).

(٤) قال: «ومَنْ يتبع خطوات الشيطان» ولم يقل ومن يتبعها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (س٦/ ١٦٤).

دليلٌ على فضل أبي بكر وشرفِه رضي الله تعالى عنه ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على أنِ لا يؤتوا، أو في أن يؤتوا. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مُقامَها فيكون أبلغَ في تعليل المقصود ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عما فرَط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحِكم وإحسانِكم إلى مَنْ أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلّقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: بلى أُحب، ورَجَع إلى مِسطح نفقتَه[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائفَ. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عما قُذفن به ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله وبرسوله، استباحةً لعِرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أُبَيّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَم ذنوبهم، وقيل هو حكمُ كلِّ قاذفٍ ما لم يتُب، وقيل مخصوصٌ بمن قذف أزواجَ النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيداتِ القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشةَ رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾[2] ظرفٌ لِما فيهم من معنى الاستقرار، لا للعذاب لأنه موصوف. وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيدُ تهويل للعذاب.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءَهم المستحَقَّ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الثابتُ بذاته الظاهرُ ألوهيتُه لا يشاركه في ذلك غيرُه، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البيِّنِ أي العادلُ الظاهرُ عدلُه، ومن كان هذا شأنَه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ أي الخبائثُ يتزوجن الخِباثَ وبالعكس، وكذلك أهلُ الطيِّب فيكون كالدليل على قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني أهلَ بيت النبي ﷺ، أو الرسولَ وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجتَه

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٧٢ رقم ٢٦٦١) و(٧/ ٤٣٤ رقم ٤١٤١) و(٨/ ٤٤٥ رقم ٤٧٥٠) و(١١/ ٥٦٤ رقم ٦٦٧٩) ومسلم (٤/ ٢١٣٦ رقم ٥٦). كلاهما في سياق حديث الإفك الطويل. من حديث عائشة.

(٢) وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٦/ ١٦٦).

عليه الصلاة والسلام ولم يُقرَّز عليها، وقيل الخبيثاتُ والطيبات من الأقوال، والإشارة إلى الطيبين، والضمير في يقولون للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم، أو للخبيثين والخبيثات أي مبرؤون من أن يقولوا مثلَ قولهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برّأ الله أربعةً بأربعة: برأ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجَر الذي ذهب بثوبه، ومريمَ بإنطاق ولدها، وعائشةَ رضي الله تعالى عنها بهذه الآياتِ الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصِب الرسول ﷺ وإعلاءِ منزلته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي لا تسكُنونها، فإن الآجِرَ والمُعير أيضاً لا يدخُلان إلا بإذن. ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيءَ إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلِمٌ للحال مستكشفٌ أنه هل يُراد دخولُه أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش فإن المستأذن مستوحِشٌ خائفٌ أن لا يُؤذَن له، فإذا له أذن استأنس، أو تتعرفوا هل ثَمَ إنسانٌ من الإنس ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أأدخُل؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليمُ أن يقول السلامُ عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أُذن له دخل وإلا رجع»[1]. ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي الاستئذانُ أو التسليمُ خيرٌ لكم من أن تدخُلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية، كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غيرَ بيته قال: حُيّيتم صباحاً أو حُييتم مساءً ودخل، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لِحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أأستأذن عليها كلما دخلْتُ، قال: «أتحب أن تراها عُرْيانة»، قال: لا، قال: «فاستأذِنْ»[2]. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أُنزِل عليكم أو قيل لكم هذا إرادةَ أن تذكُروا وتعمَلوا بما هو أصلُح لكم.

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ حتى يأتيَ مَنْ يأذن لكم، فإن

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. نعم أخرج البخاري (١١/ ٢٧ رقم ٦٢٤٥) ومسلم (٣/ ١٦٩٤ ـ ١٦٩٧ رقم ٣٣ ـ ٣٧) في سياق قصة أبي موسى مع عمر رضي الله عنهم. من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٦٣ رقم١) وأبو داود في المراسيل (ص٣٣٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١١١ ـ ١١٢) من حديث عطاء بن يسار مرسلاً.
قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٦/ ٢٢٩): «... وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه...» هـ. وقال الشيخ شعيب في تخريج «المراسيل» رجاله ثقات رجال الشيخين» هـ.

المانعَ من الدخول ليس الاطلاعَ على العورات فقط، بل وعلى ما يُخفيه الناسُ عادة مع أن التصرفَ في مِلك الغير بغير إذنه محظور، واستُثنى ما إذا عرَض فيه حَرْقٌ أو غرَقٌ أو كان فيه منكرٌ ونحوُها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا تُلِحّوا. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرجوعُ أطهرُ لكم عما لا يخلو الإلحاحُ والوقوفُ على الباب عنه من الكراهة وتركِ المروءة، أو أنفعُ لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرِّبُط[1] والحوانيت والخانات والخانقات[2] ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَّكُمْ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواءِ الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناءٌ من الحكم السابق لشموله المسكونةَ وغيرَها. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلُّع على عورات.

(٣٠) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي ما يكون نحوَ محرّم. ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم، ولمّا كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغضِّ أطلقه، وقيّد الغضَّ بخرف التبعيض. وقيل حفظُ الفروج ههنا خاصّة سَترها. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أنفعُ لهم أو أطهرُ لما فيه من البعد عن الرِيبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالةُ أبصارهم واستعمالُ سائرِ حواسِّهم وتحريكُ جوارحهم وما يقصِدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظُرن إلى ما لا يحِلّ لهن النظرُ إليه من الرجال ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديمُ الغضّ لأن النظر بريدُ الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُلِيّ والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تُبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سَترها حرجاً، وقيل المرادُ بالزينة مواضعُها على حذف المضاف، أو ما يعُمّ المحاسنَ الخَلْقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجهُ والكفانِ لأنها ليست بعورة،

---

(١) الرُّبُط هي ما يبنىٰ للفقراء.

(٢) لعل المراد بها الأماكن الخيرية أو الحمامات.

والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرّة عورةٌ لا يحل لغير الزوج، والمحرّمُ النظرُ إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتَحَمُّلِ الشهادة. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سَتراً لأعناقهن. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عمرٍو وهشامٌ بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرّره لبيان من يحل له الإبداءُ ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتى الفرج بكُرْهٍ. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجِهن إلى مداخلتهم وقلةِ توقع الفتنة من قِبَلهم لِما في الطباع من النفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المِهنة والخِدمة، وإنما لم يُذكر الأعمامُ والأخوالُ لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يتستّرن عنهم حذراً أن يصِفوهن لأبنائهم ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المؤمناتِ فإن الكافراتِ لا يتحرّجن عن وصفهن للرجال أو النساءِ كلِّهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعُم الإماءَ والعبيد، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمةَ بعبد وهبَه لها وعليها ثوبٌ إذا قنّعت به رأسَها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلُغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكوغلامُك»[١]. وقيل المراد بها الإماءُ، وعبدُ المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخُ الهُم[٢] والممسوحون[٣]، وفي المجبوب[٤] والخَصيِّ خلافَ، وقيل البُلْه الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم ولا يعرِفون شيئاً من أمور النساء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «غيرَ» بالنصب على الحال ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشهوة، من الظهور بمعنى الغلَبة. والطفلُ جنسٌ وُضع موضعَ الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ليتقعقع خَلْخالُها فيُعلمَ أنها ذاتُ خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغُ من النهي عن إظهار الزينة وأدلُّ على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبّ بالإسلام لكنه يجب الندمُ عليه والعزمُ على الكف عنه كلما يُتذكّر. وقرأ ابن عامر «أيهُ المؤمنون» وفي الزخرف «يا أيهُ الساحر»[٥] وفي الرحمن «أيهُ الثقلان»[٦] بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقون بغير الألف. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٥٩ رقم ٤١٠٦) وفي إسناده: سالم بن دينار وثقه ابن معين.
وقال أحمد: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو زرعة: لين الحديث، وقال الحافظ: مقبول.
[انظر «الجرح والتعديل» (٤/ ١٨٠ ـ ١٨١) و«التقريب» (١/ ٢٧٩ رقم ٦)].
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) الشيخ الهِمّ: الفاني وهي هِمّة.

(٣) الممسوح: من لا آلة له.

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

(٥) الزخرف: «٤٩».

(٦) الرحمٰن: «٣١».

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ لمّا نهىٰ عما عسىٰ يُفضي إلى السفاح المُخِلّ بالنسب المقتضي للأُلفة وحسنِ التربية ومزيدِ الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغةً فيه عقّبه بأمر النكاح الحافظِ له. والخطابُ للأولياء والسادة. وفيه دليلٌ على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعارٌ بأن المرأة والعبد لا يَستبدّان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولىٰ. وأيامَى مقلوبُ أيايم كيتامى، جمع أَيِّم وهو العزَب ذكراً كان أو أنثى بِكراً كان أو ثيباً قال:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي ـ وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمُ ـ أَتَأَيَّمِ[1]

وتخصيصُ الصالحين لأن إحصانَ دينهم والاهتمامَ بشأنهم أهمّ، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه. ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ردٌّ لِما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يَمنعَنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غُنيةً عن المال فإنه غادٍ ورائحٌ. أو وعدٌ من الله بالإغناء لقوله ﷺ: «اطلُبوا الغنى في هذه الآية»[2]، لكنْ مشروطٌ بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾[3]. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سَعة لا تنفد نعمتُه إذ لا تنتهي قدرتُه ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسُط الرزقَ ويقدِر على ما تقتضيه حكمتُه.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليجتهدْ في العِفة وقمع الشهوة. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما يُنكَح به، أو بالوُجدان التمكنُ منه. ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المكاتبةَ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتُك على كذا من الكتاب لأن السيد

---

(١) من الطويل.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ. وفي معناه حديث «التمسوا الرزق بالنكاح» أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد ـ وهو ضعيف ـ وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فإنَّهنَّ يأتين بالمال». قال الحاكم ـ (٢/ ١٦١) ـ تفرد به سلم وهو ثقة. وقال البزار ـ (٢/ ١٤٩ ـ كشف) ـ والدارقطني في العلل ـ وغير سلم يرويه مرسلاً. انتهى. وهو كما قال.
ـ وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة ـ (في المصنف: ٤/ ١٢٧) ـ عن أبي أسامة، فلم يذكر عائشة.
ـ وكذلك أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص١٨٠ رقم ٢٠٣) عن أبي توبة ـ واسمه الربيع ـ عن أبي أسامة ـ ورجاله ثقات رجال الشيخين ـ.
ـ وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان ـ ص٢٤٢ ـ بلفظ «عليكم بالتزويج فإنه... الرزق» ـ من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولاً. والحسين متهم بالكذب ـ المجروحين. ـ (١ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ـ. انظر «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٧٧).

(٣) التوبة: «٢٨».

كتب على نفسه عِتقَه إذا أدّى المال، أن لأنه مما يُكتب لتأجيله، أو من الكَتْب بمعنى الجمع لأن العِوَض فيه يكون مُنَجّماً بنُجوم بضمّ بعضِها إلى بعض ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمةً، والموصولُ بصلته مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أو مفعولٌ لمضمرٍ هذا تفسيره، والفاءُ لتضمّن معنى الشرط. والأمرُ فيه للندب عند أكثر العلماء، لأن الكتابة معاوَضَةٌ تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها، واحتجاجُ الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيفٌ لأن المُطْلق لا يعمّ، مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السَّلَم فيما لا يوجد عند المحلّ. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانةً وقدرةً على أداء المال بالاحتراف، وقد رُوي مثله مرفوعاً[١]. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً، وضَعْفُه ظاهرٌ لفظاً ومعنًى، وهو شرطُ الأمر فلا يلزم من عدمه عدمُ الجواز. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذُلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقلُّ ما يُتموّل. وعن علي رضي الله تعالى عنه يَحُطّ الربع[٢]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث[٣]. وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يُؤتوا ويَعتِقوا، وقيل أمرٌ لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمَهم من الزكاة، ويحِلُّ للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقةً كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية»[٤]. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ إماءَكم. ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ على الزنا، كانت لعبدالله بن أُبيّ ستُّ جَوارٍ يُكرهُهن على الزنا، وضَرب عليهن الضرائبَ فشكا بعضُهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت[٥]. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً، شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جُعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جوازُ الإكراه لجواز أن يكون ارتفاعُ النهي بامتناع المنهيِّ عنه. وإيثارُ «إنْ» على إذا لأن إرادة التحصّن من الإماء كالشاذّ النادر. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهن، أوْ له إن تاب، والأولُ أوفقُ للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ولا يرد عليه أن المُكرَهةَ غيرُ آثمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراهَ لا ينافي المؤاخذةَ بالذات، ولذلك حَرُم على المُكْره القتلُ وأُوجِب عليه القِصاص.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (١٣/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٢٩) عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠/ج١٨/ ١٣١) والمصنف لعبدالرزاق (٨/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٥ رقم ١٤٩٣) و(٥/ ٢٠٣ رقم ٢٥٧٨) و(٩/ ١٣٨ رقم ٥٠٩٧) و(٩/ ٤٠٤ رقم ٥٢٧٩) و(٥/ ٤١٠ رقم ٥٢٨٤) و(١٢/ ٣٩ رقم ٦٧٥١) ومسلم (٢/ ٧٥٥ رقم ١٧١ ـ ١٧٢) و(٢/ ١١٤٣ ـ ١١٤٥ رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٤) من حديث عائشة في حديث قصة بريرة وعتقها.

(٥) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١١٩ رقم ٨٢).

وهو عند مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٦/ ٢٧) من حديث جابر.

ـ وأخرجه البزار (٣/ ٦٠ ـ كشف) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٧) من حديث ابن عباس.

ـ وأخرجه البزار من حديث أنس نحوه وفي إسناد حديث أنس كذاب ـ كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣).

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني الآياتِ التي بُينت في هذه السورةِ وأوضحت فيها الأحكامُ والحدود. وقرأ ابن عامر وحفصٌ وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي الطلاق[1] لأنها واضحات تصدِّقها الكتبُ المتقدمة والعقولُ المستقيمة منْ بَيَّن بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكامَ والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال مَن قبلكم أي وقصةً عجيبة مثلَ قِصصهم، وهي قصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسفَ ومريمَ. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وَعظ به في تلك الآيات، وتخصيصُ المتقين لأنهم المنتفعون بها، وقيل المرادُ بالآيات القرآنُ والصفاتِ المذكورةِ صفاتُه.

(٣٥) ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفيةٌ تُدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائرَ المبصَرات كالكيفية الفائضة من النيِّرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرَمٌ بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منوِّر السموات والأرض، وقد قرىء به فإنه تعالى نوّرهما بالكواكب وما يَفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبّرِهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نورُ القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجِدُهما فإن النورَ ظاهرٌ بذاته مظهر لغيره وأصلُ الظهور هو الوجود كما أن أصلَ الخفاء هو العدم. والله سبحانه وتعالى موجود بذاته مُوجِدٌ لما عداه، أو الذي به تُدرَك، أو يُدرِك أهلُها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرِك نفسَها وغيرَها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكاتِ ليست لذاتها وإلا لما فارقتْها فهي إذن من سبب يُفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سُمّوا أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي مَن فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصورِ الإدراكات عليهما وعلى المتعلَّق بهما والمدلول لهما ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ صفةُ نوره العجيبةُ الشأن، وإضافتُه إلى ضميره سبحانه وتعالى دليلٌ على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكُوّة الغيرُ النافذة. وقرأ الكسائي برواية . . . . . .

(١) الطلاق: «١١».

الدوري[١] بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأُنبوبةُ في وسط القنديل والمصباحُ الفتيلة المشتعلة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء متلألىء كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدَّرأ، وفُعيّل كمُريّق من الدرء فإنه يدفع الظلامَ بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزتُه ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دِرِيءٌ كشِريب وقد قرىء به مقلوباً[٢]. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداءُ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعُه بأن رويَت ذُبالتهُ بزَيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفِها بالبركة ثم إبدالِ الزيتونة عنها تفخيمٌ لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أَوْقد، وحمزةُ والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرىء تَوَقّدُ من تتوقد، ويَوَقّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي تكون على قُلّة أو صحراءَ واسعةٍ، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتُها أصفى، أو لا نابتةٍ في شرق المعمورة وغربِها بل في وسطها وهو الشامُ فإن زيتونه أجودُ الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمسُ عليها دائماً فتحرِقها أو في مَقْنأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقْنأة[٣] ولا خير فيهما في مضحى»[٤] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألُئه وفَرْط وَبيصِه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نورَ المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزُهرةُ القِنديل وضبطُ المِشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآياتُ المبينات في جلاء مدلولها وظهورِ ما تضمنتْه من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيهٌ للهدى من حيث إنه محفوفٌ بظلمات أوهام الناس وخيالاتِهم بالمصباح، وإنما وليَ الكافُ المشكاةَ لاشتمالها عليه وتشبيهُه به أوفقُ من تشبيهه بالشمس، أو تمثيلٌ لما نوّر الله به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثِّ فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبيّ: مثلُ نورِ المؤمن، أو تمثيلٌ لِما منَح الله به عبادَه من القُوى الدراكة الخمسِ المترتبة التي منوطٌ بها المعاشُ والمَعاد وهي: الحسّاسةُ التي تُدرك بها المحسوساتُ بالحواس الخمس، والخَياليّةُ التي تحفظ صورَ تلك المحسوساتِ لتعرِضَها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائقَ الكلية والمفكّرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلمَ ما لم تعلم، والقوةُ القدسية التي تتجلى فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ الملكوت المختصةُ بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

---

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمرٍ الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.
قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٥٥].

(٢) قوله قرىء به مقلوباً أي (دِئْري).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.